المدخل إلى علم النفس الاجتماعي

دكتور مصطفى فهمي

أستاذ علم النفس بكلية التربية النوعية [illegible]

زميل الجمعية النفسية البريطانية



المدخل إلى علم النفس الإجتماعى

دكتور لطفى فطيم

أستاذ علم النفس كلية التربية النوعية بالدقى

زميل الجمعية النفسية البريطانية

مكتبة النهضة المصرية

١٩٩٢

المدخل الى علم النفس الاجتماعى

د. لطفى فطيم
استاذ علم النفس
كلية التربية النوعية بالدقى

" محتويات الكتاب "



" الفصل الأول "

علم النفس الاجتماعى بين علم النفس وعلم الاجتماع

* علم النفس العام وعلم ا لنفس الاجتماعى .
* علاقة علم النفس بعلم الاجتماع .
* العلاقات الاجتماعية، موضوعا لعلم الاجتماع .
* مفهوم الانسان فى علم الاجتماع .
* طبيعة الانسان .
* دور التنشئة الاجتماعية فى تكوين البناء النفسى .

" الفصل الأول "

علم النفس الاجتماعي بين علم النفس وعلم الاجتماع

"الانسان حيوان اجتماعي" عندما قرر ارسطو هذه الحقيقة لم يدر بخلده انها ستظل قضية يناقشها اصحاب علم النفس الاجتماعي بعده بالآف السنين، وانها ستكون المسألة الاساسية في هذا الفرع من العلوم الانسانية.

ولكي يقرر اصحاب علم النفس الاجتماعي مدى صحة هذه المسلمة وجدوا أن عليهم دراسة كيف ينشأ الطفل داخل العائلة ويتعلم قواعد "لعبة الحياة" المكتوبة منها وغير المكتوبة. كما درسوا أيضا كيف يتأثر سلوك الاباء انفسهم بطبقتهم الاجتماعية ومهنهم ودينهم بل وبكل ذلك الكم الهائل من الأعراف والتقاليد والافكار والقيم المميزة للثقافة التي يعيشون فيها.

وفضلا عن ذلك يدرس علم النفس الاجتماعي الظروف والاحوال والدوافع التي تحفز الناس الى الانضمام لجماعات أو احزاب سياسية أو نقابات أو نوادأى باختصار تلك الدوافع التي تجعلهم يستجيبون لمختلف نواحي بيئتهم الثقافية والاجتماعية.

وهكذا فان علم النفس الاجتماعي يتناول بالدراسة الفرد في اطار بيئته الاجتماعية والثقافية. وهذا التحديد لموضوعه يضعه في علاقة مع علم النفس العام من جهة وعلم الاجتماع من جهة اخرى.

وغالبا ما تبدو هذه العلاقة وثيقة لدرجة تطمس الحدود بين هذه العلوم، ومع ذلك فان هذه العلوم تختلف فيما بينها من حيث المنهج والاهداف.

علم النفس العام
وعلم النفس الاجتماعي

يمكن تعريف علم النفس العام ببساطة باعتباره الدراسة العلمية للحياة العقلية بكافة مظاهرها. ولتلك الدراسة طرق متنوعة فركز البعض مثل فرويد اهتمامه اساسا على جوانب الحياة العقلية الداخلية -اللاشعورية غالبا- للفرد وغايتهم هي اكتشاف الدوافع النهائية ،وتحليل الدفعات والحوافز والمشاعر التي تجعل البشر يتصرفون بالطريقة التي يتصرفون بها. وهذا هو ما يسمى بالمدخل الدينامي او الدافعي .

وركز آخرون اهتمامهم على الجوانب الخارجية للحياة العقلية خاصة الاستجابات الجسمية الظاهرة للكائنات لمؤثرات البيئة الخارجية. ويزعمون أن طريقتهم أكثر علمية بمعنى أنهم يستطيعون التعبير بموضوعية عن ملاحظاتهم بواسطة التقدير الكمي لكل من الاستجابة والمنبه في الموقف المعين. ويعتبر السلوكيون خير ممثل لهذا الاتجاه .

" علاقة علم النفس بعلم الاجتماع "

علم الاجتماع هو علم سلوكي اولا وقبل كل شي؛ فهو يحاول تفسير السلوك الانساني (المعاصر والتاريخي) سواء ذلك الذى يصدر عنا أو ذلك الذى نستجيب له أيا كان مصدره (الفنون، الاثار، القوانين، الكتب ....الخ) غير ان هذا التعريف الواسع يعنى ان التاريخ والاقتصاد - بل حتى النقد الادبى - يمكن ان تعد علوما سلوكية.
يجب أن نقرر فى البداية أن لكل فرع من فروع الدراسات الاجتماعية والانسانية موضوعا خاصا متميزا. فعلم السياسة على سبيل المثال يتناول الأساليب التى يحدد بها المجتمع حق استخدام السلطة الشرعية. ويتناول بالتحليل الافكار المتعلقة بالسلطة والحكومة ويصف التوزيع الفعلى للسلطة والمسئوليات العامة والمؤسسات التى يتم ممارسة هذه السلطة من خلالها.

فاذا نظرنا الى علم الاجتماع فسنجد أن هناك بالفعل بعض الموضوعات التى لا ينازعه فيها أحد مثل النظم الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية والعملياتالاجتماعية وغير ذلك، ويمكن القول باختصار ان هناك ثلاث موضوعات رئيسية لعلم الاجتماع هى المجتمعات والنظم الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية.
وتحظى فكرة أن موضوع علم الاجتماع هو العلاقات التى تربط بين عناصر المجتمع بقبول واسع وان كان البعض قد يرى أن النظم الاجتماعية فى ذاتها كالأسرة والمؤسسة الدينية والمدرسة والحزب السياسى هى الموضوعات التى يجب على علم الاجتماع ان يتناولها، على أساس أن المجتمع ككل يمثل فعلا وحدة التحليل فى علمى التاريخ والانثروبولوجيا. على أن الاتجاه المعاصر يحبذ دراسة الخصائص العامة المشتركة للنظم الاجتماعية.
يعرف علم النفس بانه علم دراسة العقل؛ أو العمليات العقلية. فدراسات علم النفس تتناول قدرات العقل على ادراك الاحاسيس، ومنحها معانى معينه ثم الاستجابة لهذه الاحاسيس. بعبارة أخرى يعالج علم النفس العمليات العقلية كالادراك والتعرف والتعلم. ويولى علماء النفس المحدثين اهتماما خاصا لدراسة المشاعر والعواطف والدوافع والحوافز، والدور الذى تلعبه فى تحديد نمط الشخصية
ولعلم النفس جذور عميقة فى كل من علمى الاحياء ووظائف الاعضاء يرتبط بهما حتى الآن ارتباطا وثيقا. والملاحظ أن جانبا كبيرا من بحوث علماء النفس التى تتناول الادراك البصرى والسمعى لا تحتل أهمية كبيرة بالنسبة للسلوك الاجتماعى، بينما نجد ارتباطا واضحا بين الدراسات التى تتناول العواطف والدافعية...الخ، وتلك التى تتناول مشاركة الفرد فى العلاقات الاجتماعية. وغالبا ما يسعى دارسو الادراك والتعليم والعمليات العقلية الأخرى الى التوصل الى قوانين الوظائف السيكولوجية، تلك القوانين التى تتجاوز الفروق بين الأفراد أو حتى الأنواع. أما الذين يدرسون العواطف والمشاعر والسلوك العرفى فغالبا ما يتناولون الفرد والطابع المميز لشخصيته، وهذا ينطبق -بصفة خاصة -على علماء النفس الاكلينيكيين.

ويعد مفهوم "لشخصية" مفهوما محوريا بالنسبة لعلماء النفس الذين يعنون بالجوانب السيكولوجية أكثر من عنايتهم بالجوانب الفسيولوجية. ويكاد يلعب مفهوم "الشخصية" هنا بالنسبة لعالم النفس نفس الدور الذى يلعبه مفهوم "المجتمع" أو "النسق الاجتماعى" بالنسبة لعالم الاجتماع وبهذا المعنى فان علم النفس يحاول تفسير السلوك كما يتبدى فى شخصية الفرد، وكما يتحدد من خلال وظائف أعضائه وجهازه النفسى وخبراته الشخصية الفريدة. أما علم الاجتماع فيحاول على العكس من ذلك -فهم السلوك كما يتبدى فى المجتمع، وكما يتحدد من خلال بعض العوامل مثل عدد السكان والثقافة والتنظيم الاجتماعى ...الخ .

ويكاد يلتقى علم الاجتماع وعلم النفس عند نقطة معينه تشكل مبحثا متميزا هو علم النفس الاجتماعى. ومن وجهة النظر السيكولوجية الخالصة، نجد علم النفس الاجتماعى يهتم بتناول الوسائل التى من خلالها تخضع الشخصية (أو السلوك) للخصائص الاجتماعية للفرد أو الوضع الاجتماعى الذى يشغله. ويمكننا أن نستشهد على ذلك بدراسات سولومون آش على الامتثال والادراك. فلقد أوضح كيف أن العملية السيكولوجية (الادراك) تتأثر بالموقف الاجتماعى، مما يؤدى الى حدوث اضطراب معين فى ادراك الشخص.

أما من وجهة النظر السوسيولوجية فاننا نجد علم النفس الاجتماعى يضم فيما يضم أية دراسة للعمليات الاجتماعية تحاول توضيح كيف أن الخصائص السيكولوجية لكل فرد، أو الاستعدادات الشخصية لمجموعة معينة من الأفراد أو التصرف على نحو معين فى موقف معين، يمكن أن يؤثر على طابع العملية الاجتماعية.
على أن وجهتى النظر السوسيولوجية والسيكولوجية فيما يتعلق بعلم النفس الاجتماعى غالبا ما تتداخلان وتختلطان عند اجراء البحوث الواقعية. ففى الدراسات التى تتناول الرأى العام، أو الحركات الجماهيرية فى مجال السياسة والدين مثلا، نجد صعوبة كبيرة فى التمييز بين اهتمامات عالم الاجتماع واهتمامات عالم النفس. لذلك نجد البعض يذهب الى أنه لا ضرورة لاعتبار علم النفس الاجتماعى علما مستقلا.

العلاقات الاجتماعية، موضوعا لعلم الاجتماع

كما أن المجتمعات تعتبر أنساقا معقدة من النظم، كذلك تعتبر النظم أنساقا معقدة من "علاقات اجتماعية" أكثر بساطة. فالأسرة - على سبيل المثال - تتكون من مجموعات عدة من العلاقات، منها العلاقات القائمة بين الرجل وزوجته، والعلاقات بين الأبوين والطفل، وبين الاخ واخته وبين الجدين والحفيد. فكل علاقة من هذه العلاقات يمكن أن تدرس كنمط متميز. ونستطيع فى دراستنا لكل العلاقات الاجتماعية أن نتتبع بعض الجوانب المشتركة مثل بعض الخصائص المتعلقة بحجم الجماعة (ثنائية، أو ثلاثية، ...... الخ) أو نوع العلاقة مثل دراسة السيطرة والخضوع......الخ.

ونستطيع من وجهة النظر التحليلية أن ندعى أن مثل هذه العلاقات تكون موضوعا مستقلا متميزا للدراسة. كما نستطيع أن ندرس الخصائص التى تؤدى الى خلق التشابه والتباين بين النظم، كذلك نستطيع دراسة العلاقات الاجتماعية بنفس الطريقة. بل أننا نستطيع أن نذهب الى أبعد من هذا فندعى أن هذه العلاقات ليست سوى (جزيئات) الحياة الاجتماعية، وأنه ما تزال هناك وحدة أصغر، هى "الفعل الاجتماعى" الذى يمثل "الذرة" الحقيقية للحياة الاجتماعية، التى يمكن أن تكون موضوعا خاصا لدراسة علم الاجتماع.
ونكتفى فى هذا المقام بالاشارة الى أن ماكس فيبر قد التزم التزاما جادا بالفكرة التى مؤداها أن علم الاجتماع يقوم أساسا على دراسة العلاقات والافعال الاجتماعية، كما وضع مجموعة من المقولات لوصفها وتحليلها. وقد شاركه فى هذه النظرية بعض علماء الاجتماع الألمان البارزين الذين دافعو عن ....

فكرة ان دراسة العلاقات الاجتماعية تمثل الموضوع الوحيد المتميز لعلم الاجتماع. كما ان الجانب الاكبر من كتابات جورج زيمل فى علم الاجتماع كانت تطبيقا لهذا المبدا الاساسى. وكان تالكوت بارسونز من بين علماء الاجتماع المعاصرين الذين عبروا عن آراء مشابهة لهذه. فاذا انطلقنا من المبدا القائل بان لكل علم من العلوم موضوعا خاصا متميزا اتضح ان هناك مجموعة من النظم التى لم تفلح فى ان تصبح موضوعا لاى علم راسخ مستقل واصبحت بدلا من ذلك موضوعات لفروع من علم الاجتماع. وقد راينا ايضا انه حتى اذا استطاعت بعض النظم الاجتاعية - كالاسرة مثلا - ان تصبح موضوعا لدراسة علوم مستقلة متميزة فان المجتمعات والنظم والعلاقات الاجتماعية والعمليات الاجتماعية (كالتباين، والتعاون، والتقييم، والمنافسة) سوف تظل تمثل مراكز متميزة للتحليل السيوسولوجى. والمعروف طبعا ان الانثروبولوجيا تتناول نفس هذه الموضوعات جميعا كما اصبح التاريخ يهتم بدراسة المجتمعات والنظم الاجتماعية. ولكى نميز بين اى علمين تمييزا دقيقا يجب الا نقتصر على مقارنة الموضوع فى كل منها فقط وانما يجب ان تمتد المقارنة الى الاهداف التى يسعى كل منهما الى تحقيقها، والمناهج التى يستخدمها.

ومع ذلك يجب ان ندرك حتى وان كانت هناك بعض النظم - كالنظام الاقتصادى او السياسى - تمثل موضوعا لدراسة علوم مستقلة ومتخصصه فانها ستظل مع ذلك موضوعات للبحث السيولوجى. فذلك الجانب من جوانب اى نظام الذى يربطه باى نظام آخر هو خاصيته "كنسق" متشابك من الافعال. ولذلك نستطيع ان نقول: ان علم الاجتماع هو دراسة انساق الفعل الاجتماعى والعلاقات المتبادله بينها. وابرز هذه الانساق - مرتبة تصاعديا تبعا للحجم ودرجة التعقيد - ما يلى: الافعال الاجتماعية المستقلة، العلاقات الاجتماعية، التنظيمات والنظم، المجتمعات المحلية، والمجتمعات.

مفهوم الانسان فى علم الاجتماع

لابد لعلم الاجتماع ان يقدم تصورا معينا عن طبيعة الانسان. ومن الطبيعى ان يؤثر هذا التصور على الدراسات الاجتماعيةوعلى الرغم من ذلك نلحظ اتجاها شائعا فى علم الاجتماع يميل الى رفض تفسير الظواهر الاجتماعية فى ضوء العوامل السيكولوجية التى تتالف منها الحياة الاجتماعية.

ولا شك ان الذين يرفضون تفسير الظواهر الاجتماعية فى ضوء العوامل السيكلوجية قد تاثروا تاثرا واضحا بالدراسة الشهيرة التى اجراها دوركايم عن الانتحار. والتى اكد فيها استحالة تفسير معدلات الانتحار فى ضوء حقائق علم النفس الفردى. ولقد حدد دوركايم هدف دراسته للانتحار بقوله: "الهدف من هذه الدراسة هو تحديد العوامل الاساسية التى تسهم فى حدوث الانتحار .... ونحن لا نهتم هنا كثيرا بدوافع الفرد وافكاره"

وبعد ان استعرض دوركايم النظريات المختلفه المفسرة لظاهرة الانتحار (بما فى ذلك النظرية السيكلوجية) نجده يؤكد بوضوح: "حينما تجاهلنا الفرد وبدانا فى دراسة اسباب الانتحار فى المجتمعات، وحللنا هذه الاسباب فى ضوء طبيعة هذه المجتمعات، ادركنا - حينئذ - ان معدل الانتحار فى المجتمع لا يمكن تفسيره الا من خلال وجهة نظر سوسيولوجية خالصة" .

والمؤكد ان دوركايم كان يكافح من اجل احلال النزعة السوسيولوجية محل النزعة السيكولوجية، ساعيا الى خلق وعى جديد بالدور الذى تلعبه الخصائص والعوامل الاجتماعية فى مواقف الانتحار. واذا ما اخذنا فى اعتبارنا المشكلات التى واجهها دوركايم فى هذا المجال سنجد مبررا لدعوته القوية واصراره الشديد على اهمية العوامل الاجتماعية فى تفسير الواقع الاجتماعي.
وعلى الرغم من ان موقف دوركايم كان ملائما تماما للعصر الذى عاش فيه، الا ان هذا الموقف لم يعد يتفق مع طبيعة علم الاجتماع الحديث. فمن الصعب الان ان نقدم تحليلا سوسيولوجيا لمشكلات عديدة، دون ان نضع فى اعتبارنا النظريه السيكولوجية والحقائق المختلفة التى يتوصل اليها علماء النفس المعاصرون. وتميل اغلب التحليلات السوسيولوجية المعاصرة الى الاستعانة بالنظريات المختلفة التى تتناول طبيعة الشخصية الانسانية ومن شان هذه الاستعانة ان تزودنا بفهم اعمق بطبيعة المشكلات الاجتماعية وبقدرة اكبر على مواجهتها.
وعلى الدارس الذى يهتم بتحليل البناء الاجتماعى ان يفسر آثار الفعل الاجتماعى على الطابع النظامى للمجتمع. ولكى يتمكن من اجراء هذا التحليل، عليه ان يزن- بدقة - آثار هذا الطابع النظامى على الشخصية الانسانية اذ ان النتائج التى تحدثها الاجراءات النظامية تتوقف- الى حد كبير - على تاثيرها على الشخصيه الانسانية بمعناها الواسع. وعلى ذلك فاننا نجد الشخصية تمثل احد المتغيرات الوسيطة الهامة حينما نريد تحديد او تقييم الاثار التى يحدثها جانب من جوانب البناء الاجتماعى على جانب آخر. وفضلا عن ذلك هناك جانب آخر تلعب فيه العوامل النفسية دورا هاما وهو الخصائص السيكولوجية المختلفه التى تميز الافراد الذين يشغلون اوضاعا اجتماعية ذلك ان اداء الادوار الاجتماعية يتوقف -الى حد كبر- على حاجات الشخصية وعلى استعدادات الذين يشغلون الاوضاع الاجتماعية.

وتميل المناقشات التى تتناول الطبيعة الانسانية والمجتمع الى اثارة قضايا قديم قدم الفكر الانسانى من ذلك - مثلا- ماهى الخصائص الفطرية التى نرثها وماهى الخصائص المكتسبة التى نتعلمها؟ ما هى السمات العامة التى تميز الشخصية الانسانية؟ كيف تتحدد الخصائص العامة للشخصية لتميز مجموعة معينة من الناس دون مجموعة اخرى؟ تحت اية ظروف تظهر انماط مختلفه من الشخصية؟

* طبيعة الانسان :

يميل علماء الاجتماع الى التركيز على المجتمع كمضوع للدراسة تاركين الفرد موضوعا لدراسة علم النفس .لذلك فاننا نتوقع عدم وجود نماذج سوسيولوجية عديدة تتناول الانسان فى المجتمع
وعلى الرغم من ان مفهوم المجتمع يتمتع بقدر كبير من الوضوح لذى علماء الاجتماع، الا ان نظرتهم للانسان داخل المجتمع نظرة تتصف بقدر ملحوظ من الغموض. ومع ذلك فان هذه النظرة الغامضة تمارس فى بعض الاحيان تاثيرا كبيرا على دراساتهم.

ونستطيع ان نتعرف على مفهوم الانسان لدى معظم علماء الاجتماع اذا ماعقدنا مقابلة بين هذا المفهوم عندهم والمفاهيم الاخرى المقابلة له. فالنظرة الشائعة للانسان لدى اصحاب "النزعة الانسانية" تؤكد "تفرده، وتنوعه، وتغيره الدائم" ولقد اكد مونتانى هذه النظرية بقوله: "الانسان كائن عجيب، غير مستقر، بحيث يصعب التوصل الى قوانين تحكم سلوكه"

ومهما كان الاتجاه فان كافة مدارس علم النفس العام تدرس الظواهر العقلية من اجل استخراج الانماط العامة او الشائعة. وهدفها الرئيسى هو بناء صورة منتظمة (نسق) وشاملة للحياة العقلية اى صورة تمثل المكونات الاساسية للسلوك وكذلك المعايير التي تحكم وتنظم تلك المكونات. ولناخذ مثالا حالة عالم النفس الذى يهتم بدراسة الادراك فسنجد انه سيبدا اولا بملاحظة تفصيلية منظمة لمختلف افعال الادراك كالنظر والسمع واللمس والتذوق والشم. وعلى اساس من ملاحظاته تلك سيحاول أن يستخلص بعض القواعد او المبادىء العامة التى تنطبق على كل العمليات الادراكية بوجه عام. وقد يتوغل ابعد من ذلك ويحاول ان يكتشف شيئا عن الدور الخاص الذى تقوم به العمليات الادراكية فى سلوك الفرد وذلك بأن يبحث عن الطريقة التى ترتبط بها تلك العمليات بكل من الحوافز والمشاعر الداخلية والمنبهات الخارجية والخبرات السابقة والاتجاهات المستقرة.

وعلم النفس الاجتماعى جزء من علم النفس العام. وبالتالى فهو يتناول كافة نواحى الحياة العقلية التى تظهر لدى الفرد. ولكن محور الاهتمام لدى العلميين مختلف، أو بعبارة أخرى المسائل التى يسأل عنها العلمان مختلفة.

فالهدف الاساسى لعلم النفس الاجتماعى هو ان يكتشف كيف تتأثر الحياة العقلية للفرد او لجماعة من الافراد بالبيئة الاجتماعية ولأى مدى. وقد عبر عن هذا المعنى بكل اقتدار العالم الأمريكى البورت حين قال" يعتبر اصحاب علم النفس الاجتماعى علمهم محاولة لفهم وتفسير كيف تتأثر افكار ومشاعر وسلوك الافراد بوجود الكائنات الانسانية الاخرى سواء كان هذا الوجود فعليا او متخيلا او متضمنا"

ويؤدى تركيز علم النفس الاجتماعى على الطبيعة الاجتماعية للسلوك الى تأكيد الاعتماد المتبادل بين موضوعه وعلم الاجتماع. ويصل هذا الاعتماد المتبادل الى درجة انه يصعب احيانا ان يحتفظ كل منهم بكيانه المستقل، فهما يتناولان القضايا نفسها بل ويستخدمان النظريات والمفاهيم نفسها. وتكفى الاشارة الى أن نصف كتب علم النفس الاجتماعى تقريبا قد كتبها اصحاب علم الاجتماع.

علم النفس الاجتماعى اذن، يدرس كيف يفكر الانسان وينفعل ويتصرف فى المواقف الاجتماعية، كما يدرس ايضا كيف تؤثر البيئة الاجتماعية فى افكارنا ومشاعرنا وافعالنا. كيف ندرك ونفسر سلوك الآخرين ودوافعهم، وكيف تتشكل عقائدنا واتجاهاتنا وما الذى يحدد من نحبهم ومن نكرههم؟

ويستند علم النفس الاجتماعى فى دراسته لهذه الظواهر الى ملاحظتين اساسيتين عن السلوك الانسانى، اولهما أن السلوك هو محصلة للشخص وللموقف، فكما نعلم جميعا يختلف سلوك الناس فى الموقف الواحد، ويعكس سلوك كل شخص التكوين والصفات المتميزة الخاصة به، وهذا هو مجال علم نفس الشخصية، الفروق الفردية المميزة للافراد. وبالاضافة الى ذلك فان نفس الشخص يتصرف بأشكال مختلفة فى مختلف المواقف، حيث يحتوى كل موقف مجموعة من الظروف والقوى تؤثر على سلوك الشخص. وهذا هو تخصص علم النفس الاجتماعى.

اما الملاحظه الثانية فهى أن الاشخاص اذا ادركو الموقف على انه حقيقى فسوف تكون نتائجه حقيقية، وبتعبير آخر أن الناس لا يستجبون للعناصر الواقعية او الحقيقية فى الموقف وانما لتفسيراتهم الذاتية الخاصة له.

وهذا هو احد الاسباب التى تجعل مختلف الناس يختلفون فى سلوكهم تجاه الموقف الموضوعى الواحد. فالشخص الذى يفسر موقفا محرجا له على انه من تدبير آخرين سيستجيب بشكل مختلف عن الشخص الذى يفسر نفس الموقف على انه نتيجة لضعفه او قلة حيلته لهذا السبب يهتم علم النفس الاجتماعى بعمليات الادراك الاجتماعى وتفسيرها، اى بأساليب التعامل مع المعلومات الاجتماعية وبأشكال التحيز التى تتضمنها تلك الأساليب.

وعلى النقيض من ذلك نجد ان علماء الاجتماع يؤكدون عددا معينا من الحقائق من اهمها انتظام سلوك الانسان، وتكرار هذا السلوك في مواقف معينة، ثم امكان العد والقياس في مجال السلوك الانساني وهنا نجد علماء الاجتماع يهتمون بدراسة الانسان بوصفه مخلوقا ذو عادات اجتماعية، ثم يؤكدون ان الانسان لا يتصف بالخصائص التي اطلقها عليه اصحاب النزعة الانسانية، لانه لو صدقت هذه الخصائص لما عرفنا النظم الاجتماعية المختلفه التي اقامها الانسان ولما اتخذت الحياة الاجتماعية طابعا منظما.

اما مدرسة التحليل النفسي في شكلها الكلاسيكي فتميل الى اعتبار طبيعة الانسان ثابته بقدر او بآخر، ولكنها لا تسلم بسهولة بأن الدافع الاجتماعي يمثل عاملا مؤثرا ينعكس بوضوح وبانتظام في السلوك الانساني، اذ ان هذه المدرسة تنطلق من فكرة ان هناك موجهات اساسية للسلوك من ضمنها الدوافع البيولوجية العميقة والاستعدادات الغريزية التي تضمن للشخص تحقيق الاشباع. ومن الواضح ان وجهة نظر التحليل النفسي تمنح الفرد اولوية على المجتمع. ولكن من المعروف انه ظهرت اتجاهات داخل مدرسة التحليل النفسي تعطي للعامل الاجتماعي حقه مثل اتجاهات ايريك فروم وغيره.

وهناك اخيرا تصور شائع عن الانسان هو ذلك الذي ينطلق من وجهة نظر هوبز التي ترى ان الدوافع الاجتماعية هي التي تحكم سلوك الانسان، وان الطاقة الجنسية الغريزية ليست هي العامل الحاسم في هذا المجال. فالانسان يسعى الى تحقيق الأمان لنفسه ولجماعته، ومن اجل ذلك يحاول جمع المال وامتلاك مقاليد القوة والسيطرة. ومن الواضح أن الاشباع الشخصي (او الجماعي المحدود) هو ما يشغل الانسان طبقا لوجهة نظر هوبز. والنتيجة النهائية لذلك هي ان العالم يبدو وكأنه يخضع لممارسة القوة، اى ان الطابع العدواني يسيطر على علاقات الناس. وهنا نجد هوبز يؤكد ان قوة الدولة هي التي تحول دون نشوب الحروب والصراعات بين الناس.

ومع ان التصورات الثلاث السابقة للانسان لا تعكس لنا كل المحاولات المختلفة التي شهدتها الفلسفة السياسية الغربية، الا انها تمثل اساسا يمكن في ضوئه ان نحدد التصورات السوسيولوجية الشائعة عن الانسان.

ومما سبق يتضح لنا ان التصور السوسيولوجي للانسان يتضمن عددا من العناصر. ونستطيع ان نسجل هنا ثلاثة منها. اما العنصر الأول فيتعلق "بالطبيعة الأساسية" للانسان. ذلك ان علماء الاجتماع يميلون الى وصف هذه الطبيعة بطريقة حيادية. هي ليست خيرة تماما وليست شريرة تماما. انها تتضمن في داخلها احتمالات التطور والنمو، وان هذه الاحتمالات تتوقف على طبيعة الفترة الزمنيه ونوعية المجمتع الذي يعيش فيه الانسان. وفضلا عن ذلك نجد ميلا واضحا لتأكيد مرونة الانسان وقدرته على التشكل.

وتمثل التنشئة الاجتماعية العنصر الثاني للتصور السوسيولوجي للانسان. وبمقتضى التنشئه الاجتماعية يكتسب الفرد الثقافة ويستوعب قيم المجتمع واهدافه. اذ ان لدى الفرد استعدادا لأن يفعل ما يعتبره المجتمع صحيحا ومقبولا. وهنا -ايضا -نجد التصور السوسيولوجي يؤكد ان الطبيعة الداخلية للانسان تتصف بطابع اخلاقي، وان الانسان يميل -بشكل او بآخر -الى قبول متطلبات المجتمع ويسعى الى تحقيقها.

واخيرا نجد العنصر الثالث للتصور السوسيولوجي يتناول الطبيعة الخارجية للانسان فالعلاقات التي يقيمها الانسان مع الآخرين تعكس -بوضوح -ميله الاجتماعي.

ولو تأملنا شبكة العلاقات الاجتماعية التي يدخل فيها الانسان (وهي العلاقات التي تحقق اهدافا مختلفة) لاحظنا انه يستجيب للضغوط

ولقد كان من نتائج التصور السوسيولوجي للطبيعة الانسانية أن ظهر اتجاه واضح لدى علماء الاجتماع مؤداه: أن تغيير الناس يجب أن يبدأ أولا بتغيير الظروف الاجتماعية المحيطة بهم لا العكس. كذلك نجد علماء الاجتماع يعبرون عن شكوكهم في فعالية الاصلاحات التي تستند الى خلق ظروف خيالية تقوم على منح الحرية الكاملة للانسان وازالة كل العقبات والضغوط التي يخضع لها. وكنتيجة لذلك نجد علماء الاجتماع يتخذون موقفا وسطا. فهم يسلمون بأن الدوافع اللااجتماعية للانسان يجب أن تخضع للتهذيب وتوجه لخدمة الصالح العام، ولكنهم يقرون بعد ذلك أن الانسان - خلال هذه العملية - يعاني من ضغوط عديدة، ضغوط من شأنها أن تحول دون التعبير التلقائي عن دوافعه.

دور التنشئة الاجتماعية في تكوين البناء النفسي :

ينظر علماء الاجتماع الى الانسان الاجتماعي بوصفه مخلوقا يخضع لعملية التنشئة الاجتماعية التي بمقتضاها تتحول غرائزه الحيوانية لتتطابق مع طبيعة الحياة في مجتمع انساني ومن الواضح ان وجهة النظر هذه تتعارض مع تلك التي تؤكد الجانب الغريزي غير العقلي للانسان ويعتقد معظم علماء الاجتماع أن الانسان في كل مكان (بما في ذلك أشد القبائل بدائية) لديه طبيعة فطرية حيوانية أولية، وأن هذه الطبيعة تتغير بعد ذلك بفضل عملية التعليم الاجتماعي التي تخضع لها لفترة طويلة. ومن شأن عملية التعلم هذه أن توجه دوافعه البيولوجية لتتخذ مسالك مقبولة اجتماعيا، ومن ثم تحول طاقاته الغريزية لتصبح دوافع اجتماعية.

غير أن علماء الاجتماع لا ينكرون -مع ذلك- العناصر غير العقلية الداخلة في بناء الانسان، اذ نجد باريتو - على سبيل المثال -يؤكد دور الجوانب غير العقلية لسلوك الانسان وعلى أية حال فان علماء الاجتماع لا يشعرون أن الجانب غير العقلي للانسان يشكل عقبة تحول بينه وبين قبول الحياة في المجتمع، وهم يؤكدون قدرة المجتمع على الحيلولة دون ظهور الآثار السلبية التي تحدثها الجوانب غير العقلية للانسان من خلال الضبط الاجتماعي وما يتضمنه من جزاءات. وفضلا عن ذلك فهم يؤكدون سعي الانسان الدائم نحو تحقيق أهداف اجتماعية وشخصية، تلك الأهداف التي تتخذ طابعا شرعيا من خلال الثقافة. وبهذا المعنى يمكن القول ان معظم الأفعال الانسانية تتصف بالمعقولية أو الرشد، ان ذلك هو الأساس الذي بدونه تصبح الحياة الاجتماعية صعبة التحقيق. وبدون الاعتماد المتبادل بين الناس لا تقوم قائمة للحياة الاجتماعية ذاتها.

واذن فعلماء الاجتماع ينظرون الى الانسان في ضوء دوافعه الاجتماعية. ومن الطبيعي أن تتعارض نظرتهم هذه مع نظرة هوبز التي تؤكد الطابع الانعزالي الفردي للانسان أنهم يؤكدون رغبة الانسان القوية في الارتباط بالآخرين، وميله الى الاعتماد عليهم، واستعداده لتوسيع نطاق قوته من خلال العمل الجماعي. ويميل التصور السوسيولوجي للانسان الى تأكيد حقيقة أساسية هي أنه (أي الانسان) يميل الى تقييم الآخرين ويسعى الى ربط نفسه بهم. وهنا يبدو الانسان وكأنه ملتزم بالتكيف المتبادل الذي يتم بمقتضاه تحقيق أهدافه الخاصة والأهداف العامة على حد سواء.

" الفصل الثانى "

الشخصية والمجتمع

* دور الشخصية فى بناء الجماعة .
* الأدوار الاجتماعية للشخصية .
* العناصر الأساسية للحياة الاجتماعية .
* علم النفس الاجتماعى بين الفرد والجماعة .

" الفصل الثانى "

الشخصية والمجتمع

دور الشخصية فى بناء الجماعة

بذلت محاولات سوسيولوجية عديدة لتصنيف الشخصية الانسانية بهدف تفسير الاختلافات السلوكية بين اعضاء المجتمعات وبين افراد الجماعات العديدة داخل المجتمع الواحد. فعلى سبيل المثال نجد توماس وزنانيكى يقدمان تصنيفا للشخصية يستند الى ثلاث نماذج "البوهمية" "والمعارضة" و"الابداعية" كما نجد بارك وستونكويست يقدمان نموذج "الانسان الهامشى" اما بول لازار سفليد فقد قدم نموذج الشخصية المؤثرة بينما نجد روبرت ميرتون يميز بين الشخصية "العالمية" "والمحلية". ولقد شجعت هذه المحاولات عددا آخر من علماء الاجتماع فقدموا تصنيفات اكثر اتساعا للشخصية كما هو الحال عند فانس باكارد -مثلا- (الذى توصل الى تحديد فئة من الناس اطلق عليهم " الباحثون عن المكانة") ونظرا للاهمية التى تنطوى عليها التصنيفات الاجتماعية - النفسية فى التحليل السوسيولوجى، فسنتعرض لمثالين بارزين فى هذا المجال .

- اما المثال الاول فيعبر عنه باريتو الذى قدم واحدا من التصنيفات الهامة ، ويعد مفهوم "الرواسب" أو الثوابت من المفاهيم الاساسية عند باريتو حيث يشير الى الخصائص الاساسية الدائمة للفعل الاجتماعى. ولقد اعتبر باريتو الرواسب بمثابة "الثوابت" التى يتضمنها السلوك الانسانى. فالراسب قد يمثل الخاصية الاساسية التى تميز المجتمع أو النظام أو الشخص - ولقد ميز باريتو بين ست فئات اساسية من الرواسب، ثم ميز بين المجتمعات والأزمان والجماعات والاشخاص طبقا للرواسب المميزة لها. فعلى سبيل المثال نجده يشير الى نمط "الثعالب" من الناس ويعتبر أن "راسب الربط والتاليف بين الأشياء" هو الراسب المعبر عنهم. فالثعالب-كما يقول باريتو- تبتكر وتخاطر وتستخدم التجارب المختلفه اما "الأسود" فهم على النقيض من الثعالب، لانهم أكثر تقليدية ويميلون الى السلوك الروتينى، فضلا عن انهم يفتقرون الى الخيال وعلى ذلك نجد الراسب المعبر عنهم هو "دوام الارتباط بالاخرين".

وقد استخدم باريتو هذا التصنيف لكى يفسر ما يطرأ على المجتمع من استقرار أو تغير حيث أوضح أن على المجتمع أن يخلق قيادة قوية تتمتع براسب "الربط والتاليف بين الاشياء" وأن يكون هناك اتباع يتمتعون براسب "دوام الارتباط بالاخرين" . ولكى يدلل باريتو على صدق وجهة نظره هذه ذهب الى أن الطبقات الحاكمة - فى أغلب الحالات التاريخية - لم تكن مرنة بالقدر الذى يمكنها من ضم بعض أفراد الطبقات المحكومة اليها واشراكهم فى الحكم ولعل هذا الموقف هو السبب الاساسى الذى يؤدى الى نشوب الثورات واستبدال صفوة جديدة تتمتع براسب "الربط والتاليف بين الاشياء" بالصفوة القديمة ويتكرر هذا الموقف دون نهاية مشكلا ما اطلق عليه باريتو "دورة الصفوة" وهكذا نجد باريتو يستخدم الانماط الاجتماعية لكى يقدم لنا نظرية دائرية فى التطور الاجتماعى.

اما دافيد ريزمان فقد قدم في مؤلف شهير له عددا من الانماط الاجتماعية الدقيقة اكتسبت شهرة كبيرة في علم الاجتماع ولقد ميز ريزمان بين ثلاثة انماط اساسية يعكس كل منها نموذجا معينا من الامتثال او الاستجابة للضبط الاجتماعي

والنموذج الاول هو "التوجه نحو التقليد" ويتضح هذا النموذج في سلوك الناس الذين يخضعون للمعايير الثقافية التقليدية المتمثلة في روابط القرابة والدين والطقوس والمراسيم والخاصية المميزة لهذا النموذج هي الامتثال للمعايير الخارجية للسلوك التي يضعها المجتمع . اما النموذج الثاني فهو "التوجه الداخلي" ومثال هذا النموذج سلوك الناس الذين يتصرفون في ضوء المعايير التي اكتسبوها من كبار السن خلال طفولتهم، تلك المعايير التي تحتم عليهم السعي نحو تحقيق اهداف لا مفر من تحقيقها. واخيرا نجد النموذج الثالث وهو "التوجه الى الاخرين" واصحاب هذا النموذج يخضعون مباشرة للاتجاه الذي يتخذه قرناؤهم ومن الواضح ان هذا النموذج يتعارض بوضوح مع النموذج السابق.

ولقد وصف ريزمان هذه النماذج بانها "تاريخية" ذلك لانه اعتقد ان كلا منها قد يميز مجتمعا معينا خلال فترة زمنية فنموذج "التوجه نحو التقليد "يسود المجتمعات المستقرة الساكنه التي تتصف فيها علاقة الانسان بالارض بالثبات. ويعتقد ريزمان ان اوربا قد شهدت بوضوح نموذج " التوجه نحو التقليد" خلال العصور الوسطى.

ويعتقد ريزمان ان تغير معدلات المواليد بالنسبه لمعدلات الوفيات قد يؤدى الى احداث تغييرات عميقة في مثل هذا المجتمع التقليدى. فمع زيادة عدد السكان تنخفض معدلات الوفيات وتتحسن اساليب الزراعة، ويتحقق الفائض الانتاجي. ومن شان هذه الظروف ان تخلق نمطا جديدا من الشخصية يميل الى الافادة من الفرص الجديدة. ويظهر هذا النمط من الشخصية خلال فترات الحراك الاجتماعى السريع وتراكم رؤوس الاموال والاختراعات، اى ان" التوجه الداخلى" يميل الى الظهور خلال تلك الفترات. وعلى ذلك نجد ريزمان يذهب الى ان نموذج الشخصية القائم على" التوجه الداخلى" قد ظهر بوضوح خلال عصر النهضة والاصلاح الذى شهدته اوروبا.

ويذهب ريزمان بعد ذلك الى ان المجتمع ما يلبث ان يتعرض لتغيرات اخرى. فانخفاض معدلات الوفيات يرتبط بانخفاض معدلات المواليد. وما يلبث حجم السكان ان يتجه نحو الثبات او الانخفاض، وما تلبث ان تحل الصناعة محل الزراعة، وتزداد مهن الخدمات، وتقل ساعات العمل، وتزداد السلع وفرة. وفى ظل هذه الظروف يجد الانسان ان من الضرورى عليه ان يهتم بالاخرين اكثر من اهتمامه بالبيئة المادية. وهنا تحل فترة زمنية يظهر فيها نموذج الشخصية " المتجهة نحو الاخرين". وتمثل الولايات المتحدة الامريكية فيما بعد الحرب العالمية الثانية اوضح مثال على ذلك .

ومن الواضح ان التصنيفات التى وضعها كل من باريتو وريزمان لم تكن فقط اجراء منهجيا خالصا. فلقد استخدماها فى دراسة نماذج تاريخية معينة للشخصية بهدف التعرف على العمليات الاجتماعية الاساسية لكل من التكيف والتغير. غير ان هذه التصنيفات قابلة دائما للتغير، ولنا ان نتوقع اختلاف التصنيفات باختلاف علماء الاجتماع واتجاهاتهم النظرية .

واذا دققنا النظر فى كثير من التصنيفات التى قدمها علماء الاجتماع، لاحظنا انهم يميلون الى استخدام مصطلحات ومفاهيم جديدة لوصف فئات او مقولات تم التعبير عنها من قبل بطرق مختلفة. فنموذج "التوجه نحو التقليد" عند ريزمان يكاد يقترب من مفهوم "دوام الارتباط بالآخرين" عند باريتو. كما ان نموذج "التوجه الداخلى" عند ريزمان يتشابه - الى حد كبير - مع مفهوم "الربط والتاليف بين الاشياء" عند باريتو.

وواقع الامر ان استخدام مثل هذه التصنيفات يتطلب منا التعرف على الاسس والمؤثرات التى تنهض عليها. ولسوء الحظ فاننا لا نستطيع ان نجد محاولات جادة للتميز بين الخصائص المختلفة التى تتضمنها هذه التصنيفات يمكن ان نفرق بينها على اساسها. فاذا كان نموذج "التوجه نحو الآخرين" - كما استخدمه ريزمان - يفترض ان الشخص يتاثر - اساسا بزملائه ومعاصريه، فاننا نجد النموذجين الآخرين " التوجه نحو التقليد والتوجه الداخلى" يفترضان ايضا أن الشخص يتاثر بالآخرين. هنا نجد انفسنا بحاجة الى التعرف على مدى التاثير الذى يمارسه الآخرون ، والمجالات التى يبدو فيها التاثير واضحا. هل يتعلق هذا التاثير باختيار سيارة يريد الشخص شراءها أم كتاب يريد قراءته ، ام فتاة يريد الاقتران بها ، ام مهنة يرغب فى الالتحاق بها؟ .

وتقودنا هذه التساؤلات الى اثارة قضية تتعلق بمدى صدق هذه التصنيفات وواقعيتها: فاذا كنا على يقين من ان الخصائص التى حددها باريتو وريزمان تتوافر بالفعل لدى الناس فكيف نستطيع ان نتعرف على ارتباطها ببعضها؟ وحتى اذا افترضنا أن هذه الخصائص المنفصلة مرتبطة ببعضها كماتخيل علماء الاجتماع فكيف نستطيع القول بأن هذه الخصائص تميز جماعات اجتماعية معينة يظن انها متماثلة؟ فعل سبيل المثال ما هى الشواهد الواقعية التى تمكننا من التعرف على مدى صدق القضية التى ذهب اليها ريزمان من ان نموذج "التوجه نحو الآخرين" يظهر بوضوح لدى الشرائح العليا من الطبقات الوسطى فى المدن الامريكية الكبرى؟ .

ولكى نتمكن من الاجابة على مثل هذه التساؤلات فاننا بحاجة الى مقاييس ذات صدق وثبات حتى نتمكن من التعرف على الخصائص التى نعتقد انها مميزه للجماعات الاجتماعية المختلفة -وباستخدام هذه المقاييس فاننا نستطيع التعرف على مدى صدق الخصائص التى اشار اليها ريزمان، كما نحصل على صورة واضحة عن مدى فائدة النماذج التى وضعها فى دراسة الجماعات الاجتماعية الواقعية.

وقد مكنت التطورات التكنولوجيه الحديثه علماء الاجتماع والنفس من تصميم مقاييس تتناول طابع الشخصية بحيث يمكن تطبيقها على جماعات اجتماعية كبيرة واستطاع هؤلاء العلماء بعد ذلك - بفضل استخدامهم للاساليب الاحصائية المختلفة - تحليل نتائج تطبيق هذه المقاييس ثم تفسيرها فى ضوء طبيعة البناء الاجتماعى: ومن اشهر واقدم المحاولات التى بذلت فى هذا المجال تلك التى قام بها البورت وفيرنون، فقد صمما مقياسا للقيم يميز بين ستة انماط من الشخصية كان قد حددها من قبل عالم النفس الالمانى شبرانجر. كذلك نجد محاولات اخرى تسعى الى تصميم مقاييس موضوعية لانماط الشخصية .

وربما كانت الدراسات التى اجريت عن الشخصية التسلطية اوضح مثال على نجاح الجهود الرامية الى تصميم مقاييس واقعية بهدف التعرف على انماط الشخصية الانسانية ولقد صك ايرك فروم - هو محلل نفسي-مصطلح الشخصية التسلطية استنادا الى ممارسته للطب العقلي. ثم ظهرت بعد ذلك مجموعة من علماء النفس حاولوا دراسة موضوع الشخصية التسلطية. ولقد كان احد ثمار ذلك ظهور مؤلف هام يعد من اهم وادق المؤلفات التى ظهرت في منتصف هذا القرن بعنوان " الشخصية التسلطية" . ولقد استندت دراسات هؤلاء العلماء الى ربط وثيق بين البيانات التى حصلوا عليها من الوثائق وبين البيانات الاخرى التى يتم الحصول عليها من خلال تطبيق الاختبارات السيكولوجية، ثم اطلقوا على هذا المركب مصطلح" التسلطية" ومن بين العناصر التى يتالف منها هذا المركب: "النزعة التقليدية المفرطة،" ومقاومة استبطان الذات"، اى مقاومة الشخص تامل مشاعره وانفعالاته ودوافعة، والميل الى اعتبار السلطة مسالة مطلقةوانها تتطلب - بالضروره- الاذعان.

ولا شك ان التقدم الذى تحقق فى مجال اختبارات الشخصية قد اتاح الفرصة للاجابة على تساؤل هام يتعلق بدراسة الانسان وهو:"هل هناك فروق اساسية بين شخصيات الناس الذين يشكلون دول العالم"؟ وهو الموضوع المعروف باسم الطابع القومي والواقع ان مفهوم الطابع القومي ليس مفهوما قديما فحسب، ولكنه خضع ايضا لانتقادات مريرة ذلك لان بعض الدارسين قد عدوه مفهوما عنصريا متحيزا. غير ان ذلك لم يمنع بعض العلماء الاجتماعيين من معالجة هذا المفهوم معالجة نظرية وتجريبيه فى وقت واحد.

ولم يهتم دارسو الطابع القومى فقط بدراسة المجتمعات الحديثة ولكنهم اهتموا ايضا -وبنفس الدرجة- بالمجتمعات التاريخية او القديمة. فعلى سبيل المثال نجد دافيد ماكليلاند يستخدم بعض المقاييس لكى يرتب افراد الشعوب المختلفه طبقا "لحاجتهم الى الانجاز" ولقد استعان ماكليلاند بشواهد تاريخية تمكن من خلالها تحليل "الحاجة الى الانجاز" لدى اليونان القديمة واسبانيا خلال العصور الوسطى وانجلترا خلال الفتره التى سبقت الثورة الصناعية وعلى الرغم من الصعوبات العديدة التى تواجه مثل هذا النوع من الدراسات الا انها تسهم فى فهمنا للديناميات الاجتماعية المختلفة.

ولا شك ان الدراسات السابقه لا تعدو ان تكون بداية متواضعة لفهم ميدان واسع من ميادين البحث الاجتماعي. لقد علمتنا التجارب ان الواقع الاجتماعى اعقد بكثير من الاطر والتصنيفات النظرية التى تتناوله وان المدخل الى التغير الاجتماعي هو امر اشد تعقيدا مما تخيله الدارسون فسمات الشخصية التى حددها باريتو وريزمان والتى اشرنا اليها فيما سبق هي سمات يصعب قياسها فى الواقع كما ان من الصعب عزلها عن السمات الاخرى للشخصية . وبالاضافة الى ذلك نلاحظ ان مكونات الشخصية تختلف من عالم لعالم آخر. ولهذه الاسباب جميعها فاننا لا نزال فى بداية الطريق الذى يوصلنا الى فهم اعمق لسمات الشخصية- ولا شك اننا نعقد آمالا كبيرة على الدراسات الحضارية المقارنه التى ستجرى فى المستقبل غير ان القيمة التى تنطوى عليها هذه الدراسات تتوقف على التقدم الذى يمكن احرازه فى مجال الدراسه التاريخيه للشخصية وهو الذى يحدد مدى فهمنا للدور الذى تلعبه الشخصية فى احداث التغير الاجتماعي.

" الادوار الاجتماعية للشخصية "

يميل عدد كبير من علماء الاجتماع الى ابراز الدور الذى تلعبه الشخصية الانسانية عند اجراء تحليلاتهم السوسيولوجية. ومن ثم فانهم يسلمون بأن العوامل المرتبطة بالشخصية تلعب- على الاقل نظريا -دورا هاما فى تحديد السلوك الاجتماعى للفرد. غير أن هؤلاء العلماء لا يعتقدون-بعد ذلك- أن العوامل المكونة للشخصية تتمتع بنفس القدر من النفوذ الذى تتمتع به القوى "الموضوعية" أو الوضع الاجتماعى للفرد وفقا للدخل والتعليم والمهنة الخ... لذلك فاننا نجد من الضرورى هنا توضيح دور النظرة السيكولوجية فى فهم بعض الموضوعات السوسيولوجية الهامة مثل الالتحاق بالمهن والأوضاع الاجتماعية واداء الادوار الاجتماعية.

وقد اعتاد علماء الاجتماع أن يفسروا أداء الناس لالتزاماتهم الاجتماعية فى ضوء الجزاءات التى تفرض على الذين لا يؤدون التزاماتهم والمكافآت التى يحصل عليها أولئك الذين يؤدونها. ومن هنا فان الاداء يبدو انه متوقف على عوامل "خارجة" عن نطاق الشخص والشىء الوحيد الذى يمكن أن "يدخل" فى نطاق الشخص هو رغبته فى تحاشى العقاب والحصول على المكافأة. وأيا كانت أهمية "الدوافع" الداخلية لدى الأشخاص الا انها لا تكفى لتفسير الاختلافات بينهم فما يتعلق بأدائهم للادوار الاجتماعية. واذا كنا نقر بالاهمية الحاسمة للعوامل الموضوعية التى تحدد السلوك الاجتماعى الا اننا يجب أن نقر أيضا بحقيقة موازية هى أن التحاق الشخص بالمهنة وادائه للادوار المرتبطة بها قد يتأثر أيضا بسماته النفسية بل ونستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول الى أن النسق الاجتماعى - شأنه شأن الفرد - يخضع لعوامل سيكولوجية. لذلك فان دراسة النسق الاجتماعى يتطلب فيما يتطلب فهما للسمات السيكولوجية المميزة للاعضاء المكونين له.

وليس من الانصاف القول بأن علماء الاجتماع لا يهتمون بدراسة الخصائص السلوكية العامة للذين يشغلون مهنا معينه. اذ أنهم (أى علماء الاجتماع) عادة ما يفترضون أن هذه الخصائص تظهر الى حيز الوجود كاستجابة لضغوط موقفية (أو بنائية كما يحلو لهم تسميتها).

ولعل الاستنتاج الهام الذى يمكن أن نتوصل اليه من خلال هذه الدراسات هو أن التحاق الفرد بالمهنة وادائه للادوار المرتبطة بها لا يمكن تفسيرهما فقط فى ضوء الظروف الخارجية المحيطة بالمهنة بل يجب تفسيرهما أيضا فى ضوء طبيعة شخصية الفرد. ولما كان الافراد لا يلتحقون عشوائيا بالمهن المختلفة. فعلينا أن نتوقع بعد ذلك أن تمارس الشخصية تأثيرا هاما سواء فيما يتعلق بالالتحاق أو الاداء المهنى. وان يمتد هذا التأثير الى الجماعة بأسرها. واذا كنا قد عالجنا البناء الاجتماعى معالجة مستقلة عن الشخصية، الا اننا لا ننكر التفاعل المتبادل بينهما، ذلك التفاعل الذى يحدد - الى حد كبير - طابع العملية الاجتماعية.

* الشخصية والبناء الاجتماعي :

أوضحنا فيما سلف أن التحليل السوسيولوجي (أي فهم بناء الانساق الاجتماعيـة ووظائفها) يتطلب الاستعانة بنظرية عامة فى الشخصية،كما يتطلب معرفة خصائص شخصيات الأفراد الذين يكونون الانساق الاجتماعية. وقد يعتقد البعض اننا نطالب باختزال أو رد التحليل السوسيولوجي الى مستوى التحليل السيكولوجي. ولكننا لا نقصد ذلك على الاطلاق. فالقضية التى تعنينا هنا ليست مجرد رد مستوى معين من التفسير الى مستوى آخر ولكنها على وجه التحديد قضية معالجة الجوانب المختلفة للظاهرة ومن وجهة نظر العلوم المختلفة.

والشيء المؤكد أن علمى الاجتماع والنفس لديهما اهتمامات تحليلية مختلفة. فعلم الاجتماع يهتم بدراسة بناء الانساق الاجتماعية ووظائفهما، أى انساق الفعل الدائمة التى توجد فى أية جماعة انسانية. أما علم النفس فانة يسعى الى دراسة بناء نسق الشخصية ووظائفه، أى نسق الفعل الذى يميز الكائن العضوى وعلى الاخص الكائن البشرى.وهناك - فى حقيقة الامر -ميادين سوسيولوجية تقليدية بدت فيها أهمية نظرية الشخصية واضحة الى حد بعيد كما هو الحال فى الدراسات السكانية وجانب كبير من علم الاجتماع الحضرى فضلا عن المقاييس المختلفة التى تتناول التوزيع الاجتماعى وعلى الأخص فى مجال الطبقات الاجتماعية. فلو حاولنا تجاوز شكل البناء الطبقى بقصد فهم سلوك أفراد الطبقات المختلفة، فاننا سنجد البيانات السيكولوجية هامة بالنسبة لنا، اذ ستزيد تحليلنا السوسيولوجى عمقا. وحين نقول ذلك فاننا لا نقصد - بطبيعة الحال - رد التفسير السوسيولوجى الى تفسير سيكولوجى. وقد يوضح وجهة نظرنا المثال التالى. فاذا كان الحصول على مستوى تعليمى مطلبا أساسيا للالتحاق بمستوى مهنى معين، واذا كان هذا المستوى التعليمى غير متاح بالنسبة للمناطق الريفية، فاننا قد نتوقع بعد ذلك أن تلعب هذه الحقيقة دورا اساسيا فى تشكيل معدل الحراك الاجتماعى بالنسبة لسكان المناطق الريفية.

ومن الطبيعى أن تحتل القوى السيكولوجية أهمية خاصة فى داخل هذا الاطار البنائى الواسع، فالذين يفتقدون الى القدر الضرورى من الدافعية قد لا يتمكنون من الافادة من الفرص المهنية المحددة داخل البناء الاجتماعى كذلك فان الفرص المهنية المحددة داخل البناء الاجتماعى قد لا تتيح الحراك بالنسبة للذين يتميزون بدرجة عالية من الدافعية. والنظرة العابرة للدراسات الحديثة العديدة التى تتناول أصحاب المواهب والمبدعين تشير الى أهمية الجوانب البنائية غير اننا لو حاولنا تجاوز البيانات الاحصائية التى تتناول معدلات الحراك الاجتماعى بالنسبة للطبقات المختلفة، فسوف نجد أن عامل الشخصية يلعب دورا هاما فى تشكيل هذه المعدلات.
وما يقال عن الحراك الاجتماعى يقال أيضا عن جوانب أخرى من سلوك الفرد داخل الاطار الاجتماعى. واذا كانت أفعال الفرد فى أى موقف تتخذ طابعا شخصيا، الا انها تتأثر ولا شك بالبيئة الاجتماعية ونفوذها على سلوك الفرد من خلال الشخصية وعلى ذلك فان فهم أى موقف

" علم النفس الاجتماعي بين الفرد والجماعه "

يتناول علم النفس الاجتماعي وحده، من بين كافة العلوم التى تدرس المجتمع، الفرد بوصفه كيانا متكاملا فالاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم الاجتماعية تتخذ موضوعا لها بناء وتركيب ووظائف التنظيمات الاجتماعية، وانواع السلوك الذى يصدر عن الفرد فى اطار تلك المؤسسات اما علم النفس الاجتماعي فهو يتناول كافة وجوه سلوك الفرد فى المجتمع .

وقد نشأت نظرتان الى هذا الموضوع، النظرة الاولى ترى ان الجماعة لا تنفرد بخصائص متميزة عن خصائص افرادها وان الظواهر الجماعية هى مجموع الظواهر الفردية بحيث نفهم ما يحدث فى مستوى الجماعة بارجاعه الى مستوى السلوك الفردى. والنظر الى الجماعة على هذا النحو يستتبع تطبيق مفاهيم علم النفس الفردى ومبادئه على الجماعة تطبيقا مباشرا دون حاجة الى وضع مفاهيم ومبادى جديدة خاصة بالجماعة .

اما النظرة الثانية فترى على عكس النظرة الاولى ان للجماعة من المميزات مالا يتميز به الافراد المكونون لها، وبالتالى تجعل من الجماعة موجودا مستقلا عن الافراد وتخصها بخصائص لا ترتد الى خصائص اى منهم. وقد ادت هذه النظرة الى الجماعة الى ظهور بعض المفاهيم التى تخلع على الجماعة شخصية مستقلة منفصلة مثل مفهوم عقلية الجماعة ويقصد به التعبير الاجماعي عن ارادة الجماعة تعبيرا يسهم فيه الفرد على انحاء لايكون واعيا بها. وهذه الارادة تؤثر فيه تأثيرا مؤلما كلما فكر او سلك بطريقة تعارض المسلمات الاساسية للجماعة. ويقصد بها "بيون" الحاجات الاولية اللاشعورية التى توفر لها الجماعة طرق الاشباع وهناك ثلاث حاجات من هذا النوع هى المسئولة عن تكون الجماعات: الحاجة الى قائد بشكل عام ، والحاجة الى قائد يهيىء لأعضاء الجماعة شركاء للاشباع الجنسى والحاجة الى قائد يدفع بالجماعة الى القتال او الهرب ابان الخطر الذى تتعرض له .

وقد فسر بيون بعض المظاهر التى تشاهد لدى الجماعة بانها ترجع الى ما يسميه النسق النفسى الاولى، اى تلك التركيبه الاولية القابعه فى اعماق البشر، ومن ثم فى اعماق الجماعات حيث تكون العناصر الجسمية والنفسية والعقلية متداخله متشابكة لا تفاضل بينها هذا التركيب النفسى العميق للجماعة والذى لا فرق فيه بين ما هو جسمى او عقلى او نفسى وحيث تحل هذه العناصر محل بعضها البعض، هذا التركيب هو المصدر الذى تصدر عنه الظواهر النفسية والسلوكية والجسمية التى تعزى الى ما يسميه البعض روح الجماعة. هذا المصدر هو الذى تنبع منه المسلمات الاساسية وهى المسلمات التى تحافظ للانسان على تماسك الجماعة التى ينتمى اليها والى بقائها بوصفها مصدرا لحياته هو. ولذلك نرى انه تبدو لدى الجماعات ظواهر حركية او عقلية ناشئة عن التوتر فى هذا النسق النفسى الاولى اللاشعورى. ويرى "بيون" ان مستوى النسق الاولى يؤلف الاصل الذى تصدر عنه امراض الجماعة. فالامراض التى تظهر لدى الفرد لها من الخصائص ما يشير الى ان الجماعة لا الفرد هى المصابة بها.

" الفصل الثالث "

نشأة قضايا علم النفس الاجتماعى وتطورها

* تمهيد
* الايديولوجيا
* النظريات الأولى لعلم النفس الاجتماعى
* سيكولوجية الشعوب والطابع القومى
* سيكولوجية الحشد
* نظرية الغرائز عند ماكدوجال

* تمهيـــــد :

نستطيع تعريف علم النفس الاجتماعى اذن بأنه العلم الذى يدرس قوانيـن أو قواعد سلوك البشر وتصرفاتهم المشروطه باشتراكهم فى جماعات أو فئات اجتماعية، وكذلك المواصفات النفسيه لتلك الفئات التى ينتمون اليها.

وقد استقر هذا التعريف بعد خلاف بين رأيين الأول يقول اذا كانت سيكولوجية الانسان ناشئة أساسا عن انتمائه لفئة اجتماعية ، فان علم النفس كله هو علم نفس اجتماعى وبالتالى فلا حاجة لتميزه كعلم مستقل. ويقول الرأى الثانى أن سلوك الفرد فى الجماعة مختلف عن سلوكه بمفرده ومن ثم يجب قيام علم لدراسة سلوك الفرد داخل الجماعة، وسلوك الجماعات ذاتها.

كما استقر هذا التعريف بعد أن وضحت التجارب أن مكونات النفس الانسانية. (الدافعية والتعلم والادراك والشخصية) لا يمكن ارجاعها الى نشاط الدماغ وحده وانه من الضرورى لأجل فهم الوظائف النفسية أن نتخطى حدود الجسم ونبحث عن جذورها فى ظروف الحياة الاجتماعية. وأن استيعاب التجربة الاجتماعية لا يغير مضمون الحياة النفسية فحسب بل ويخلق أشكالا جديدة للعمليات النفسية بما يجعلها وظائف نفسية راقية تميز الانسان عن الحيوان.

أما من ناحية موضوع علم النفس الاجتماعى فقد تطور التفكير فيه فى اتجاهات ثلاث، فهناك من رأى أنه علم "الظاهرات الجماهيرية النفسية" أى سلوك الجماعات الكبرى، سيكولوجية الطبقات والفئات والوحدات الاجتماعية الكبيرة الأخرى، ومن ثم يركزون على عناصر مثل التقاليد والعادات والأخلاق، أو الرأى العام وسيكولوجية الاتصال أو بعض الظواهر الجماهيرية المتميزة كالموضة أو الاشاعة. وراج هذا الاتجاه بين أصحاب السوسيولوجيا.

أما الاتجاه الثانى فكان على العكس يرى أن الشخصية هى الموضوع الرئيسى لدراسة علم النفس الاجتماعى، باعتبارها ملتقى علم النفس وعلم الاجتماع، وتلون هذا الاتجاه وفقا لجوانب الشخصية التى رأوا دراستها، كالسمات أو الانماط أو التفاعل. وكان منطقهم أنه لا يمكن تصور علم نفس اجتماعى دون انتماء لعلم النفس.

ونشأ بعد ذلك تيار ثالث جمع بين الاتجاهين السابقين حيث اعتبر موضوع علم النفس الاجتماعى هو العمليات النفسية للفرد داخل الجماعة. وركز هذا الاتجاه على الجماعات الصغيرة فيما عرف بديناميات الجماعى على أن ما يجعل هذه الاتجاهات كلها تقف على أرضية مشتركة هو أن علم النفس الاجتماعى يتسم بسمتين هامتين، الأولى أن قضاياه تندرج فى باب قضايا المجتمع السياسية والاجتماعية وانه بالتالى على صلة وثيقة بالايديولوجيا والمرحلة التاريخية الاقتصادية الاجتماعية لتطور المجتمع. السمة الثانية أن البحث فيه قد أملته الحاجات التطبيقية مثل سيكولوجية الرأى العام والاتصال والتعصب والاتجاهات .. الخ.

وهكذا فان المجتمع هو الذى يطرح المهام على علم النفس الاجتماعى، وعلى أصحاب هذا العلم أن يفهموا قضايا المجتمع ويدركوا - بواسطة علمهم - قدر المساهمة التى يستطيعون بها حل تلك القضايا، وأن يعلموا تمام العلم الوظيفة الايدلوجية لعلمهم.

* ما هى الايديولوجية ؟

الأيديولوجية ، فى تعريف مبسط وموجز، تركيبة عقلية وجدانية ، تخاطب الذهن كما تحرك العاطفة ، تساعد الانسان على تفهم معنى الحياة وتذوق طيباتها ، كما تعينه على تقبل ملغزاتها وتحمل متاعبها والصبر على نوائبها . ومن ثم فالايديولوجية ضرورة للانسان وجزء من الحالة الانسانية . وكما يستحيل أن يعيش الانسان المادى بغير هواء، يستحيل أن يعيش الانسان الاجتماعى بغير ايديولوجية . وبقدر ما ترتفع درجة الاتساق الايديولوجي، ويتعاظم الانسجام (أو التوافق) الايديولوجى فى المجتمع، تكون العلاقات بين الأفراد أكثر نعومة ويسرا ، ويكون النسيج الاجتماعى أكثر تماسكا ، وتتعاظم قدرة الجماعة على الاستمرار والنهوض . وكل هذا يتناسب تناسبا طرديا مع قدرة الطبقة (أو الطبقات) السائدة على توفير الاحتياجات المادية الأساسية لمجموع السكان، كما يتناسب مع أهليتها الفكرية وصحتها النفسية ولياقتها المعنوية .

يسرى هذا المفهوم على المجتمع الانسانى فى مختلف مراحل تطوره التاريخى، منذ المجتمعات البدائية والقبلية الأولى حتى مجتمعات العصر الحديث، كما يسرى على الجماعة الانسانية المعاصرة بمختلف دوائرها.. من الدوائر المحلية والوطنية ، الى الدوائر القومية الحضارية الأوسع، ثم الى الدوائر السياسية الجغرافية ذات الأبعاد العالمية (الشرق والغرب - الجنوب والشمال-..) ووصولا الى مشارف المستقبل، نستطيع أن نقول ان اضطراب أحوال سكان كوكب الأرض فى هذا الزمان يرجع ، أولا وقبل كل شىء الى غياب تركيبة ايديولوجية توحيديه ، تساعد البشرية باختلاف مكوناتها القومية وانتماءاتها العقائدية على التعايش فى مجتمع عالمى متوازن ومسالم، بعد أن توفرت جميع المقومات المادية لتوحيده ورخائه - خاصة وأن البديل الوحيد هو أن تظل البشرية مندفعة فى طريق الدمار .. وهو دمار شامل يصل الى تهديد بقاء النوع الانسانى نفسه .

* المنابع الأربعة للايديولوجيات المعاصرة :

عرفت الجماعات البشرية ايديولوجيات كثيرة يخطئها الحصر، اختلفت وتنوعت باختلاف البيئة الطبيعية والظروف الاجتماعية التاريخية التى انبتتها . والأيديولوجية ، شأنها شأن سائر ظواهر الحياة وتجلياتها، صيرورة دائمة التغير، تنمو وتتطور وتزدهر، ثم يسرى عليها ما يسرى على سائر الظواهر من ضمور واضمحلال، وذلك عندما تصبح قاصرة عن مساعدة الناس على مواجهة تحديات التطور والتغيير.

وحين تضمحل الايديولوجيات ثم تندثر فانها لا تترك فراغا ايديولوجيا ، وانما تنبت على أنقاضها أيديولوجيات جديدة أكثر قدرة على مواجهة التحديات ومسايرة ضرورات التطور والتغيير. ومن ثم ، فان بعض الايديولوجيات أطول عمرا من البعض الآخر، حيث هى أكثر قدرة على التجدد والتواؤم . غير أن طول عمر بعض الايديولوجيات لم يكن تعبيرا عن خصوبتها وقدرتها على التطور والتواؤم بقدر ما كان تعبيرا عن جمود مزمن أصاب المقومات الأخرى لحياة الجماعة .

والملاحظ أن التركيبات الايديولوجية الجديدة التى تنبت على أنقاض ما سبقها لابد وأن تحتوى على عناصر تظل باقية من الأيديولوجيات القديمة ، بقايا معدلة أو مخففة أو مموهة تندمج فى التركيبات الايديولوجية الجديدة . ومع مرور الوقت ينسى الناس ما حدث، ويخيل للعامة أن لا علاقة البتة بين القديم والجديد . ومرة أخرى، لا تخرج الايديولوجية فى هذا على قاعدة عامة تسرى على ظواهر الوجود كلها . ألا وهى أن الجديد لابد أن يحتوى فى داخله على جزء من القديم .

هذا ، وللايديولوجيات المعاصرة منابع اساسية نلخصها فى اربعة : اثنان قديمان عرفتهما الحضارات الزراعية الاولى، هما الدين والقومية، واثنان استخدمتهما اوروبا بعد نهضتها التى بدات منذ اقل من سبعة قرون، هما الليبرالية والاشتراكية .

* الدين والقومية :

والدين هو اقدم المنابع العقائدية التى عرفها الانسان، وابقاها على الأيام وقد عرفت البشرية، بعد ان تمايزت الجماعة الانسانية منذ العصر الحجرى حتى اليوم، عرفت ديانات تعد بالآلاف .

غير ان الأديان، على اختلافها، تتفق فى امر اساسى، هو الايمان بأن قدرات الانسان محدودة، وان مصائره وحظوظه تملكها قوة الهية وارادة ربانية تعلو على ارادة البشر. وعلى مر العصور يسعى الناس الى التقرب من هذه القدرة العليا بنصوص يتلونها وشعائر يؤدونها ونواميس اخلاقية يلتزمون بها. تختلف النصوص والشعائر باختلاف الديانات، ولكن النواميس الأخلاقية (للديانات الكبرى خاصة) لا تختلف الا قليلا .

فى البدء، عندما كانت حدود الجماعة البشرية هى قبائل الصيد وجمع الثمار، ثم قبائل الرعى البدائى، كانت الديانات الأولى من النوع الذى اصطلح المتخصصون فى علم الانثربولوجى على تسميتها "الديانات الطوطمية"، النابعة من رهبة الانسان فى طفولته الحضارية، من قوى الطبيعة التى لا سيطرة له عليها، ولا يرقى ذهنه الى فهمها، بينما لا غنى له عن كثير منها.. فكان يعبدها ويصطنع آلهة من رموزها، ويقيم الطقوس ويقدم الأضحية لمحاولة استرضائها والتماس معونتها ، أو اتقاء شر غضبها. وما زالت انماط من هذه الديانات والمعتقدات موجودة حتى يومنا هذا، ومنتشرة بين جماعات بشرية كثيرة فى ارجاء متفرقة من أفريقيا الاستوائية واستراليا وحوض الأمازون وبعض الجزر الاندونيسية... الخ .

فلما ارتقت الجماعة البشرية فى سلم التطور، وعرف الانسان الزراعة، وسكن بيوتا ثابتة فى محلات مستقرة، ثم ظهرت القرى والمدن التى تضم كل منها عددا من القبائل، توحدت المعبودات القبلية فى معبودات قروية او مدينية.. احتوت كل منها فى دائرة نفوذها عددا من الآلهة او المعبودات الطوطمية السابقة .

.... وفى وديان الأنهار الكبيرة فى الحزام الكوكبى الدافىء حيث توفرت ظروف طبيعية جغرافية مواتية، طفرت الحضارة الزراعية طفرتها الكبرى، حيث توحدت المجلات والقرى والمدن فى وحدات جغرافيه، سياسية كبيرة، وتلك هى ممالك العالم القديم، وفيها توحدت المعبودات القروية والمدينية والمحلية الأخرى... لتتشكل الديانات والمعتقدات شبه الدينية الأساسية للعالم القديم: الديانة المصرية القديمة، وديانات ما بين النهرين، والبوذية والهندوكية والكونفوشية والتاوية.. الخ .

وكان اقصى توسع وصلت اليه الوحدات السياسية الجغرافية فى عصر سيادة الحضارة الزراعية، هو الامبراطوريات الاقليمية، (تمييزا لها عن الامبراطوريات العالمية" التى عرفها التاريخ الحديث، بعد سيادة الحضارة الصناعية، منذ القرن الماضى) . ذلك أنه طالما ظلت وسائل المواصلات والاتصال على ما كانت عليه قبل عصر الصناعة، فان الامبراطوريات الزراعية ظلت محصورة فى حدود قارية او شبه قارية (الصين - الهند - المنطقة الأوسطية المتوسطية -...) امبراطوريات يفصل بعضها عن البعض الآخر موانع جغرافية قاهرة تستعصى على وسائل المواصلات والاتصال المتاحة: صحارى كبرى، سلاسل جبال شاهقة، بحار او محيطات مهولة .... ومن الطبيعى انه كان لكل من هذه الامبراطوريات عقيدتها الدينية المهيمنة التى توحدها، وان ظلت سمات من الديانات

والمعتقدات السابقة (المحلية أو القبلية) مترسبة فى الوجدان والمزاج الجمعى للتكوينات السكانية المختلفة. ومن ثم، اكتسبت الديانات الرسمية، في الأرجاء المختلفة للامبراطوريات، سمات خاصة ومتنوعة بتنوع الاقاليم والممالك التى تضمها. وطبيعى أيضا أن تتوافق هذه الخصوصيات مع قوة الموروث من نفوذ الديانات والمعتقدات المحلية السابقة، وعراقتها.

وفى هذه المنطقة من العالم، فى شبه قارتنا الأوسطية المتوسطية، تكونت فى وادى النيل الأدنى وما بين النهرين أولى الممالك الكبيرة فى العالم القديم، واعتنق الناس أولى العقائد والديانات التاريخية الكبيرة، التى كانت هى الديانات الرسمية للاسرات الحاكمة فى مصر الفرعونية وفى ممالك ما بين النهرين. وفى منطقتنا أيضا تكونت أولى امبراطوريات العالم القديم، وهى الامبراطورية المصرية التى أسسها ملوك الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة. وكانت عبادة آمون هى لديانة الرسمية للامبراطورية، الى أن جاءت دعوة الفرعون الفيلسوف اخناتون، لتكون أول ديانة توحيدية ذات آفاق عالمية، والتى أراد لها اخناتون أن تكون الديانة التى توحد الامم والشعوب عن طريق عبادة الاله آتون ومحبته ، عوضا عن اخضاعها بالقهر والقمع العسكرى. ولكن الردة التى دبرها كهنة آمون بعد موت الفرعون الناسك قضت على الدعوة الاخناتونية، وأعادت عبادة آمون باعتبارها الديانة الرسمية لاكثر من خمسة عشر قرنا أخرى... وان ظلت الدعوة التوحيدية كامنة فى الوجدان الجمعى للمصريين ولأمم الامبراطورية وشعوبها .

وفى العصر الفرعونى المتأخر، احتلت عقيدة الثالوث "ايزيس-أوزوريس- حوريس" مكان الصدراة فى العبادات والشعائر الشعبية للمصريين، وتأثر بها غالبية من دخل فى دائرة نفوذهم الحضارى من الأمم والشعوب المجاورة، التى كانت قد شرعت تتكون وتتطلع للقيام بدور متعاظم فى المسيرة التاريخية للمنطقة. ولا يفوتنا أن نلاحظ أن عقيدة الثالوث الأوزورى ظلت عالقة بالوجدان الجمعى .

... وانتهى العصر الامبراطورى... وضعفت الدولة المصرية الفرعونية ،ودب فيها وهن الأفول، وجارت عليها موجات بعد أخرى من الليبيين غربا والكوشيين جنوبا، وأخلاط من الآسيويين و"شعوب البحر" شرقا وشمالا... وظهرت عليها القوة العسكرية لجيرانها الذين كان أغلبهم رعاة أو أشباه رعاة، يخطون خطوات أولية فى ركب الحضارة الزراعية، ثم تحولت طلائعهم الى تجار محاربين مقتحمين .

دار تاريخ المنطقة دورته الكبرى... حيث تمكن التجار المحاربون المقتحمون من تكوين امبراطورياتهم الاقليمية. وكان أولهم وأشهرهم الاسكندر المقدونى ذا القرنين. وتداولت هذه الامبراطوريات الهيمنة على المنطقة بما فيها من ممالك وحضارات زراعية عريقة... لاكثر من عشرين قرنا (أى الى مشارف ما يسمى بالتاريخ الحديث) !!. ولنتابع معالم التاريخ الدينى، منذ أفول الدولة الفرعونية.

اصطنعت أمم وشعوب العالم الاغريقي الرومانى أسماء يونانية ثم رومانية للثالوث المصرى الأوزورى خاصة وغيره من معبودات الشرق الأدنى القديم عامة، ومزجت ما وصلها من ديانة المصريين وجيرانهم بالمعتقدات الاغريقية والرومانية السحيقة، ليتشكل من المزيج تنويعات لا حصر لها من معبودات ومعتقدات تلك القرون العشر أو نحو ذلك (ما بين الاسكندر وظهور الاسلام)، التى تداخلت فيها- بقدر ما تصارعت- فلول الوثنية والطوطمية المتأخرة مع طلائع الديانات السماوية المترابطة الثلاث: اليهودية فالمسيحية والاسلام.

تبعثرت اليهودية بالشتات، وتكونت لديها نفسية مبتسرة لم تتخلص ابدا من غلبة الروح القبلية (الرعوية التجارية غير المستقرة)، نفسية منطوية على الذات فى مرارة وفى شك دائم فى الأغيار. وللتعويض نجح الاتجاه الكهنوتى (التلمودى) فى عمل تعبئة دائمة للطاقات النشيطة تضع قوة "الشعب المختار" فى مقارنة عصبية ولا عقلانية مع قوة أية شعوب أخرى تبرز على مسرح التاريخ، وتقبل بتحدى امبراطوريات (نعم - امبراطوريات)... ومن ثم تتورط فى مآزق مهلكة. والحق أن اليهودية لم تنجح فى أن تلعب أى دور توحيدى توافقى فى المجتمعات التى عاشت فيها ولم تحاول أبدا أن تلعب مثل هذا الدور... ومن ثم فانها كثيرا ما برزت كعامل تفرقة وتمزق وهدم. ولا يعلم الا الله الى متى، وكيف، ستنتهى هذه الحالة .

أما المسيحية - فانها، وان كانت قد انقسمت منذ القرون الأولى الى ثلاث كنائس رئيسية، غربية كاثوليكية، وشرقية، ومصرية قبطية، الا أن كلا من الأفرع لعب دورا توحيديا فى مجاله .

انتشرت الكاثوليكية شمالا بغرب، فى اتجاه وسط أوروبا وشمالها وغربها، حيث مجتمعات وجماعات بشرية حديثة العهد بالخروج من الرعوية القبلية والبربرية، وهى ما تزال تخطو خطواتها الأولى فى سبيل التكوين كشعوب وأمم، ارتقت بها الكنيسة روحيا، وجمعت بينها فى وحدة دينية متنامية، تحت القيادة الدءوبة المحكمة لبابا الفاتيكان. وفى موازاة هذه السلطة الدينية، وفى علاقة توافق وصراع معها، ادعت الامبراطورية الرومانية المقدسة لنفسها نوعا من السلطة الدنيوية على عدد لا يحصى من ممالك وامارات الاقطاع الأوروبى فى القرون الوسطى. وكانت تلك الامبراطورية اصطلاحا جغرافيا أكثر من كونها دولة بالمعنى السياسى الادارى. قامت على أنقاض روما القديمة ولم تأخذ عنها الا اسمها تيمنا، ولم يكن غالبية أباطرتها الا رموزا ومناظر.. باستثناء عدد محدود لم يغيبوا عن ذاكرة التاريخ - مثل شارلمان .

وانتشرت المسيحية الشرقية شمالا بشرق، بدءا من البلقان وصولا الى مرتفعات الأورال، عبر سهوب أوكرانيا وروسيا، حيث أخلاط من قبائل السلاف والبلغار والأجار والقوط.. التى كانت أيضا ما تزال فى دور التكوين كشعوب وأمم ، ولعبت المسيحية الشرقية دورا مشابها للدور الذى لعبته كنيسة روما فى الغرب - وان يكن على نحو أقل احكاما وتسلطا .

أما كنيسة الاسكندرية، الأرثوذكسية القبطية، فقد لعبت دورها المشهود فى الدفاع عن المصريين وهويتهم القومية ضد الهيمنة الرومانية والبيزنطية - تلك الهيمنة التى حاولت أن تبرر سلطانها بأسم الأخوة المسيحية !! .. ولعبت الأرثوذكسية القبطية دورها فى التوحيد الروحى للمصريين، بعد أن كانت الديانة الفرعونية قد اضمحلت، وبعد ما كان من رفض المصريين للهيمنة الرومانية والبيزنطية. ولم يكن لنفوذ كنيسة الاسكندرية امتداد يذكر خارج الحدود المصرية الا الامتداد الأفريقى فى اثيوبيا، (والذى لم يكن الا نفوذا روحيا فى الأغلب، لا يتصدى لبعض الشئون الدنيوية الا فى حدود، وبحساب وحصافة. كذلك، وجد دائما نوع من النفوذ الروحى لكنيسة الاسكندرية على الارثوذكسى فى الشرق الأوروبى، فى البلقان وفى روسيا القيصرية. غير أن العلاقات مع كنيسة موسكو كادت أن تصل الى درجة التجمد التام بعد الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ ... وهى الآن، بعد أن تمت المصالحة بين الدولة والكنيسة هناك، تعود الى الانتعاش والدفء.

"... ثم كان ظهور الاسلام، آخر الديانات السماوية "

انتشرت الدعوة الاسلامية، فى القرنين السابع والثامن الميلادى، انتشارا سريعا على نحو لم يكن قد سبقه - حتى ذلك لوقت - مثيل. أطاحت فتوحات الراشدين والأمويين بالامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، اللتين كانتا تقتسمان الهيمنة على شبه القارة الأوسطية المتوسطية حينذاك. وطوت الدعوة الاسلامية تحت لوائها عددا لا يحصى من الامارات والولايات والممالك. وللاسلام فضل تحقيق معجزة الانهاض الروحى لأمم وشعوب هذه المنطقة، بعد قرون طويلة من الفراغ الروحى والترهل الحضارى، اللذين ميزا حقبة اضمحلال ممالك الشرق القديم، وضمور بعض من سماتها الحضارية العتيقة، وبعد الخلط والتشويش الذى أصاب عقائدها ودياناتها... وبعد أن كانت بعض شعوب المنطقة قد دخلت فى تجربة مريرة مع نوع من المسيحية القيصرية، التى لبست أثوابها قوى البطش والهيمنة الأجنبية (البيزنطية).

وأرسى الخليفة عمر بن الخطاب، منذ البداية، تقاليد تعتبر- بمقاييس زمانه - متميزة فى مجال التسامح والتعايش بين الديانات والمعتقدات والأمم والحضارات. ومن ثم، ليس بمستغرب أن اعتبرت غالبية الشعوب التى كانت تحت الحكم الفارسى أو البيزنطى- اعتبرت العرب المسلمين محررين. ودخل الناس فى الدين الجديد أفواجا.

وفى القرون الأولى للهجرة (وحتى حقبة السيطرة التركية على الخلافة)، انفتح المفكرون المسلمون على بعض من أهم التراث العلمى والفلسفى للحضارات السالفة، فاستفادت الدولة الاسلامية وأفادت، وكان لها الفضل فى حفظ كثير مما بقى من هذا التراث، الذى عاد- بعد أن أغنناه وطوره المفكرون المسلمون ليكون له دور أساسى فى انهاض الفكر والضمير والأوروبى، بعد أن استيقظت القارة من قرونها الوسيطة، ونهضت.

ولما كانت الخلافة الاسلامية تجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية فى مؤسسة واحدة، فانها لعبت دورها - بفاعلية - فى جعل وحدة الدولة الاسلامية أكثر تماسكا، لقرون عديدة، من نظيرتها الأوروبية.. نعنى تلك الامبراطورية الرومانية "المقدسة" الساشبة، تحت القيادة المزدوجة المضطربة - الباباوية / الامبراطورية.

ومنذ انتشار لغة القرآن العربية فى مصر وبلاد الشام وما بين النهرين والشمال الافريقي.... واحتوائها لمجموع اللغات السامية، تشكل هذا الوطن العربى" ليكون فى العالم الاسلامى بمثابة القلب، وليكون هو الوطن لما عرف فيما بعد باسم "القومية العربية".

وكانت الحروب الصليبية، بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر الميلاديين، نوعا من اليقظة الأوروبية الكاذبة. تعجلت أوروبا، بعيد خروجها من البربرية البدائية، حيث حاولت أن تجرب عقيدتها الدينية الجديدة كأيديولوجية للتوحيد السياسى والعسكرى، وكأداة معنوية لتعبئة فائض طاقتها الحيوية الخشنة المراهقة لتحدى مجتمعات ناعمة فى دفء الجنوب المشمس الوفير الخيرات.... مجتمعات كانت قد استقرت حضاراتها الزراعية وازدهرت حواضرها التجارية وثغورها البحرية منذ زمان طويل.... ووصلت طبقاتها العليا المتميزة (أرستوقراطيات زراعية وقيادات تجارية عسكرية..) الى حال من الرضى عن النفس، والدعة، وهى حال اعتبرتها أهم مدارس التاريخ ركودا، بل جمودا طويل الأمد.

وهزمت الحملات التى شنها الأوروبيون الصليبيون ضد الشرق الأدنى الاسلامى، حيث أمم وشعوب وبلاد ذات حضارات ضاربة فى القدم، وكانت ما تزال مسايرة للزمن قادرة على المواجهة.. ولكنهم، أعنى الأوروبين، حققوا أهدافهم فى الأندلس. وهناك، ساعدت قوة الرأسمالية التجارية التى كانت فى صعود على مسرح التاريخ فى ايطاليا واسبانيا والبرتغال، ساعدت على اعطاء المد الصليبى الأوروبى امكانات أعظم وفاعلية أكبر.

وما كادوا ان يفرغوا من الاندلس، حتى اندفع التجار والبحارة والقراصنة والمغامرون الأوروبيون ، في تحالف مع ملوك مستبدين غلاظ يدعون الحق المقدس، وأباطرة متعطشين للمجد مشمولين بالرعاية البابوية .... اندفعوا - وهم يحملون الصليب وفي صحبة جيوشهم كهنوت كنسي يبشر باسم المسيح - اندفعوا يبحثون عن متنفس لفائض الطاقة العدوانية والشهوة التوسعية فيما وراء البحار... لقد بدأت قرون مظلمة جديدة قرون الاستعمار الأوروبى الغربى الراسمالى الحديث.

منذ القرن الخامس عشر، استخدم المستعمرون الأوروبيون المسيحية الغربية كسلاح ايديولوجى لتبرير استعمار قارات بأسرها، والاستيلاء على ثرواتها، والقتل الجماعى لملايين من سكانها، وافقار من بقى من ابنائها او الاتجار فيهم كعبيد. وهكذا آل الى اساطين الراسمالية والاستعمار، بعد ملوك الاقطاع وأمرائه، مهام استنفاد الرصيد الروحي والوازع الأخلاقى الذى جاءت به دعوة السيد المسيح.. هذه الدعوة التى ظهرت على أرض حضاراتنا ،حضارات الشرق الأدنى القديم، كدعوة لتحرير العبيد والتخفيف عن المضطهدين والدفاع عن المستضعفين .

هذا، ولم تتوقف (وان لم تنجح حتى الآن الا قليلا) محاولات المصلحين الدينيين المسيحين ذوى النزعات الانسانية - أن يعيدوا الى المسيحية روحها ورسالتها الأولى. (وجدير بالذكر ان غالبية المحاولات الجادة - فى أيامنا هذه - تأتى من مسيحيى العالم الثالث) .

عودة الى التاريخ نقول ان أجيالا جديدة من فلاسفة عصر التنوير الأوروبى ومفكريه (ونخص بالذكر رائدهم الكبير فولتير) انتقدوا السلطة الكنسية انتقادا لاذعا لأنها جعلت من المسيحية دعامة أساسية للتخلف والاستبداد الاقطاعى فى داخل المجتمعات الأوروبية وراعية لاستعباد الانسان للانسان والأمم للأمم على النطاق العالمى. ومن ثم كانت الدعوة لفصل الدين عن الدولة احدى المقومات الأساسية التى قامت عليها التحررية (الليبرالية) الأوروبية .
وبعد ان انتصرت الثورة ضد الاقطاع فى غرب أوروبا، واستقرت السلطة فى أيدى الطبقة البورجوازية (الرأسمالية)، تم التصالح بين الدولة والكنيسة على أساس السماح بحرية العقيدة، وحماية حق الفرد فى ممارسة الشعائر الدينية .. وفى نفس الوقت منع تدخل رجال الدين فى شئون الحكم .
وعلى الجانب الآخر ، كانت الدولة العربية الاسلامية فى العصر العباسى الثانى، بدءا من خلافة المعتصم، قد شرعت فى الانحدار. وكان استئجار الخلفاء العرب لقوات وقادة عسكريين من الأتراك (بتنويعاتهم)- كان عاملا أساسيا فى اضعاف الدولة. ومع الوقت، أزدادت مؤسسة الخلافة ضعفا وفسادا، وتحول الخلفاء الى دمى فى أيدى عسكريين مرتزقة أفظاظ، يعينون الخلفاء ويعزلونهم، وأحيانا يقتلونهم أو يسملون عيونهم ويضعونهم على أبواب المساجد يتسولون! واخيرا تمكنت الأخلاط التركية من تأسيس دولة لهم، سرعان ما أصبحت القوة العسكرية الأولى فى العالم الاسلامى، والدولة التى لها الهيمنة على شبه القارة الأوسطية المتوسطية. ولأكمال الهيمنة، نقلوا مقر الخلافة الى عاصمتهم فى أسطنبول .

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية وقفت، حوالى ثلاثة قرون، فى وجه تجدد المد الصليبى الأوروبى شرقا أو جنوبا، الا أن الحصيلة الحضارية الثقافيه للحكم العثمانى فى المنطقة كان سلبيا فى جملته. فقد أكمل خلفاء آل عثمان ابتذال استخدام الدين لدعم سلطانهم الاستبدادى، ولتبرير الاضطهاد القومى للشعوب والأمم غير التركية، بما فى ذلك شعوب وأمم البلاد العربية الاسلامية. وفى هذه البلاد، ظهرت اتجاهات اسلامية اصلاحية ، كانت جزءا من حركات المقاومة فى هذه البلاد ضد التسلط والقهر العثمانى .

وحين بدات الدعاوى الليبرالية تصل الى مثقفي ومهنيي ابناء الطبقة المتوسطة الجديدة التي جاءت مع "التحديث" في القرن التاسع عشر، فان اجيالا متعاقبة من ذوى الاتجاه الليبرالي في العالم العربي تبنت فكرة الدولة العلمانية (اى فصل الدين عن الدولة). واصبحت الفكرة من المبادىء الأساسية التي تبنتها غالبية الاتجاهات القومية الحديثة، ثم الاشتراكية فيما بعد .

والقومية ، فى تعريف موجز ومبسط، هى ارادة العيش معا. وهى ارادة تضم جماعة من الناس تعيش على رقعة متصلة من الارض (هى الوطن)، لها لغة مشتركة، وتكوين حضارى ثقافي مشترك، وحياة اقتصادية مشتركة. وتستكمل القومية مقوماتها وتحقق ذاتها باقامة الدولة المركزية الواحدة، وهى التعبير المؤسسى عن ارادة العيش معا.

وكانت الارستوقراطية الزراعية فى وديان الانهار الكبيرة فى الحزام الكوكبى الدافىء (فى مصر وما بين النهرين والصين والهند..) هى الطبقة التى قادت عمليات الانضاج الحضارى والتوحيد القومى وتأسيس الدول المركزية فى هذه الأوطان العريقة منذ آلاف السنين. ومن ثم عرفت هذه الأوطان ذلك النوع الأقدم من القومية، قومية الحضارة الزراعية النهرية .

اما فى اوروبا ، فان عمليات التوحيد القومى لم تبدأ الا حديثا، منذ بضعة قرون فحسب، حيث قادت البورجوازية الأوروبية عمليات التوحيد القومى. من ثم عرفت اوروبا نوعا آخر من القومية، قومية الحضارة الأوروبية، التجارية الصناعية الحديثة. ولعبت حركات التوحيد القومى دورا تاريخيا تقدميا فى اوروبا، حيث اسهمت فى تحرير الأمم الأوروبية من التخلف والتمزق الاقطاعى. اما خارج حدودها الوطنية الخاصة، فان الدول القومية الأوروبية انتهجت سياسة قائمة على التوسع والمنافسة، التوسع على حساب الأمم والشعوب الأكثر ضعفا، والمنافسة مع اقرانها من الدول الصناعية القوية على الاسواق ومصادر المواد الخام. هكذا سارت القوميات الحديثه، الصناعية التجارية المالية، فى طريق الاستعمار والحرب. وترتب على طغيان المد الاستعمارى الأوروبى نيتجتان:

١ - افرخت الأمم الأوروبية نوعا آخر من القومية على اراضى قارات امريكا الشمالية وامريكا الجنوبية واستراليا، وتلك هى"القومية الاستيطانية الحديثة"، التى نمت واكتملت على ايدى خليط المهاجرين البيض الأوروبيين بعد ان استوطنوا هذه القارات واقاموا دولهم القومية فيها على اشلاء السكان الأصليين الذين عجزوا عن الصمود امام موجات هجرة الرجل الأبيض واستعماره الاستيطانى .

٢ - افاقت قوميات الحضارة الزراعية القديمة، وبدات تدرك مدى الضعف والجمود الذى اصابها اثناء عصورها الوسيطة، وخطورة الهوة الحضارية التى تفصلها عن الغرب الأوروبى الحديث، وشرعت تتعلم من اوروبا وتستعير منها ما يعينها على مواجهة التحدى الاستعمارى. ومن ثم كانت حركات "النهضة" التى عرفتها بعض الأمم الشرقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وجعلت على راس اهدافها وقف الزحف الاستعمارى وبناء الدولة العصرية والأخذ ببعض اساليب الحياة الأوروبية.

ولم تلبث مقاومة الهيمنة الاستعمارية ان اخذت ابعادا عالمية فيما عرف بحركات التحرر الوطنى فى قارات آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية، التى وصلت الى ذروة تاريخية فى اعقاب الحرب العالمية الثانية، وما تزال تخوض معارك تشتد ضراوة حتى يومنا هذا .

وفى مجال الآداب والفنون (وتجليات الوجدان البشرى عموما)، حاول رواد الليبرالية من خلال نهضة ادبية وفنية لا نظير لها فى التاريخ الاوروبى- حاولوا الاعلان من شأن الانسان وتمجيده جسدا وروحا، ومن ثم عرفت الليبرالية بنزعتها الانسانية وسعت الى تحرير الانسان من شعور كان سائدا بأن الخطيئة هى المكون الأصيل للحالة الانسانية. وذهب الليبراليون الانسانيون الى أن ذلك شعور سعت الكنيسة الى تعميقه لفرض وصايتها على الناس واخافتهم وايهامهم بأن رجال الكهنوت هم وحدهم القادرون على تخليص الناس من خطاياهم، والتخفيف عنهم يوم الحساب.

* الاشتراكية :

وقد كانت وعود الليبرالية كبيرة حقا، فلم تقتصر على التبشير بتحقيق مجتمع "الحرية والاخاء والمساواة" داخل حدود كل دولة وطنية على حدة،وانما ذهب بعض المتفائلين من فلاسفتها، مثل ايمانويل كانط فى أوائل القرن التاسع عشر، الى القول بأن نجاح التعاليم الليبرالية وسيادتها على المجتمعات الاوروبية الأساسية حينذاك كفيل بأن يحقق حلم الانسانية فى سلام عالمى دائم.

غير أن تفاقم التناقضات الاجتماعية والاضطرابات السياسية والحروب الطاحنة التى أعقبت انتصار الثورات ضد النظم الاقطاعية وانجازات الثورة الصناعية فى عدد من أهم بلاد أوروبا الغربية - هذه وتلك اثبتت أن المتشائمين كانوا أصدق حدسا وأنفذ بصيرة، اذ سرعان ما أصبح نقاد النظم الأوروبية الجديدة (الرأسمالية) أكثر تعبيرا عن واقع الحال من المبشرين بمجتمع الحرية والاخاء والمساواة. واتسعت دائرة نقاد أوروبا الجديدة لتشمل أشهر كتاب الرواية الواقعيين، والشعراء الرومانسيين، والاقتصادين الكلاسيكيين، وبقايا الثوار الراديكاليين، والدعاة الأخلاقيين.... وصولا الى جماعات من الاصلاحيين الاجتماعيين عرفوا باسم الاشتراكيين الخاليين (أو اليوتوبيين) وبظهور ماركس، ونشر "البيان الشيوعى" الذى حرره عام ١٨٤٨، ولدت الاشتراكية ميلادا جديدا، أقوى تأثيرا وأبقى على الزمن،وسميت الاشتراكية العلمية (ثم الشيوعية فيما بعد). وحافظ مسلسل كبير من تلاميذ ماركس على تراثه الفكرى، وطوروه يتساير التغييرات السريعة فى المجتمعات الصناعية الحديثة وامبراطورياتها العالمية.

.... فى الأثناء، اكتملت ملامح العقيدة السياسية الاجتماعية التى بذر بذورها كارل ماركس،وتفرعت أصولها الاوروبية (شأنها فى ذلك شأن الليبرالية من قبل) ووصلت الى كل البلاد فى جميع القارات، وأصبح العالم يعج بفرق وأنماط وأنواع من تفريعاتها، وأطلقوا على أنفسهم أسماء اشتراكية أو شيوعية أو تقدمية أو عمالية حسب الأحوال، وارتفعت رايات الاشتراكية بتفريعاتها وتنويعاتها على الأبنية الحكومية فى بلاد تضم أكثر من ثلث سكان العالم، وهو نصيب لم تسبقها اليه أية عقيدة أخرى.

ومع الاتساع والتنوع، فقد المنتمون والممنتسبون والمتكلمون بالاشتراكية ومشتقاتها كثيرا مما كانوا يتميزون به فى البدء من تجانس الفكر ووضوح الرؤية وتناسق الحركة وتحديد الهدف وصفاء النفس ... تفرقت السبل. وهبطت أسهم الموجة الاشتراكية (وأنماطها الشيوعية خاصة)، وفقدت قوة الدفع التاريخية.

* الليبرالية :

لم تكن حركات التوحيد القومى وحدها فى سلسلة الملاحم التى اطلقت اوروبا الى رحاب عصرها الحديث، وانهت التمزق الاقطاعى وافضت الى قيام الدول القومية العصرية، واسدلت الستار على اوروبا المتخلفة التى كانت تشيع فيها الخرافات والشعوذة لتصبح منارا للتقدم العلمي ومهدا للثورة الصناعية، ونقلت القارة من نمط فقير من انماط الحضارة الزراعية الى النمط الصناعي الفنى، وحققت للرجل الابيض التفوق الاقتصادى والقوة العسكرية ورفعته الى مراكز القيادة العالمية ....

نقول ان حركات التوحيد القومى لم تكن وحدها فى هذا المعترك، انما كانت الليبرالية (او التحررية) الاوروبية هى الوجه الاخر، والمكمل، لتلك الصحوة الأوروبية الشاملة .

على امتداد حوالى ثلاثة قرون (بدات فى وقت ما من عصر النهضة وشملت عصر التنوير) تمكن رواد الليبرالية من تفجير اكبر ثورة فى الفكر الفلسفى، بعد قرون طويلة من الخمول والجمود والعقم، وهى الثورة التى خلقت تداعياتها واشعاعاتها فى مناهج البحث العلمى وتطبيقاته التكنولوجية، كما فى مجال العلوم الانسانية وتطبيقاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، بل وفى مجالات الابداع الادبى والفنى جميعا .

وكان الصدام محتوما بين رواد الليبرالية الاوروبية ورجال الدين. فقد كان البابوات والكرادلة منحازين تماما للاقطاع، بل كانوا جزءا لا يتجزا منه، حيث تصدى الجبروت الكنسى لطلائع المناضلين ضد طغيان الملوك والاباطرة والامراء والباباوات ونشط لتكفير رواد المنهج العلمى والتقدم التكنولوجي. وتاريخ الكنيسة الكاثوليكية ومحاكم التفتيش التابعة لها (قبل تراجعها امام الاصلاح البروتستانتى وهزيمتها امام الثورات البورجوازية فيما بعد) تاريخ متصل لاشكال مروعة من الارهاب الفكرى والتعذيب الهمجى وعدد لا يحصى من احكام الموت حرقا. من ثم جاءت الليبرالية بمزيج من دعاوى التحرر من استبداد النظم الملكية الشمولية والسلطة الكهنوتية معا، حيث نادت بفصل الدين عن الدولة ونادت بفصل السلطات، اى بتحرير الحكم من الارهاب الكهنوتى والمواطن من الارهاب الحكومى. ونادى الليبراليون باعلاء مبادىء حقوق الانسان، خاصة حق الانسان فى اعتناق اى مبدا او عقيدة دون وصاية او ارهاب من جانب الدولة او الكنيسة ،وكذا حقه فى اعلان رايه والدفاع عنه ، خاصة حق الافراد والجماعات فى اصدار الصحف التى تعبر عن وجهات نظرهم وتكوين الاحزاب التى تنظم نضالهم، وحق المواطن ان يعيش حرا آمنا من اى جور او تجاوزات سلطوية ، والا يلقى عليه القبض او يسجن الا بأمر قضائى، وان تكون قوانين الدولة ومبادئها الدستورية غير مجافية لمبادىء حقوق الانسان... هذا، وقد اعلت الليبرالية السياسية من شأن السلطة التشريعية (البرلمان)، واعتبرت أن من حق الأغلبية البرلمانية تشكيل الحكومة، وان يكون البرلمان هو الرقيب على اعمال الحكومة. من ثم سميت الأنظمة التى قامت على المبادىء الليبرالية " الديموقراطيات البرلمانية ".

وفى المجال الاقتصادى اتجهت الليبرالية الى الدعوة الى ازالة الحواجز والحدود الاقطاعية وتوحيد السوق القومى، باعتبار ذلك اهم شرط للتنمية الاقتصادية، ودعت الى اطلاق حرية راس المال فى الاستثمار دون قيود او احتكار حكومى، وحرية اليد العاملة فى الانتقال وحرية العمال فى اختيار صاحب العمل، كما دعت الى اعلاء

وفي الاثناء، لم تتوقف المؤامرات والحروب لاحباط المشروع الاشتراكي الذي كان يحلم بخلق الجنة على الارض كلها. وهي حروب لم يشهد التاريخ مثيلا لها، هبطت بالقرن العشرين الى مستوى لم تصل اليه همجية العصور المظلمة السابقة. وطور خصوم الاشتراكية اساليب الحرب ضدها، ومن بينها - واهمها - التسلل الى صفوفها وافسادها من داخلها فكريا. ولم يكن الحكام الذين رفعوا رايات الاشتراكية استثناء، حيث غلب لديهم السلوك الشيطاني الذي يجرد الممارسة السياسية من القيم الاخلاقية.

ومن جانب آخر، فان الاشتراكية، شانها شان الليبرالية من قبل، تحولت من دعوة ثورية تعمل على تحرير المستضعفين والمستغلين الى ناموس عقائدي لحكام وطبقات اجتماعية جديدة ابتكرت اشكالا جديدة من الاستغلال والامتيازات.

والاشتراكية في هذا ليست خروجا على القاعدة التي لم تشذ عنها عقيدة من قبل .. ومرة اخرى، وكما حدث من قبل في التاريخ، ينشغل النقاد اما باصلاح الاشتراكية من داخلها او بالبحث عن بديل يحل محلها.

" النظريات الأولى لعلم النفس الاجتماعي "

واذا كان تاثر الفرد بالمجتمع هو الموضوع الأول لعلم النفس الاجتماعي فان التفاعل بين الافراد والجماعات الأصغر التي ينتمون اليها هو الموضوع الثاني. وكلا الموضوعين يتواجدان دائما في مجتمع فعلي قائم تزدهر فيه ايديولوجيات متعددة.

ويبدو أن الحاجة الى ادراك حقيقة التفاعل بين الأفراد والجماعات قديمة قدم النشاط المشترك الذي نشأ بينهما ويدل تاريخ المجتمع البدائي على أن الناس واجهوا تلك الظاهرة منذ فجر البشرية وحاولوا الاستفادة منها فكافة طقوس الأديان القديمة وأشكال تاثير الملوك والقادة في اتباعهم وانقياد الناس الى هؤلاء الرؤساء اعتمدت على نوع من الفهم للعلاقة بين الفرد والجماعة، كذلك كان قدماء الخطباء وأصحاب البلاغة والبيان يعرفون أسرار التاثير في الجمهور. وعلى هذا فان الفكر النفسي- الاجتماعي موجود بهذا الشكل من آلاف السنين ولكن علم النفس الاجتماعي كعلم معاصر لم ينشأ الا منذ وقت حديث.

ولا تختلف عملية نشوء مقدمات علم النفس الاجتماعي الحديث في مجملها عن عملية نشوء وتطور بقية العلوم. فقد ولدت بادىء ذي بدء في أحضان الفلسفة ثم تم انفصالها تدريجيا من نظام المعرفة الفلسفية. ويرى معظم الباحثين أن أغلب قضايا علم النفس الاجتماعي قد ولدت في أحشاء الأنظمة الفلسفية، ويرى أولبورت أنه يجب أعتبار أفلاطون الأب الروحي لجميع هذه القضايا.

لكن الجانب الذي يهمنا اليوم هو الذي يتناول تميز تلك القضايا واستقلالها بحيث كونت ميدانا مستقلا من ميادين المعرفة. ويرتبط هذا الاستقلال بثلاثة عوامل أساسية هي :

١ - وجود قضايا أو مسائل لم تستطع العلوم المجاورة أن تحلها. بعبارة أخرى نشوء أسئلة في مجالات علوم الاجتماع والنفس والأنثروبولوجيا تتطلب نظام جديدا من المعرفة لكي يجيب عليها.
٢ - استعداد العلمين "الوالدين" لفرز قضايا علم النفس الاجتماعي وتمييزها.
٣ - مواصفات الأشكال الأولى للمعرفة النفسية الاجتماعية المستقلة.

وقد أدى تبلور العلاقة بين علم النفس وعلم الاجتماع فى أواسط القرن التاسع عشر الى ظهور أول أشكال المعرفة النفسية الاجتماعية المستقلة. وقبل الشروع فى وصفها لابد من القاء الضوء على المستوى العام للمعرفة فى العلوم الانسانية فى ذلك الوقت، تلك المعرفة التى انبعثت عنها النظريات الأولى فى علم النفس الاجتماعى.

لم يكن بمقدور تلك النظريات الأولى أن تستند الى بحوث عملية تطبيقية من أى نوع، وكانت أقرب الى التصورات الشاملة الموسوعية الملازمة للفلسفة الاجتماعية فى ذلك العهد كما كانت تأملية وتصاغ فى اطار قواعد المعرفة الفلسفية. ومن ثم اكتسبت طابعا وصفيا.
وأهم نظريات علم النفس الاجتماعى الأولى هى: سيكولوجية الشعوب، وسيكولوجية الحشد ونظرية غرائز السلوك الاجتماعى. وتدور كلها فى اطار تحليل العلاقات بين الفرد والمجتمع وأيهما سابق على الاخر الفرد أم المجتمع.
وتنتمى سيكولوجية الحشد ونظرية غرائز السلوك الاجتماعى الى مبدأ أولوية الفرد بينما تنتمى سيكولوجية الشعوب الى المبدأ الثانى. وقد استمر هذان الاتجاهان فى تاريخ علم النفس الاجتماعى منذ نشأته الى الآن.

" سيكولوجية الشعوب والطابع القومى "

نشأت هذه الفكرة ، بوصفها شكلا من أول اشكال نظرية علم النفس الاجتماعى، فى أواسط القرن التاسع عشر فى ألمانيا، منطلقة من مبدأ أولوية المجتمع، فقالت بوجود" روح تعلو على الأفراد" ولا تكتمل الا فى وجود الامة أو الشعب. وقد برزت هذه الفكرة فى ألمانيا بالذات التى كانت ممكونة من اقطاعيات وامارات متفرقة ونشأت فيها حركات تطالب بالتوحيد. ويعتبر الفيلسوف لازاروس (١٨٢٤-١٩٠٣) والعالم اللغوى شينتال (١٨٢٣-١٨٩٣) هما مؤسسا نظرية سيكولوجية الشعوب ونشرا فى عام ١٨٥٩ مقالا بعنوان "تأملات تمهيدية فى مسألة سيكولوجية الشعوب" وذلك فى مجلة "سيكولوجيا الشعوب وعلم اللغة" التى تأسست فى نفس العام. وفى تلك المقالة صاغا الفكرة القائلة بأن قوة التاريخ الرئيسية هى الشعب أو "الروح الكلى" الذى يعرب عن نفسه فى الفن واللغة الأساطير والعادات...الخ. أما الوعى الفردى فليس الا نتاجا لذلك الوعى الجمعى، وتكون مهمة علم النفس الاجتماعى اكتشاف الجوهر النفسى لروح الشعب والقوانين التى يتشكل بموجبها.

وتطورت هذه الفكرة فيما بعد على يد فونت (١٨٣٢-١٩٢٠) الذى يعرف بأنه مؤسس أول معمل لعلم النفس. وقد صاغ فونت فكرته للمرة الأولى فى عام ١٨٦٣ فى "محاضرات عن روح الانسان والحيوان" ولكنه ابتداء من عام ١٩٠٠ شرع فى تأليف كتابه الضخم ذى المجلدات العشر والذى سماه "سيكولوجيا الشعوب" وفى المجلد الأول من هذا الكتاب تعرض لتصنيف علم النفس وقال أنه يجب أن يتألف من قسمين هما علم

النفس الفسيولوجي وسيكولوجيا الشعوب والأول يجب أن يدرس فى المعمل بواسطة الاستبطان، غير أن المعمل لا يصلح لدراسة العمليات النفسية العليا كالتفكير والكلام، ولذلك يجب أن نبدأ بسيكولوجية الشعوب التى لا نستخدم فيها طرائق معملية وانما نقوم بتحليل منتجات الثقافة كاللغة والفن....الخ.

وقد تخلى فونت عن مفهوم "الروح الكلى" غير الواضح، وجعل من سيكولوجيا الشعوب علما وصفيا وأضفى عليه صفة واقعية بأن جعله يدرس اللغة والعادات والأساطير. ومع ذلك فان الفكرة الأساسية وراء المفهوم عند لازاروس وشتينتال وفونت هى أن التكوين النفسى للفرد ترجع جذوره الى وعى الشعب، ولذلك فانا علم النفس يجب أن يحتوى بابا خاصا لدراسة تلك القضايا. وانه يوجد لدى الفرد الى جانب الوعى الفردى شىء آخر يميز سيكولوجية الجماعة أو الامة .

وفي اعتقادنا أن فكرة سيكولوجية الشعوب هي الأب الشرعي للفكرة الحديثة المسماة بالطابع القومي، وهي فكرة ظهرت بشدة بعد الحرب العالمية الثانية خلال البحث عما سمي بالطبيعة العدوانية لدى الشعب الالماني، حيث ألقيت تبعة اشعال الحروب على طبع غالب لدى بعض الشعوب يدفعها الى ذلك، أى أن أعضاء تلك الأمم لهم شخصية عدوانية. والحقيقة أن هذه الفكرة لا ترجع الى ما بعد الحرب العالمية الثانية اذ يمتلىء التاريخ بمؤلفات حاول أصحابها استشفاف السماتالشخصية التى تميز جماعة أو شعبا أو أمة .

ففى عام ١٩٣٤ نشرت روث بنديكت كتابها " أنماط من الثقافة " (ترجم الى العربية) وحاولت فيه التمييز بين نوعين من الشخصيات تمثل كلا منهما حضارة معينة. وتتابعت بعد ذلك المؤلفات التى سارت فى هذا السبيل مستخدمة الاختبارات النفسية والمتوسطات الحسابية والملاحظات والمعايشة... الخ. واشترك رالف لينتون وهو أنثروبولوجي- مع أبرام كارديز- وهو محلل نفسي - فى دراسة لما سموه بالتكوين الأساسي للشخصية وأصدر بعدها كارديز كتابيه المعروفين "الفرد ومجتمعه" و "الحدود النفسيه للمجتمع" .

ولكى نوضح مفهوم الطابع القومي نقول انه يحتوى على معنيين الاول أنه مفهوم احصائى أى يستند الى توزيع سمة أو سمات معينة لدى أعضاء أمة ما وهكذا يمكن أن يقال أن الانجليزى" فى المتوسط" أكثر تحفظا من الأمريكي. أما المعنى الثانى فيشير الى أنماط من السلوك الاجتماعى لصيقة بشعب معين. فيقال مثلا أن النمط الاستبدادى يشيع بين أفراد مجتمع معين فى حين يشيع النمط الديموقراطى لدى أفراد شعب آخر. أو أن الأطفال فى مجتمع ما ينشئون فى جو متسامح أو فى جو صارم.

ولقد بين كلاينبرج أن المعينان واردان وأنهما ليسا مستقلين عن بعضهما البعض ، فسمات الافراد فى أمة ما تساهم فى تكوين نظامها الاجتماعى، كما أن النظام الاجتماعى يساهم فى صياغة سمات أفراده.

ولعل أحد المصادر الكبرى التى ساهمت فى نشوء فكرة الطابع القومى هو تلك الثروة من المعلومات الأنثروبولوجية التى جمعها الباحثون عن الشعوب البدائية ، اذ يبدو أن تلك المعلومات تؤيد فكرة وجود فروق واضحة بين "طبيعة" تلك الشعوب. ولكن لا يجب أن يغرب عن البال أن تلك لمجتمعات صغيرة العدد ومتجانسة وهى بالتالى تختلف اختلافا كبيرا عن أمم عالم اليوم، ولا يصبح من المأمون أن نستخرج منها تعميمات نطبقها على الأمم الكبرى. فالأمم فى عالمنا هذا كيانات كبرى معقدة التركيب وغير متجانسة الى درجة عظيمة وتتكون من جماعات متعددة داخل مجموع السكان. ولذلك فالاحتمال الأكبر أن توجد فروق هامة بين "طبائع" تلك الجماعات، بل وقد تكون تلك الفروق أعظم وأكبر من تلك التى توجد بين الأمم المختلفة. ورغم ذلك فقد حاول بعض الباحثين اثبات وجود طابع قومى لدى الشعب الألماني مثلا فيقول "بركنر" أنه توجد لدى الشعب الألمانى بعامة صفة سماها "البارانويا الثقافية" ويقول جورر أن الشعب اليابانى "عدوانى" ويرجع ذلك الى طبيعة التنشئة الاجتماعية الجامدة للطفل. الا أن هذه الدراسات لم تسلم من النقد ولذلك فان الرأى السائد الأن هو انه توجد فروق بالفعل فى الطابع القومى بين مختلف الامم وبين مختلف الجماعات داخل الامة الواحدة .ولكن حتى مع افتراض وجود تلك الفروق فلا يوجد ما يقال بشكل حاسم عن طبيعتها المحددة ولذلك فقد قلت أو كادت تنعدم الدراسات التى تبحث فى هذا المفهوم .

" سيكولوجية الحشد "

وهى أحد أشكال النظريات القائلة بأولوية الفرد، ولكنه فى ظل الحشد يفقد تلك الفردية . وقد نشأت تلك الفكرة على يد عالم الاجتماع الفرنسى تارد (١٨٤٣-١٩٠٤) الذى قال بأن سلوك الفرد فى الحشد يتميز بفقدان العقلانية والاعتماد على المحاكاه أو التقليد. وتابع هذه الفكرة بعده السوسيولوجى الفرنسى جوستاف لوبون (١٨٤١-١٩٣١) الذى لفت الانتباه الى التضاد بين عامة الجماهير والصفوة أو النخبة .

ويرى لوبون أن السمات الأساسية للحشد هى: غياب الفردية (الأمر الذى يفضى الى سيادة رد الفعل والغرائز الأولية). سيطرة الانفعالات (الأمر الذى يفضى الى الجموح)، فقدان المنطق، أى فقدان الشعور بالمسئولية الشخصية. وهى صفات تجعل الحشد الجماهيرى كيانا فوضويا غير منتظم ويحتاج بالتالى الى "قيادة" تتوفر فى "الصفوة". الا أن تصور لوبون قد نشأ عن ملاحظة لسلوك الحشد فى حالة الذعر، وتم تعميمه على الأشكال الجماهيرية الأخرى. ومن ثم فان تصوراته كانت تعسفية ولم تقدم تفسيرا لحقيقة العلاقة بين الفرد والجماعة .

" نظرية الغرائز عند ماكدوجال "

وهى النظرية التى وضعها عالم النفس البريطانى ماكدوجال (١٨٧١-١٩٣٨) الذى انتقل فى عام ١٩٢٠ الى الولايات المتحدة وعاش فيها بعد ذلك . وقد أورد فكرته عن الغرائز فى كتابه "مقدمة الى علم النفس الاجتماعى" الذى صدر عام ١٩٠٨ ويعتبر عام ١٩٠٨ عاما مميزا فى تاريخ علم النفس الاجتماعى اذ توطئت فيه دعائم ذلك العلم نهائيا بوصفه علما مستقلا، فقد صدر فى نفس العام فى الولايات المتحدة كتاب آخر لعالم سوسيولوجى هو روس بعنوان "علم النفس الاجتماعى" على أنه لا يمكننا اعتبار تلك السنة هى البداية فقد سبق لعالم النفس الانجليزى بالدوين أن نشر كتابه "بحوث فى علم النفس الاجتماعى" عام ١٨٩٧ ومن قبله عالم الاجتماع الفرنسى تارد الذى نشر كتابا بعنوان "علم النفس الاجتماعى" عام ١٨٩٥ .

والفكرة الأساسية عند ماكدوجال هى أن الغرائز الفطرية سبب السلوك الاجتماعى، والغرائز عنده هى مسارات محددة وراثيا لتفريغ الطاقة العصبية، وبذلك يربط بين الغريزة والانفعال. ولكل غريزة أساسية انفعالها المميز والذى تكون استثارته جزءا رئيسيا من وظيفة الغريزة .

وتخدم الغرائز هدفا أعم وهو الدافع الى السلوك والنشاط وعند ماكدوجال أن الانسان كائن هادف، لكل سلوك عنده قصد ولذلك سمى السيكولوجيا التى ابتدعها السيكولوجيا الهادفة أو سيكولوجية القصد (الهورمية)، (من الكلمة اليونانية Horme وتعنى الطموح، الرغبة، النزوة) فلكل سلوك غرض والغرائز تستثير الانفعالات بحيث يحقق نشاط الانسان تلك الأغراض. وربط بين كل غريزة والانفعال المصاحب لها، وهناك سبعة أزواج مترابطة هى: غريزة القتال ويلازمها انفعال الغضب والخوف، غريزة الفرد وانفعال المحافظة على الذات، غريزة البناء وانفعال التعمير، غريزة القطيع وانفعال الانتماء. ومن مجموع الغرائز والأغراض التى تهدف اليها تنجم جميع المؤسسات الاجتماعية كالعائلة ومختلف العمليات الاجتماعية كالتبادل.. الخ.

ولقد تعرضت فكرة تفسير السلوك الاجتماعى بواسطة الغرائز الى انتقادات كثيرة لعل أهمها اننا لا نستطيع تفسير أنواع السلوك الا تلك التى نكتشف الغريزة المؤديه اليها ونسميها. ومن الواضح أن تسمية غريزة ما لا يفسر السلوك ولا يتنبأ به، وبلغ الأمر أن أصبح لكل سلوك غريزة خاصة به.

كما اثبتت الدراسات الانثروبولوجيه ان هناك بعض القبائل لا يظهر لديها العدوان على الاطلاق ولما كان كل اصحاب نظريات الغرائز يتفقون على أن العدوان على الاطلاق ولما كان كل أصحاب نظريات الغرائز يتفقون على ان العدوان غريزة أساسية عند كل الناس فان عدم وجودها عند بعض الناس يشكل تحديا اساسيا للنظرية والأمر بالمثل فى حالة بعض القبائل التى لا توجد لديها نزعة التملك على ان تفسير اصحاب نظرية الغرائز للسلوك البشرى لا يتعدى كونه وصفا لما يقوم به الانسان. وليس تفسيرا حقيقيا له فالغرائز تصف السلوك ولا تفسره .

والقول بأن الانسان يقاتل لان لديه غريزة العدوان لا يزيد أو ينقص من معرفتنا بهذا السلوك. وعلى اى حال فأن المشتغلين فى هذا الميدان لم يتفقوا فيما بينهم على عدد الغرائز، فافترض بعضهم وجود غريزتين بينما افترض البعض الآخر وجود ثمانية عشر غريزة فى حين حاوله البعض الآخر وضع غريزة لكل سلوك معروف يمكن أن يقوم به الانسان.

الا أن الشائع الان ان مفهوم الغريزة اكثر انطباقا على الحيوان منه على الانسان كما أصبح التعريف اكثر دقة فأصبح يسمى سلوكا خاصا بالنوع أى أنه نمط سلوكى غير قابل للتعديل نسبيا. ورغم انه لا توجد أنواع من السلوك الانسانى يمكن ان نطلق عليها انها غريزيه بهذا المعنى فأن هناك احتمالا اننا نولد باستعدادات غريزية تتعدل من خلال الخبرة.

ولا شك ان الثقافة والخبرة والتطور قد عدلت من سلوك البشر عبر آلاف السنين بحيث أصبح وجود الغرائز الانسانية أمرا لا قيمة له من حيث تفسير الدافع الى السلوك الاجتماعى .

" الفصل الرابع "

الوضع الراهن لعلم النفس الاجتماعى

* تمهيد
* علم النفس الاجتماعى والوعى الطبقى .
* النظرة الانتقادية لعلم النفس الاجتماعى فى الغرب .
* التغيير الاجتماعى موضوعا لعلم النفس الاجتماعى .
* التيسير الاجتماعى .
* من التيسير الاجتماعى الى التفاعل الاجتماعى .
* التفاعل الاجتماعى .
* التفاعل الاجتماعى والحاجة الى الانتماء .

* تمهيد :

نشأ علم النفس الاجتماعي ليدرس مسألة مدى التأثير المتبادل بين الفرد والجماعة ، وذلك منذ أدرك العلم الحديث ضرورة فهم هذه العلاقة حتى يتمكن البشر من تحقيق بقائهم على سطح الأرض فى ظل افضل ظروف ممكنة . ولعل أساس البحث يكمن فى فكرة أن البشر خلقوا مختلفين ، فلا يوجد فرد يشبه فردا آخر وبالتالى فان الاختلاف والنزاع هو أساس العلاقات الاجتماعية . ولا يعنى هذا أنه لا يوجد تشابه واتفاق، فلا شك أن التشابه موجود والاختلاف موجود ، وهنا تنشأ مشكلة علم النفس الاجتماعى : كيف يتم التوفيق بين الاختلاف والاتفاق ولقد نما الاختلاف والنزاع فى القرن العشرين بدرجة تفوق ما حدث فى كل التاريخ السابق للبشر . فقد نشأت خلافات حادة وواسعة بين مختلف الامم والفئات والطبقات الاجتماعية بسبب تضاد المصالح مثل الصراع فى يوغسلافيا وفى أفريقيا وبين العمال وأصحاب الشركات أو المودعون مع أصحاب شركات توظيف الأموال) وكذلك بسبب تضاد العقائد (المسلمين مع المسيحيين، المسيحين مع اليهود ، المعتقدين بنظرية داروين والمعادين لها . أو بسبب تضاد الأعمار (الصغار والكبار - صراع الأجيال) أو بسبب اختلاف التعليم (المؤمنون بالعلم والمؤمنون بالخرافات) أو تضاد واختلاف الأعراق (الصرب والكروات) ونشأ عن هذا الاختلاف ظواهر سلوكية متعددة تقع فى دائرة اختصاص علم النفس الاجتماعى كحوادث التعصب والعنف الجماهيرى والشائعات والمشاحنات التى تنشأ أثناء الانتخابات بل والحروب وما الى ذلك . وتظهر هنا بوضوح فوائد علم النفس الاجتماعى التطبيقى فكيف نطبق فى تلك الحالات ما علمناه عن سيكولوجية الجماعات الصغيرة والكبيرة ؟ .

كان لابد من تعديل مسار الفهم لتحقيق اهداف الجماعة الانسانية حتى لا يتحطم الفرد ويفقد قواه الابداعية وحتى لا تتحول الجماعة الى كابوس يجثم على صدر الافراد ويمنعهم من النشاط او على اقل تقدير يجعل نشاطهم محدودا لا يكاد يفترق عن نشاط الحيوان. فالصلة مع العالم الخارجي توجد عند الحيوان، ولكن "الحيوان" لا ينتسب الى أي شيء، أي لا صلة له بما حوله فليس له أرض ولا رحم ولا ممتلكات أو ثقافة يحافظ عليها. اما الانسان فله هذه الصلات، أي أن هذا العالم الخارجي وجد لأجله، ولذلك نشأ التفاعل والعلاقات والتنظيم، تلك الأنشطة التي تكون لب علم النفس الاجتماعي.

ومن هنا كان التفاعل Interaction والتواصل Commnnication هما المسألتان الرئيسيتان في هذا العلم. ونشأت الصعوبة الأساسية عند فهم كيف يندمج "الفرد" في النسيج الاجتماعي. فليست المسألة هي وجود كائن لا اجتماعي (الفرد) ثم يفرض عليه شيء اجتماعي (المجتمع). بتعبير آخر لا توجد الشخصية ثم تدرج بعد ذلك في اطار العلاقات الاجتماعية، وانما المشكلة، تكمن في أن الشخصية هي نتاج للعلاقات الاجتماعية وهي خالقتها في نفس الوقت.

ان التفاعل بين الشخصية ونظام العلاقات الاجتماعية، ليس تفاعلا بين جوهرين مستقلين معزولين عن بعضهما البعض، فدراسة الشخصية هي دائما الجانب الآخر من دراسة المجتمع.

ومن هنا جاءت فكرة الأدوار الاجتماعية، فما الشخصية الا تلك الأدوار المتعددة التي يلعبها الفرد على مسرح الحياة والتي يوزعها المجتمع بدقة على أعضائه. ولكن لكل دور مواصفاته "النفسية" وبالتالي يجب أن نميز بين نوعين من العلاقات: العلاقات الاجتماعية والعلاقات النفسيه. ولم تفلح السيكولوجيا وحدها ولا "السوسيولوجيا" وحدها في كشف أبعاد هذه العلاقة ولذلك قام علم النفس الاجتماعي.

* علم النفس الاجتماعي والوعي الطبقي :

تناول علم النفس الاجتماعي في بدايتة " الجماعات الكبيرة" أي الطبقات والفئات الكبرى التي تكون المجتمع ولذلك ظهرت "سيكولوجية الشعوب" " والطابع القومي ".

ومنذ أواسط القرن التاسع عشر ظهرت النظرية الماركسية، التي قالت بأن محتوى العلاقات الاجتماعية هو النشاط الانتاجي (علاقات الانتاج) وعلاقات الملكية وأن الشكل الذي تتخذه تلك العلاقات هو الصراع بين الطبقات وأن الهدف هو تغيير المجتمع وخلق نوع جديد من العلاقات الاجتماعية تنحل فيه الصراعات ويتلاشى النزاع بين الفرد والمجموع ويعيش الناس في "ظل افضل ظروف ممكنة" .

وفي عام ١٩١٧ قامت الثورة الاشتراكية في روسيا التي انشأت نظاما اجتماعيا جديدا من العلاقات على أساس مما فهمه قادتها من النظرية الماركسية. وفي ظلها قام تصور جديد للعلوم الانسانية خاصة علم الاجتماع. ويرى هذا التصور أن أساس قيام النظام الاجتماعي هو علاقات الانتاج، أي تلك العلاقات التي تنشأ بين البشر وبين الطبقات الاجتماعية خلال نشاطهم وتفاعلهم لانتاج مستلزمات حياتهم المادية.

وتنبني فوق تلك العلاقات مجموعة كبيرة أخرى من العلاقات الاجتماعية (بالمعنى الضيق لهذه الكلمة أى علاقات بين فئات اجتماعية صغيرة) والعلاقات السياسية والعلاقات الايديولوجية، وجميعها تؤلف معا نظام العلاقات الاجتماعية. وهذه العلاقات ليست علاقات فردية، شخصية (أى علاقات سيكولوجية) ولا تقوم على أساس من الحب أو التقبل أو النفور وانما على أساس الأوضاع التي يشغلها الأفراد في نظام المجتمع، فهؤلاء الأفراد هم في الحقيقة ممثلون لطبقاتهم الاجتماعية وبالتالي فان علاقاتهم علاقات "لا شخصية" وجوهرها ليس التعامل الفردي الشخصي وانما هو تفاعل أدوار اجتماعية.

والدور الاجتماعي هو وظيفة يمكن أن يشغلها افراد مختلفون، وله مواصفات ويتوقع من شاغله أن يقوم بأنواع معنيه من السلوك. وهذه التوقعات التي تحدد معالم الدور الاجتماعي لا تتوقف على وعي وسلوك فرد بعينه، ولكنها من صنع المجتمع. ولذلك فاننا حين نشير الى الدور فانما ننسب الانسان الى فئة اجتماعية معينة، وبالفعل لا يقوم الانسان بدور اجتماعي واحد بل يقوم بعدة أدوار، وهناك عدة أدوار مرسومة سلفا للانسان (كالرجل والمرأة).

ولكن الدور الاجتماعي لا يقرر سلوك القائم به بشكل تفصيلي، اذ أن أداء الدور رهن بقدر ما يستوعب الفرد، بعبارة أخرى رهن بالخصائص النفسية للفرد ولذلك تكتسب العلاقات الاجتماعية "لونا شخصيا" مع أنها في جوهرها علاقات أدوار "لا شخصية".

وكانت هذه المشكلة هي الحائط الذي اصطدمت به مفهومات علم النفس الاجتماعي لدى المفكرين الذين يعتنقون النظرية الماركسية، فالنظر الى التفاعل الاجتماعي على انه تفاعل بين "أدوار" أو بين "ممثلي طبقات" يجرد الدور من أهم ما يميزه من الزاوية النفسية ألا وهو الطابع الانفعالي الشخصي للعلاقات بل ويجعل من غير الممكن دراسته في ضوء مفهومات علم النفس، فالناس مهما كانوا ممثلين لطبقات أو يقومون بأدوار فهم في النهاية شخصيات فردية واقعية. ان فرديتهم وشخصياتهم أكثر واقعية من كونهم ممثلين لطبقات اجتماعية. وقد حاول هؤلاء العلماء التغلب على ذلك المأزق بأن قالوا بأن تلك العلاقات الشخصية هي "الصف الثاني" من العلاقات الاجتماعية. أى أنه داخل العلاقات التي تنشأ بين الناس بوصفهم ممثلين لطبقات يقوم نوع آخر من العلاقات الشخصية (النفسية). وزادوا الأمر تعقيدا فقالوا أن الاشخاص المشتركين في أى تفاعل اجتماعي يتصرفون وكأن لهم صفتين: الأولى هي قيامهم بدور اجتماعي لا شخصي والثانية كونهم شخصيات انسانية فريدة لا نظير لها.

وتعترف العالمة السوفياتية جالينا أندرييفا بأن تفسير ذلك الموقف الثنائي خلق عقبة كأداء في وجه علم النفس الاجتماعي الماركسي وسنحاول شرح كيف تغلب هؤلاء العلماء على ذلك المأزق.

تعتبر جالينا اندرييفا أن نوعي العلاقات اللذان ينشآن خلال التفاعل الاجتماعي هما العلاقات الاجتماعية (اللاشخصية) والعلاقات النفسية (الفردية) يتحققان في عملية التواصل Communication. فمفهوم التواصل يجمع بين العلاقات الانفعالية للأفراد والعلاقات الاجتماعية اللاشخصية (بحكم طبيعتها). والتواصل عندها ليس مجرد "الاتصال" بل هو المعاشرة، فهذه الظاهرة الانسانية هي التي تجعل وجود المجتمع البشري ممكنا وهي الأسلوب الوحيد للتوحيد بين الأفراد وتطوير حياتهم، وبذلك تكون المعاشرة هي العلاقات الاجتماعية، وعلاقات الأفراد في نفس الوقت. ولكن ضعف هذا التفسير واضح، فنجدها

---

* جالينا اندرييفا، البسيكولوجيا الاجتماعية، دار التقدم موسكو، ١٩٨٨.

Andreeva, S., The development of social psychology in the U.S.S.R in "Soviet and western prespectives in social psychology, oxford, 1979 .

تعود فتقول " من المشكوك فيه أنه يمكن اعتبار المعاشرة والعلاقات بين الأفراد شيء واحد رغم ارتباط هاتين العمليتين ".

كيف يمكن اذن الربط بين العلاقات الاجتماعية وبين (التواصل)؟ (وبهذه المناسبة نحن نرى أن لفظ التواصل هو الترجمة الدقيقة لمفهوم الـ Communication حيث أن اللفظ له مدلولان هما الصلة أى الرباط والالتصاق والمعاشرة أى الوصال).

ترى المدرسة الماركسية أن الربط بين الاثنين يأتي من خلال النشاط الانساني، فالتواصل والنشاط هما وجهان لعملة واحدة، بل ان الانسان يبدو كائنا متواصلا أكثر من كونه كائنا فاعلا. فالتواصل هو واقع العلاقات البشرية. وينتقد هؤلاء العلماء فهم علماء الغرب لـ ـلية التواصل اذ أن العلماء الذين بحثوا التواصل في الغرب كما يدعون درسوه من حيث الشكل • (الرسالة المرسل، شبكات الاتصال.. الخ) في حين أنه يجب دراسته من حيث المضمون أى محتوى عمليات التواصل. والتواصل عندهم له ثلاثة جوانب: الجانب الاتصالي أى تبادل المعلومات بين الأفراد، والجانب التفاعلي أى تبادل الأفعال والجانب الادراكي اى ادراك الأشخاص القائمين بالتواصل لبعضهم البعض. وتعترف جالينا اندرييفا في النهاية ان التحقق من كل ذلك يواجه مصاعب كبرى عند دراسة سيكولوجية الجماعات الكبيرة.

وهكذا نـ ـ أن المسألة الجوهرية في علم النفس الاجتماعي من الناحية النظـ ـية لم تحل، ويرجع ذلك في رأينا الى أن النظرية الماركسية، تهتم في المقام الأول بالتغيير الاجتماعي في حين أن التغيير ليس من مهام علم النفس الاجتماعي فهو مهمة علوم السياسة والاجتماع وهو أمر عملي تطبيقي في المقام الأول ويقوم به النظام الاجتماعي بأسره.

ولم يكن هذا الاتجاه ملائما لدراسات علم النفس الاجتماعي في الغرب اذ أدرك العلماء أن مهمة علم النفس الاجتماعي في التطبيق هي التيسير الاجتماعي Social facilitation أى تسهيل مهمة الأفراد في الجماعات الصغيرة - في الحياة اليومية - لكي تؤدي واجبها على أفضل وجه وتقلل من الصعوبات التي تعترض طريق تحقيقها لأهدافها، وبذلك تساعد المجتمع الكبير على النمو والتطور.

هذه المسالة النظرية هي نقطة الخلاف الكبرى بين التفكير في علم النفس الاجتماعي انطلاقا من الموقف الماركسي الذى يرى ان واجب كافة العلوم الانسانية هو العمل على تغيير المجتمع ولو بالثورة واحلال طبقات او "ممثلى" طبقات محل طبقات اخرى فى قيادة المجتمع وان جوهر الشخصية الانسانية هو كونها ممثلة لطبقة اجتماعية معينة.

اما الموقف المغاير فينطلق من ان واجب علم النفس الاجتماعي هو العمل على تيسير عمل الجماعات الصغيرة، فهى الواقع الفعلى الذى يعمل الانسان فى ظله خلال حياته اليومية، وبذلك يجب ان نفهم دينامياتها ونستفيد من التاثير المتبادل بين الفرد والجماعة لكى نكتشف طرق تحقيق الجماعة لأهدافها وان طبيعة الانسان اجتماعية ونفسية فى الوقت نفسه وعلينا ان ندرك كيف يتاثر الفرد بالجماعة وكيف يؤثر فيها بحيث يصل الطرفين الى توافق يحقق لكل منهما هدفه.

لذلك ازدهر علم ديناميات الجماعة" فى الغرب وبحثت تفاصيل نشوء وتطور الجماعات الصغيرة وتطور البحث فى هذا الجانب بحيث وصل الى درجة عاليه من الاتقان، لا يستطيع ان ينكرها احد.

* النظرة الانتقادية الى علم النفس الاجتماعي فى الغرب :

ولم يأت انتقاد الأساس النظرى لعلم النفس الاجتماعي من جانب الايديولوجية الماركسية فحسب وانما اتى ايضا من جانب الايديولوجية الليبرالية. فهناك فى الغرب وفى امريكا من يرون ان التغيير هو من مهام علم النفس الاجتماعي. ومن المعروف ان التعريف الشائع لعلم النفس الاجتماعي فى امريكا هو انه العلم الذى يتناول التفاعل بين البشر وان هدفه هو الوصول الى القوانين العامة التى تحكم ذلك التفاعل. وتعتبر دراسات تريبليت Triplett فى التيسير الاجتماعي واعمال روس وماكدوجال حول التفاعل الاجتماعي والغرائز الاجتماعية هى البداية الرسمية لعلم النفس الاجتماعي فى امريكا، وهى التى ارست التقاليد المعملية والتجريبية التى ما زالت راسخة وتتبعها البحوث في مختلف مجالات علم النفس الاجتماعي التقليدية مثل العلاقات بين الأشخاص، والقيادة، والامتثال، والتاثير فى الاخرين...الخ. وخلال الاعوام الثمانين الماضية زخر علم النفس الاجتماعي بكم هائل من البحوث والتجارب المعملية فى تلك الموضوعات. الا ان انتقاد تلك التجارب والتعرض لأسسها النظرية سرعان ما بدا فى الظهور خاصة فى الآونة الأخيرة. واخذ الكثيرون من الكتاب واصحاب علم النفس ومناهج البحث والفلاسفة يوجهون انتقادات متزايدة تجمعت كلها تحت مظلة ما يسمى "ازمة علم النفس الاجتماعي المعاصر". وقد استعرنا لفظ الأزمة من وصف توماس كون فى كتابه عن "بنية الثورات العلمية" لكيفية تركيب وبناء النقلات او الثورات العلمية من داخل الاجماعات Paradigms القائمة. ووفقا لما يراه كون فان حالة الأزمة هى تلك الفترة التى تسبق عادة ثورة علمية وتمثل الوعى العام بان هناك خطا ما، ويوفر ذلك الوعى نوعا من الميكانيزم التصحيحى يطمئن الباحثين ان "التصلب" الموجود فى العالم الراهن لن يفلت من قذائف التحدى.

وقورن هنا الاكتشاف بالمقالات التى نشرت فى مجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعى عام ١٩٦٧ والتى لم تحتو على أى مقالة انتقادية. وعلل الباحثون هذه النتيجة بقولهم "انها تعنى زيادة الاهتمام بالمنهج والمشكلات الاحصائية المرتبطة بالبحوث المعملية، وربما كان لتغير رؤساء التحرير في تلك الفترة اثر فى ذلك".

النوع الثانى، وحاول تقديم تصنيف لانواع الانتقادات فى كتابات علم النفس الاجتماعى. فهناك انتقادات فى المنهج وانتقادات فى النظرية. ويشير فيليب وكسلر (١٩٨٧) الى أن موضوع علم النفس الاجتماعى هو دراسة أحد جوانب عملية التغير التاريخية للتنظيمات والممارسات الاجتماعية للجماهير. وأن هذا التغير ينشأ عن تعارضات الموقف الراهن وتوتراته الديناميكية.

والنوع الثالث هم من ينقدون علم النفس الاجتماعى من ناحية النظرية اذ يرون انه علم محافظ يقوم بدور فى ترسيخ العقائد الاجتماعية الراهنة، فهو يفهم الشخصية من زاوية مساعدة أعضاء المجتمع على توجيه سلوكهم ومعرفة أسبابه، ولكنه يقدم هذا الفهم كما لو كان حقائق أزلية للوجود الانسانى بدلا من ان يضعها فى سياقها التاريخى الاجتماعى، انه يقدم نوع المعرفة التى تساعد على بقاء الوضع الراهن ومؤسساته. واذا اراد علم النفس الاجتماعى ان يصل الى الحد الأدنى من الانتقاد للبناء والمساعدة على التغيير فعليه اظهار الجذور التاريخية والاجتماعية للوقائع السيكولوجية الجارية وما "يعتقده" بشأن دور تلك "الوقائع" فى تدعيم الأشكال الاجتماعية الراهنة.

---

* Tedshi, Gaes, Riordan. Quigley-Frenandez, Social Psychology" Cumulative knowledge, JPSP, No11. (3) P 485,486.

ان المأزق الحالى لعلم النفس الاجتماعى الغربى من وجهة نظر هؤلاء المفكرين هو أن المجتمع يخلق شخصية يتوجه نشاطها الأساسى الى محاربة ذلك المجتمع الذى أنجبها، فيعود المجتمع الى التدخل باسم المحافظة على النظام الاجتماعى ويدخل الفرد والمجتمع فى حلقة مفرغة من الصراع لا مخرج منها الا بأن يلعب الطرفان لعبة خداع النفس. فيتصرف المجتمع "وكأنه" لا يخلق تلك الشخصيات ومن ثم فله حق التدخل والقسر ويتصرف الأفراد "وكأنه" لا وجود للمجتمع. وهذا هو ما يجعل الأساس النظرى لكل علم النفس الاجتماعى واهيا.

ولا بد لنا فى نهاية الأمر من التعليق على النظرية الماركسية التىخلقت تيارا أيديولوجيا هائلا فى كل بلاد العالم خلال القرن العشرين. ولعلها كانت النظرية الاجتماعية الوحيدة التى وجدت لها تطبيقا وقامت على أساسها علاقات اجتماعية وسياسية ونظم حكم وتطبيقات شتى فى مجالات البحث العلمى والتكنولوجى.

فماذا بقى من الماركسية بعد زوال تلك التطبيقات وانهيار ما كان يسمى بالدول الاشتراكية؟ الحقيقية أن مأزق الماركسية، والذى أدى الى انهيار تطبيقاتها الاجتماعية، نشأ فى الاتحاد السوفيتى (سابقا) وفى المجتمعات التى فرض عليها التفسير اللينينى الستالينى للماركسية. وهو مأزق يرجع الى تحويل الماركسية من فلسفة أو رؤية للعالم الىمذهب سياسى ونظام حكم، اذ أدى ذلك الى ممارسات دكتاتورية لبقاء "أصحاب المذهب" فى الحكم وكذلك الىخلق نظام من "الاعداء والأصدقاء"، كل ذلك تحت اسم النظرية الماركسية حتى خلت تلك النظرية تماما من أى مضمون انسانى ومن أى دعوة لنـــيير.

لكن ظلت الماركسية فى الغرب فلسفة ورؤية، وتحولت ، كما يقول المفكر الماركسي الفرنسي التوسير، الى "نظرية لتوليد النظريات" وأصبحت بسبب ذلك نبعا تغترف منه فلسفات ونظريات متعددة خاصة فى العلوم الانسانية التى استفادت من نظرتها الانتقادية وقد توالدت الماركسية وانتخبت العديد من "الماركسيات" وبالتالى"ذابت" فى الفلسفات والعلوم الأخرى كما حدث فى علم النفس الاجتماعى على يد فروم وموريتو وغيرهما. وهكذا عادت الى مكانها الطبيعي شأن كل الأفكار التى أثارت العقل الانسانى ثم اتخذت وضعها فى " طابور" الأفكار العبقرية للبشرية لتثبت مرة أخرى ان الفكر مهما حلق فى سماء "الخيال" لابد أن يخضع فى النهاية لوعى الانسان، ذلك الوعى المتنامى بلا حدود، والذى يستحيل أن تسيطر عليه فكرة واحدة مهما كانت.

* التغيير الاجتماعى موضوعا لعلم النفس الاجتماعى :

لا شك ان الجماعة الصغيرة هى البنية الأولى التى يخطو فيها الفرد أولى خطواته ويواصل تطوره بداخلها فيما بعد. وهو لا يتأثر بها فحسب بل ويتلقى فيها ومن خلالها فقط المعلومات الأولى عن العالم الخارجى، كما أنه ينظم ويمارس فيها بعد ذلك كل أنواع نشاطه. وبهذا المعنى تقع الجماعة الصغيرة فى بؤرة اهتمامات علم النفس الاجتماعى، كما تفرض نفسها موضوعا للدراسة المباشرة. ولكن ، هل يؤدى الاهتمام بدراسة الجماعات الصغيرة الى اهمال وتجاهل القضايا الاجتماعية الكبيرة؟ ويطرح هذا السؤال مشكلة الهدف من دراسة علم النفس الاجتماعى، هل ندرس علاقة الفرد بالمجتمع من أجل احداث التغيير الاجتماعى بمعناه الواسع مثل تغيير نظم الحكم أو احلال طبقات محل طبقات أخرى فى موقع التسلط والسيادة أو تغيير المعتقدات والايديولوجيات السائدة؟ ..... أم اننا ندرس علم النفس الاجتماعى من أجل تيسير عمل الجماعات الصغيرة بحيث تصل الى تحقيق أهدافها ومن ثم تنمو شخصيات أعضائها ويشبعون حاجاتهم ويستمر المجتمع بالتالى فى حالة من النشاط الديناميكى؟

لا نصادف ، الا نادرا، فى كتب علم النفس الاجتماعى مسألة التغير الاجتماعى، فلم تهتم أشهر الكتب المعاصرة بتلك المسألة ولم تضعها على جدول أعمالها فلا يوجد لها ذكر فى كتاب كرتش وكرتشفيلد (١) ولا فى كتاب أرونسون(٢) . بل أن أحدث انسيكلوبيديا فى علم النفس(٣) لا تضع مادة التغير الاجتماعى ضمن محتوياتها. وعلى العكس نرى هذه المادة من القضايا الكبرى فى علم الاجتماع وكانت فى وقت ما من أصعب وأهم مشكلاته.

فقد حاول اوجست كومت وبعض أصحاب علم اجتماع القرن التاسع عشر تحديد عوامل التغير الاجتماعى واتجاهاته وخاصة بعد النتائج التى طرحتها الثورة السياسية فى فرنسا والثورة الصناعية فى انجلترا. وأصبح البحث عن نظرية للتغير الاجتماعى، أو الديناميات الاجتماعية التى تكشف عن قوانين الحركة والتغير فى المجتمعات يمثل النقاط المحورية فى علم اجتماع القرن التاسع عشر، كما كان ظهور المجتمع الرأسمالى والحركات الثورية الاجتماعية التى صاحبته - بما فى ذلك النمو الحضرى وتطور الاتجاه الصناعى وتنقل الأفراد والأفكار والجماعات - هو الدافع الاساسى للتحليل السوسيولوجى للتغير.

وقد اتسمت معظم النظريات التى ظهرت فى ذلك الوقت بالطابع الثورى وتعتبر نظريات كارل ماركس فى هذا الصدد اكثرها انتشارا، وخاصة حين اكدت ان نظام الانتاج - اى تكنولوجيا الانتاج والعلاقات الاجتماعية التى ترتبط بها - هى العنصر الاساسى فى المجتمع، او هى البناء التحتى الذى تستند عليه كل النظم الاخرى السياسية والدينية والأسرية التى تكون "ابنية فوقية". وكلما تقدمت وسائل التكنولوجيا، سنحت الفرصة لاستخدام نظم جديدة للانتاج مما يؤدى الى اقدام طبقات جديدة على اغتصاب بعض السلطة او القوة السياسية والاقتصادية من الطبقات الحاكمة القائمة. وعلى ذلك يرى ماركس ان تاريخ المجتمعات ليس الا تاريخ النضال الطبقى.

وتصور هربرت سبنسر تطور المجتمع على انه انتقال من مجتمع يمتاز ببساطته وصغر بنائه ووظائفه الى مجتمع يتسم بالتباين على نطاق واسع. وصاغ نظريته عن التطور "فوق العضوى" قبل ظهور كتاب داروين "أصل الأنواع" فى سنة ١٨٥٩. وبالمثل صاغ عالم

الانثروبولوجيا الأمريكى "لويس مورجان" نظرية تطورية لنمو الثقافة خلال مراحل ثلاثة هى مرحلة الوحشية ومرحلة البربرية، ثم مرحلة الحضارة أو المدنية.

أما "ماكس فيبر" فقد اتخذ من نظرية ماركس نقطة البدء فى دراسته للتغير الاجتماعي. فذهب الى ان تطور البورجوازية الغربية قد سبقه بالضرورة ظهور "المذهب الكالفينى" الذى يقرر أن قدر الانسان مرسوم له منذ ولادته وعلى اى حال فقد تقبل ماكس فيبر النظرية الماركسية فيما قررته من ان البورجوازية النامية تحاول دائما اغتنام الفرص المواتيه لتراكم راس المال، وما يترتب على ذلك من تعاظم طبقة البروليتاريا المعدمة. الا انه يرى ان الظروف او الشروط المادية رغم انها ضرورية فهى غير كافية.

هذا، وقد اختلطت مفاهيم التغير والتطور والنمو والتقدم فى كتابات مفكرى القرن التاسع عشر، فكانوا احيانا يفرقون بينها لكنها كانت فى كل الأحوال تعتبر مصطلحات مرتبطة ارتباطا منطقيا. وقد استعيرت فكرة التطور الاجتماعي مباشرة من نظريات التطور البيولوجى. اما مصطلح النمو فقد استخدم بطريقة مختلفة فى معظم المؤلفات السوسيولوجية الحديثة، فهو يستخدم للدلالة على التمييز بين نوعين من المجتمعات المعاصرة وهى المجتمعات الصناعية، وجميع المجتمعات من ناحية أخرى، كما يستخدم للاشارة الى العملية التى يتحول بها هذا النوع الأخير الى مجتمعات صناعية. وترتبط هذه المفاهيم ارتباطا وثيقا بفكرة التقدم الاجتماعى وبخاصة عند كل من كونت وسبنسر. وقد تعرضت فكرة التقدم هذه للانتقاد على أيدى المحاولات التى استهدفت جعل علم الاجتماع علما متحررا من الأحكام القيمية، وهكذا اخذ العلماء يستبدلون مصطلح التغير الاجتماعى بهذه المصطلحات الغامضة للاشارة الى كل صور التباين التاريخى فى المجتمعات الانسانية.

ومع بداية القرن العشرين ابتعدت محاولات التنظير على النطاق الواسع عن مجال علم الاجتماع، وتركزت الجهود حول الدراسة الاكثر تفصيلا لمجتمعات محلية خاصة بل ولنظم معينة باستخدام طرق عملية دقيقة للملاحظة والمسح والقياس. ولا توجد الآن نظرية واحدة فى التغير الاجتماعى بل توجد نظريات عديدة، تهتم كل منها بمظاهر ونتائج معينة ومحددة للتغير. وينظر علماء الاجتماع اليوم الى التغير الاجتماعى على انه ظرف او حال عادى للمجتمع وتتلخص الملامح الرئيسية للتغير فى المجتمع المعاصر على النحو التالى :

ا - يحدث التغير فى اى مجتمع واى ثقافة بوضوح واستمرار .

ب - لا يمكن عزل التغيرات من حيث الزمان او المكان لانها تحدث فى سلسلة متعاقبة ومتصلة الحلقات اكثر من حدوثها على شكل ازمات وقتيه تتبعها مراحل اعادة البناء، كما ان النتائج التى تترتب عليها تميل الى ان تسود الاقليم كله بل والعالم باسره فى نهاية الامر .

ج - التغيرات المعاصرة يمكن ان تحدث فى اى وقت ويمكن ان تنتشر نتائجها وتؤثر فى اى مكان، وهى لذلك ذات اساس مزدوج .

د - حجم التغيرات المعاصرة سواء كانت مخططة او تمثل نتائج ترتبت على التجديدات الحديثه، اكبر بكثير من التغيرات التى كانت تحدث من قبل.
- يزداد الآن نطاق التكنولوجيا المادية والاستراتيجيات الاجتماعية ويتسع ، مفضيا الى نتائج وآثار تراكمية .

و - يؤثر الحدوث العادى للتغير تاثيرا كبيرا وواسعا على التجربة الفردية والجوانب الوظيفية للمجتمعات فى العالم الحديث، ومعنى ذلك انه ليس هناك جانب واحد من الحياة بمنأى عن توقع حدوث التغير فيه .

يشير مصطلح التغير الاجتماعى الآن الى اوضاع جديدة تطرا على البناء الاجتماعى، والنظم، والعادات، وادوات المجتمع نتيجة لتشريع او قاعدة جديدة لضبط السلوك، او كنتاج لتغير اما فى بناء فرعى معين او جانب من جوانب الوجود الاجتماعى او البيئة الطبيعية ويرى العلماء ان مصطلح التغير الاجتماعى قد حل محل مصطلحات اخرى مثل التطور والنمو.

فهو اما ان يتسخدم كبديل محايد لفكرة التقدم او ان يستخدم استخداما احصائيا يجعل من التغير تصورا كميا خالصا. وفرق العلماء بين التغير الاجتماعى والتغير الثقافى باعتبار ان الاخير يشير الى الوسائل الفنيه فقط، وكذلك بين التغير الاجتماعى والنتائج او الاثار الاجتماعية ويقصد بها التاثيرات التى تحدث لجانب معين من الحياة الاجتماعية، وهكذا يصبح مصطلح التغير الاجتماعى مقصورا على التحولات التى تطرا على علاقة الانسان بالانسان ويفهم جينزبرج التغير الاجتماعى بوصفه تغيرا فى البناء الاجتماعى مثل حجم المجتمع، وتركيب القوى والتوازن بين الاجزاء او نمط التنظيم، اما روس فيعنى بالتغير الاجتماعى التعديلات التى تحدث فى المعانى والقيم التى تنتشر فى المجتمع او بين بعض جماعاته الفرعية.

يتضح من العرض السابق أن فكرة التغيير الاجتماعي لا تصلح لأن تكون هدفا لعلم النفس الاجتماعي، فهي اطار شامل أوسع بكثير من مجال هذا العلم وتحتوى عددا كبيرا من العلوم الانسانية كالاقتصاد والاجتماع والسياسة والانثروبولوجيا والتاريخ، وهي بذلك تعتبر بديلا لأفكار شاملة تخترق جميع العلوم مثل التطور، وتنتمي في النهاية الى وجهة النظر التي ترى قيام منظور موحد للعالم ولموقع الانسان فيه.

لكن علم النفس الاجتماعي لا يمكن أن يكون "اجتماعيا" الا اذا درس سيكولوجية الطبقات الاجتماعية الكبرى. فالسمات ذات الدلالة الاجتماعية النفسية للانسان تنشأ على الأساس الاجتماعي الكبير، ومهما كان دور الجماعات الصغيرة كبيرا، فان هذه الجماعات لا تضع المعايير والقيم والاحتياجات الاجتماعية، اذ أن تلك الأشياء وغيرها من عناصر وجود المجتمع تنبثق من التجربة التاريخية للفئات الكبيرة في المقام الأول (الأمم والشعوب). ولكن هذه التجربة التي تعمم عن طريق الايديولوجيا والثقافة والاعلام تنتقل الى الفرد بواسطة الجماعة الصغيرة وما تقيمه من تواصل بين أعضائها. وهكذا نصل الى حل لهذه المشكلة .

نحن لانغفل اذن سيكولوجية الطبقات الاجتماعية، وانما نراها من خلال الجماعات الصغيرة ، ونحن لا نغفل دور المؤثرات الكبرى النابعة من انتماء الفرد الى طبقة اجتماعية ، كالايديولوجيا والرأى العام ووعى الفرد بخصائص واحتياجات طبقته، بل اننا نرى أن دراستها من خلال الجماعات الصغيرة ومن خلال عمليات التواصل ستكون أقرب الى الواقعية وتمكننا من الدراسة العلمية والتجريبية لخصائص تلك الجماعات .

صحيح أنه لا يجوز أن نضع في صف واحد جماعات مثل الأمة والطبقة والشباب وأصحاب مهنة ما وأعضاء مجلس ادارة شركة، الا أن الصفات المشتركة بينهم والنابعة من انتمائهم لتلك الجماعات الاجتماعية تتضح تماما خلال تفاعلهم وتواصلهم في الجماعات الصغيرة التي يمارسون فيها حياتهم اليومية .

وكما سبق لنا القول فان المسألة الأولى في علم النفس الاجتماعي هي المواءمة بين الاختلاف والاتفاق وتتجلى هذه الظاهره بأوضح ما يمكن في ديناميات الجماعة الصغيرة، أما الطابع القومي أو أنماط الشخصية الشائعة (البورجوازى ، المثقف، ...الخ) فهي مسائل لا يمكن اخضاعها للاختبارات والبحوث ولذلك فنحن لا ننكرها وانما ندرسها من خلال الجماعات الصغيرة. اننا ندرس علم النفس الاجتماعي انطلاقا من وحداته الصغرى لكي نصل الى فهم وحداته الكبرى.

* التيسير الاجتماعي :

لعل أحد المكتشفات الأولى في دراسة سيكولوجية الجماعات الصغيرة ، هي ظاهرة التيسير الاجتماعي والتي قامت بدور حجر الأساس في تحول الدراسة في علم النفس الاجتماعي من الجماعات الكبيرة الى الصغيرة ، بل وبينت من الناحية النظرية أن موضوع علم النفس الاجتماعي يجب أن يكون دراسة التيسير لا التغيير الاجتماعي.

فقد اتضح لـ.. تريبليت Triplitt وهو احد علماء النفس الامريكيين خلال فحصه لمعدلات سرعة المتسابقين فى ركوب الدراجات انهم يحققون سرعات اكبر، عندما كانوا يتنافسون مع بعضهم البعض، من تلك التى يحققونها عندما كانوا يتسابقون مع الساعة (أى يقارنوا سرعتهم بالوقت). وادت به هذه الملاحظة الى اجراء اول تجربة معملية فى علم النفس الاجتماعى، فقد جعل بعض الأطفال يديرون عجلة بأقصى سرعة ممكنة لفترة محدودة من الوقت، وكان كل منهم احيانا يدير العجلة بمفرده، واحيانا اخرى كان اثنان يعملان فى نفس الغرفة. وبينت النتائج أن الأطفال يحققون نتائج افضل عندما كان الآخرون يعملون نفس العمل على مقربة منهم Co-action من تلك التى حققوها وهم يعملون بمفردهم .

وتكررت امثال هذه التجربة بعد ذلك، حيث اتضح وجود ظاهرة التيسير الاجتماعى خلال "العمل معا" بين البشر، بل واكتشف ان مجرد وجود مشاهد سلبى أى متفرج ولا يقوم بنفس العمل كان كافيا لتيسير الأداء. فكان مجرد وجود مشاهدين للطلبة وهم يحلون مسائل الحساب نفس الأثر الميسر الذى حدث وهم يعملون معا. ولم تقف المسألة عند هذا الحد، ففى هذه التجربة البسيطة اتضح وجود عدد اكبر من الأخطاء فى حل مسائل الحساب اثناء العمل معا من تلك التى توجد خلال العمل الفردى. بعبارة اخرى لقد زادت كمية العمل ولكن قلت نوعيته. ولذلك ظهرت تفسيرات اخرى تشير الى وجود عوامل اخرى بالاضافة الى "العمل معا". واتضح من تجارب اخرى أن مشاعر المنافسة والاهتمام والحرص والقلق بشأن تقييم الآخرين تقوم بدور كبير فى حفز العاملين. وافسح مفهوم التيسير الاجتماعى مكانه ليحل محله مفهوم اوسع هو التفاعل الاجتماعى.

والتفاعل الاجتماعى هو التأثير المتبادل بين سلوك الافراد والجماعات من خلال عملية التواصل . وابسط تصور لهذا التفاعل هو ما ينبع عن الانسان من تصرفات نتيجة لتبادل التأثير بين قوى الفرد وقوى المجتمع وتكون الثقافة ذاتها ناتجا للتفاعل الاجتماعى ويطلق بعض الباحثين على هذا التفاعل مصطلح التفاعل الرمزى حيث انه يستند الى التواصل .

* من التيسير الاجتماعى الى التفاعل الاجتماعى :

الجماعات الصغيرة واقع عملى بالنسبة لعلم النفس الاجتماعى، فما هى الجماعة الصغيرة وما هى الجوانب التى يتعين دراستها فيها؟

لقد مر البحث فى خصائص الجماعات الصغيرة ودورها بالنسبة للفرد فى عدد من المراحل حملت كل منها شيئا جديدا لتفسير جوهر الجماعة الصغيرة ، حتى وصلت الآن الى مدى يمكن معه القول انها تشمل علم النفس الاجتماعى كله. وهناك جملة من الأسباب الموضوعية والذاتيه التى ادت الى ذلك، اولا: ازدياد تعقد وتركيب الحياة الاجتماعية وكثرة الجماعات التى ينتمى اليها الفرد خلال حياته وتعاظم دورها فى حياة الانسان .

ثانيا : أن الجماعة الصغيرة هى نقطة الالتقاء بين اهتمامات علم النفس وعلم الاجتماع، كما انها هى المجال القابل للدراسة وهى وحدة التحليل الأسهل والتى قدمت خلال بحثها الكثير من الأساليب التطبيقية والتجريبية المفيدة .

والمسألة الأولى فى بحث خصائص الجماعة الصغيرة هو تعريفها، وهناك تعريفات كثيرة يمكن تلخيصها فى التالى: الجماعة الصغيرة جماعة صغيرة العدد، يجمع بين اعضائها نشاط اجتماعى مشترك فى اتجاه هدف، وكذلك تواصل شخصى مباشر الأمر الذى يشكل الأساس اللازم لنشوء التفاعل والعلاقات الانفعالية والعمليات والمعايير. ويلح هذا التعريف الشامل على فكرتين هما التفاعل والمعايير، أو بتعبير آخر على تبادل المعلومات والمصالح والانصياع للقيم والمعايير. ويمكن تلخيص التعريف السابق فنقول أن الجماعة الصغيرة هى جماعة تأخذ فيها العلاقات شكل اتصالات شخصية مباشرة.

أما المسألة الثانية فهى الحجم أو العدد، وهناك جدل لا ينتهى حول الحدين الأدنى والأعلى لحجم الجماعة. وكما سبق لنا القول فهناك من يقول بأن الحد الأدنى هو ٢ والحد الأعلى لا نهائى. (ويطلق على الجماعة المكونة من فردين الثنائى Dyad) . ولكن هناك من يقول بأن الحد الأدنى لا يجب أن يقل عن ثلاثة Triad، وترى غالبية الباحثين أن الثلاثى يجب أن يكون الحد الأدنى للجماعة الصغيرة . أما من حيث الحد الأعلى فقد اقترح ميللر العدد السحرى وهو ٧ + ٢ (من ٩ الى ٥) وقد استقاه من دراسات الذاكرة حيث بينت البحوث أن عدد "قطع المعلومات" التى توجد فى الذاكرة فى وقت واحد يتراوح من ٩ الى ٥ .

الا ان هناك تباينا كبيرا فنجد هناك من يحدده بـ ٢٠،١٥،١٠ وعند مورينو يشير الى فئات من ٣٠ أو ٤٠ وعند أصحاب مدرسة التحليل النفسى لا يهم الحد الأعلى . وتشير بعض البحوث الى ان مفهومات ديناميات الجماعة المستمدة من جماعات صغيرة الحجم يمكن أن تطبق بنجاح على جماعات قد يبلغ عدد أفرادها مليونا. وعلى أى حال لا يجب الظن بأن ميدان ديناميات الجماعة قاصر على الجماعات الصغيرة دون سواها.

هذا من حيث الحجم، ولكن هناك أسسا كثيرة لتصنيف الجماعات الصغيرة قد تزيد على الخمسين، مثل مستوى التماسك، ودرجة توثق العلاقات بين الأعضاء، والتقارب المكانى، . الخ وأحيانا تصنف الجماعات وفقا لأهدافها أو وظائفها الاجتماعية ويرى كرتش وكرتشفيلد انه من المفيد أن نميز الجماعات السيكولوجية (أى الصغيرة) على أساس الحجم وفترة الدوام والشكلية (أى الرسمية وغير الرسمية)، وهما يشترطان أن يتوفر للجماعة السيكولوجية عاملان وهما :

أ - وجود كل الأعضاء كجماعة فى المجال السيكولوجى لكل فرد، أى ادراكها والاستجابة لها كجماعة .
ب - التفاعل الديناميكى بين مختلف الأعضاء.

وتكون الجماعة السيكولوجية عامة صغيرة الحجم نسبيا وفترة دوامها قصيرة نسبيا، وغير رسمية نسبيا. أما غير ذلك من الجماعات فيطلقان عليها المنظمات الاجتماعية ويعرفانها بأنها مجموعة خاصة من الناس تتوفر لهم خصائص معينة مثل: المقومات الثقافية كالشعارات والطقوس والملابس والمبانى واسم جماعى أو رمز وأنماط فعل مميزة ونظام عقائدى عام وأساليب وأدوات للتنفيذ والارغام.

ورغم انه من المهم التمييز بين هذين النوعين من الجماعات لأن لكل منهما تأثيره الخاص على سلوك الفرد. الا انهما يشتركان فى الكثير، فالجماعة الاجتماعية كالأسرة يمكن أن تكون فى أوقات معينة وظروف معينة كلا النوعين، فقد يكون لها شعاراتها واسمها ورموزها..الخ. والواقع كما سبق لنا القول انه يصعب أن نقيم حدا فاصلا بين الجماعات من حيث الحجم .

* التفاعل الاجتماعي :

ويدلنا البحث في مسائل التفاعل الاجتماعي (التواصل اللفظي وغير اللفظي - ادراك الانسان لغيره. التفاعل بين الثنائي - التفاعل داخل الجماعات الصغيرة - التنظيمات الاجتماعية - الفروق الفردية ومهارات التفاعل الاجتماعي - صورة الذات وتقديرها) على أن الفهم النفسي لطبيعة الانسان يجب أن يضع في اعتباره ما تم الكشف عنه في هذا المجال. وتدلنا هذه الكشوف على أن الأساس في النشاط الفردي هو البقاء على قيد الحياة في ظل أفضل ظروف ممكنة، وأنه لكي تبقى الجماعة وتستمر لابد من اشباع الحاجات البيولوجية، ولكي يبقى النوع لابد من قيام التعاون داخل الجماعة (سواء لدى الانسان والحيوان). أما عن الاستجابة للاخرين فهناك ميول فطرية لذلك ولكنها لدى الانسان تتطلب خبرة العيش في الأسرة لاكتمالها. وأن هناك نظامالللتواصل من الاشارات غير اللفظية ينقل المقاصد والنوايا والاتجاهات بين الأشخاص وانه لدى الانسان يوجد نظام اشاري شان هو اللغة وأن التفاعل يتم من خلال قناتين هما السمع والبصر مع تآزر كامل من النظامين اللفظي وغير اللفظي. وتتراكم انماط التواصل والتفاعل في كل ثقافة كجزء من الحل المشترك الذي تقدمه الثقافة للحالة الانسانية. وغالبا يضاف مكون أساسي آخر وهو احساس فطري أخلاقي نشأ للتحكم في العدوان داخل الجماعة، ولقد رأينا كيف ينشأ التعاطف لدى الأطفال وأن وضع وجهة نظر الآخر في الاعتبار مكون أساسي في التفاعل الاجتماعي. ويتخذ هذا الاهتمام بآراء الآخرين شكلا هاما آخر وهو أن صورة الانسان عن نفسه تعتمد اعتمادا كبيرا على استجابات الآخرين له وتؤدي الى نشوء سلوك تقديم الانسان لنفسه بحيث يثير سلوكا مواتيا في المواقف الاجتماعية التالية. وينشأ السلوك الاجتماعي كتيار متصل من الاستجابات المتكاملة تكاملا وثيقا والخاضعة لعملية تصحيح مستمرة نتيجة الفيدباك Feedback ويعمل وفقا لخطط واعية بدرجة أو بأخرى، وذلك في اطار قواعد منصوص عليها جزئيا ومستقاة من الثقافة.

ويؤدي هذ العتاد الذي وصفناه، والذي يرجع بعضه الى الفطرة وبعضه الى الثقافة المكتسبة، الى تكوين الروابط الشخصية، والجماعات الصغيرة والأنظمة الاجتماعية. فالعلاقات الثنائية بين الافراد جزء أساسي من الحياة الانسانية وهي تنشأ خلال عملية تدريجية من المحاولة والخطأ مؤدية الى نمط من التفاعل ملائم ومشبع للطرفين. ويتفاعل الناس في الجماعات الصغيرة وفي العائلة وفي العمل ومع الأصدقاء . وهنا تتعقد أنماط التفاعل وتقيم الجماعات نسقا ثابتا من المعايير وتوزيع الأدوار. وفي الجماعات الأكبر تصبح الأدوار مرسومة ويتبع التفاعل كله نموذجا مقررا يتعلمه الأعضاء الجدد وهو ما نسمية بالنظام أو البنيان الاجتماعي.

ولا يفوتنا أن نشير الى التفاعل الاجتماعي في الحياة اليومية للبشر، فقد تناولنا فيما سبق تأثير التفاعل في مواقف العمل وغيرها من المواقف الاجتماعية، ولكن لعل أكبر أثر للتفاعل هو ما نشاهده في الحياة اليومية. فالعلاقات مع الآخرين قد تكون مصدرا للرضى العميق وللتعاسة الشديدة، فالكثير منا يشعر بالوحدة والشقاء، بل وقد يصاب البعض بالأمراض النفسية لأنهم لا يستطيعون الابقاء على علاقات اجتماعية مستقرة بالآخرين. والكثير من الوقائع اليومية قد تكون عقيمة أو محرجة أو محبطة بسبب السلوك الاجتماعي غير اللائق. ونستطيع التخلص من الكثير من تلك الصعوبات بازدياد الفهم لمهارات التفاعل الاجتماعي والتدرب عليها.

ولعل الفائدة العظمى فى رأينا - التى يمكن أن تعود من دراسة علم النفس الاجتماعى وتجاربه - هى تعميم تلك الأساليب ووضعها فى خدمة من يحتاج اليها. وأفضل مكان لذلك هو المدارس والجامعات والمقررات الدراسية، فالكثير من الجهد يبذل فى تلك الأمكنة للتعامل مع العالم المادى بينما يوجه القليل من الجهد لفهم الناس وكيفية التعامل معهم .

ويبذل جهد كبير فى تعليم المهارات اللفظية بينما لا يبذل أى جهد لتعليم المهارات غير اللفظية. وكثيرا ما تخرج تلك المعاهد أناسا على قدر كبير من المهارات العقلية ولكنهم لا يستطيعون القيام بدور مفيد فى مجتمعهم بسبب عدم قدرتهم على التعامل مع الناس والمواقف الاجتماعية.

ولا شك أن نتائج البحوث فى مسائل التفاعل الاجتماعى ستساعد الناس على أن يقوموا بأعمالهم بطريقة أفضل وأن يكسبوا الأصدقاء ويؤثروا فى الآخرين. وقد تساعدهم على فهم الاخرين وتقديم المساعدة لمن يريدها منهم. والمعاناة النفسية هى جزء من حياتنا اليومية، ولا يوجد لدينا من الأطباء النفسيين من يفى بتلك الحاجة، ولا شك أننا سنعالج بعضنا البعض اذا ما كانت لدينا المهارات الاجتماعية اللازمة. ان اتقان أساليب التفاعل الاجتماعى سيزيد من امكانيات البشر فى الحياه المطمئنة .

* التفاعل الاجتماعى والحاجة الى الانتماء :

وتشترك الجماعات الصغيرة والكبيرة فى عدة ميكانيزمات نفسية تجعل من التمييز أو التفرقة بينهما أمرا ضئيل القيمة كما تجعل التعميم من الجماعات الصغيره الى الكبيرة أمرا مقبولا من الناحيتين النظرية والعملية. ولعل أهم تلك الميكانيزمات هو الحاجة الى الانتماء Affiliation. وهى حاجة من الحاجات الأساسية العشرين التى حددها هنرى موراى فى كتابه الشهير "استكشاف الشخصية" ١٩٣٨ ، ويكشف عنها اختباره المعروف TAT. وتتضح هذه الحاجه فى تصحيح الاختبار عندما تبدى شخصية أو أكثر ، فى القصص التى يضعها المفحوص عن الصور التى تقدم اليه ، تبدى اهتماما وقلقا بشأن "اقامة وتدعيم أو استعادة علاقة انفعالية ايجابية مع شخص آخر" ويوصف الناس الذين يحصلون على درجات عالية فى مقياس لقياس تلك الحاجة بأنهم "ودودين" دافئون، محط للثقة ، متكلمون ، مرحون ، طيبون، مخلصون، يبذلون العون، يمدحون الآخرين ، متقبلون ، وكرماء. وأظهرت بعض البحوث أن النساء يحصلن على درجات أعلى من الرجال فى هذا المقياس. وفى تجربة أخرى لقياس " العمل المفضل" ظهر أن المفحوصين ذوى الدرجات العالية فى "الحاجة الى الانتماء" يفضلون الأعمال التى تمكنهم من مساعدة زملائهم.

وتعتبر الحاجة الى الانتماء من المكونات الرئيسية للتفاعل الاجتماعى، ويرى أرجايل أن التفاعل الاجتماعى يتكون كلية من عناصر التواصل اللفظية وغير اللفظية ، الا أنه يذكر أن هناك مكونات أو عناصر أخرى لا تقل أهمية. وبين التحليل العاملى لعناصر التفاعل الاجتماعى أن هناك بعدين لأسلوب التفاعل هما الانتماء والسيطرة. وأن كلا منهما يحتوى عدة مكونات كما يتضح فى الجدول التالى :

السيطــــرة

حاجة ضعيفة الى الانتماء	حاجة قوية للانتماء
يحلل	ينصح
ينقد	ينسق
يرفض	يوجه
يحكم	يقود
يقاوم	يبادر
يتجنب	يطاوع
يقر	يوافق
يتنازل	يساعد
يتراجع	يتعاون
ينسحب	يتكرم

الاعتماد

(نقلا عن ارجايل - التفاعل الاجتماعى ١٩٦٩ - ص ١٣٢)

ومن الواضح ان الحاجة الى الانتماء والاحساس بالولاء يسرى مفعولهما فى الجماعات الصغيرة والكبيرة على السواء، ويجعل من التشابه بينهما وامكانية التعميم من احداهما الى الأخرى اساسا قويا لدراسة ديناميات الجماعة .

والأمر بالمثل فى بعض الميكانيزمات الأخرى كالحاجة الى الامتثال ونشوء التجاذب بين الأفراد أو ما نسميه بالألفة، واشتراك الأفراد بلا استثناء فى جماعات مرجعية واحدة ، كل هذه العمليات الاجتماعية النفسية واحدة فى الجماعات الكبيرة والصغيرة، فكل الناس يمتثلون عادة للاعراف والقوانين وهذا احد أسرار تماسك الجماعة، كما ان الافراد يتآلفون ويتجابون بصرف النظر عن طبقاتهم الاجتماعية، ويرجع كل الناس فى الأمور الدينية مثلا الى مفتى واحد بصرف النظر عن الجماعات التى ينتمون اليها .

ويترك علم النفس الاجتماعى مجال بحث خصائص الطبقات والأمم والأعراق الى علم الاثنوغرافيا ETHNOGRAPHY ، وهو علم دراسة الشعوب والمقارنة بين ثقافاتها، وقد برزت خلال البحث فى الخصائص النفسيه لمختلف الفئات العرقية، شعبة خاصة من الدراسة عند ملتقى علم النفس الاجتماعى والاثنوغرافيا هى سيكولوجية الأعراق Ethnopsychology، ويعتبرها بعض العلماء احد أقسام علم النفس الاجتماعى. ولا شك ان الطابع القومى او شخصية الجماعة هى جزء هام من هذه الدراسة، وهو الراى الذى يتبناه قدرى حفنى فى دراسته الشهيرة عن "الشخصية الاسرائيلية"*. لقد جمعت سيكولوجية الأعراق مادة هائلة وطريفة عن خصائص الناس وطباثعهم من زاوية انتمائهم لعرق او جنس

---

* قدرى حفنى "الشخصية الاسرائيلية" الطبعة الثانية دار الشايع للنشر الكويت ١٩٧٨م

او دين معين، ولكن المهم ان تلك الخصائص لا تتضح بصورة ملموسة قابلة للدراسة الا فى الجماعات الصغيرة. وقد سبق ان اشرنا الى مفهوم الشخصية الأساسية عند كاردينر وغيره من الانثروبولوجين الذى تأثروا بنظرية فرويد وكيف ان هذه الشخصية تنبع من اساليب التنشئه الاجتماعية. ولا شك ان ما نشاهده اليوم من تناحر عرقى فى يوغوسلافيا وانتهاء الاتحاد السوفيتى الى قوميات متناحرة يدعو اصحاب علم النفس الاجتماعى الى تعميق وتوسيع نظرتهم الى هذا الجانب من علمهم

" الفصل الخامس "

ديناميات الجماعة

* معنى عبارة "ديناميات"
* أسس ديناميات الجماعة
* ديناميات الجماعة وفهم سلوك الفرد
* فهم سلوك الجماعة
* أنواع الجماعات ومراحل نموها
* القيادة والأدوار
* الأسس العامة فى دراسة الجماعات الصغيرة

" ديناميات الجماعة "

* ما معنى عبارة ديناميات ؟

دخل هذا المصطلح بلفظه ومعناه الى علم النفس من علم الطبيعة (فرع الميكانيكا) . فالميكانيكا هي علم الحركة وتنقسم الى قسمين. الديناميكا وهى حركة الأجسام تحت تأثير قوى والاستاتيكا علم السكون. اى وضع الأجسام عندما لا تكون هناك قوى تحركها. وعندما أدخل فرويد الى علم النفس مفهومه عن تصرفات الانسان جعلها تنبع من صراع يقوم بين ثلاث قوى القوى الدافعة الغريزية وسماها (الهى) وقوى الواقع الاجتماعى (الأنا) وقوى القيم والمثل العليا (الأنا الأعلى) . وهكذا دخل مفهوم الديناميكا الى فهم الانسان. واصبحت كافة التصورات التى تنبنى على فهم السلوك بوصفه محصلة لصراع بين عدة قوى تسمى المفهوم الديناميكى وعربه أو استعربه البعض وحول الديناميكى الى دينامى. ولكن الأصح أن نقول ديناميكية أو ديناميكيات الجماعة ليعرف القارىء أصل الكلمة .

وعندما حدثت الطفرة فى علم النفس الاجتماعى باكتشاف فكرة الجماعات الصغيرة وتأثيرها على الفرد واتضح أن تأثيرها على الأعضاء هو تأثير ديناميكى أى أنه توجد بداخلها قوى متفاعلة تؤثر على سلوك الانسان واتجاهاته ومعتقداته ظهر تعبير ديناميكية الجماعات.

* وهناك عدة استخدامات لمصطلح ديناميكيات الجماعة أهمها :

١ - يستخدم هذا المصطلح بشكل عام ليشير الى تصرفات تحدث فى كل الجماعات فى كل الأوقات سواء كان المرء على وعى بها أم لا .
وهو بهذا يشير الى القوى المركبة التى تؤثر فى كل جماعة على امتداد وجودها والتى تجعلها تتصرف بالطريقة التى نلاحظها عليها. ولهذه القوى أوجه ثابتة وأخرى متحركة. الأوجه الثابتة مثل: اسم الجماعة وتركيبها وقانونها وأهدافها، أما الأوجه المتحركة فهى حركة الجماعة، انجازاتها تفاعلاتها وتغيراتها. وتتحدد طبيعة وحركة الجماعة بالقوى المؤثرة عليها من الداخل والخارج، والتفاعل بين هذه القوى ونتائجه هو الذى يشكل دينامية الجماعة. وبهذا الشكل يمكن أن نعتبر ديناميات الجماعة ظاهرة طبيعية لا يخترعها احد مثلها مثل ديناميات الشخصية .

٢ - يستخدم هذا المصطلح ليشير الى مجال معين فى دراسة سلوك الافراد والجماعات وهو الجماعات الصغيرة ويتميز ذلك المجال عن سلوك الجماعات الكبيرة كالطبقات الاجتماعية والفئات المهنية من حيث امكان دراسته دراسة علمية فى المعمل اذ يمكن جمع عدد صغير من الناس فى غرفة أو فى ظروف معينة وملاحظة سلوكهم. وهو أمر لا يتوفر فى حالة الجماعات الكبيرة .
لذلك تستخدم ديناميات الجماعة أساليب البحث المستخدمة فى كثير من فروع العلوم الانسانية مثل علم النفس المرضى وعلم الاجتماع والطب النفسى ويشمل مجال دراستها الظواهر التى تحدث فى الجماعات داخل المصانع والجيوش والمعاهد الدراسية والهيئات الاجتماعية والمنظمات ...الخ. وتسير فى عملها بالأسلوب العلمى من حيث وضع الفروض واختبارها باستخدام الملاحظة والطريقة المعملية واستخدام المقابلات والاختبارات والاستبانات .

٣ - يشير هذا المصطلح أيضا الى ما يمكن ان نسميه "بديناميات الجماعة التطبيقية" حيث يستفاد من كافة المفهومات النظرية التى تم استخلاصها من البحث العلمى فى تطوير عمل الجماعات المختلفة واستفادتها من تلك القوى فى تنمية عملها وتحقيق أهدافها ويتضح هذا بخاصة فى عمل القيادات العسكرية والسياسية ومجالس الادارات، من حيث الانجاز وتحقيق الأهداف وعقد الاجتماعات المثمرة والقيادة الفعالة......الخ .
ولا شك أن هناك علاقة وثيقة بين النظرية والتطبيق فى علم النفس الاجتماعى عموما ولكن تتجلى هذه العلاقة بشدة فى مجال ديناميات الجماعة أكثر من تجليها فى أى مجال آخر من مجالات علم النفس. اذ أنها تعطى اجابات مباشرة لمشاكل عملية يومية ملموسة فى مجال العلاقة بين الجماعات والافراد .

* أسس ديناميات الجماعة :

كانت الجماعات دائما ولا تزال وسيلة هامة جدا لتحقيق الأهداف الانسانية. أولا فى الاسرة ثم العشيرة والقبيلة والطائفة ثم الجماعه فالمجتمع والدوله، وكانت الجماعات ولا تزال تستخدم كوسيلة للحكم والقتال والعمل والابداع والعبادة والتعليم، ومنذ القدم وعن طريق المحاولة والخطأ اكتشف القدماء أن أساليب معينه لفعل الاشياء فى الجماعات تأتى بنتائج أفضل وبهذا تراكمت الحكم الشعبية عن أساليب اتخاذ القرارات وتقسيم العمل واختيار القادة ....الخ.

فى العصور القديمة - حيث كان الصراع على أشده بين الانسان وأعدائه كان الاهتمام الاكبر منصبا على تأكيد الخضوع للقيادة لا على تحسين قابلية أعضاء الجماعه للعمل معا بتعاون وابداع، ورغم أن الانسان عمل منذ نشأته على الأرض فى جماعات مختلفة فمن الغريب أن الدراسات العلمية المتعلقة بالمجموعات لم تظهر الا فى العصور الحديثة ومعظم الملاحظات المتناثرة التى اهتمت بهذا الموضوع فى العصور القديمة تتكون اما من أفكار حدسية أو من تعليمات بشأن قواعد سيطرة القادة على تابعيهم كما فى "كتاب الامير" لميكيافيللى.

وبعكس العمليات الطبيعية لم يبدأ الانسان فى الدراسة الجدية للجماعات الصغيرة فى حياته الا بعد أن كدس قرونا طويلة من التفكير فى النواحى الأكبر والأعظم شأنا من النظام الاجتماعى .

لقد اهتم فلاسفة الاخلاق اليونانيون والصينيون بظواهر السلوك فى التجمعات البشرية، وفى القرن السابع عشر نمت تيارات من "التفكير التأملى" عن الطبيعة الاجتماعية للانسان والعلاقة بين الافراد والتجمعات وأدى ذلك الى تكوين الأساس العقلانى للثورات التى اكتسحت أوربا وأمريكا أثناء القرنيين التاليين الثامن عشر والتاسع عشر .

ولقد ناقش المفكر الفرنسى أيميل دور كهايم الكثير من الأفكار المؤثرة عن عمليات التفاعل ووضع نظريته عن أن الأفكار الفردية تتحور فى عملية "التآلف النفسى-الاجتماعى" التى تحدث فى الجماعات وأن ما ينتج عن عمليات الجماعة لا يمكن تفسيره من خلال العمليات العقلية للفرد .

وفى بداية القرن العشرين تحدث بعض المفكرين مثل كولى وميد وزيمل عن عنصر "الضبط الاجتماعى" فى الجماعات الصغيرة مع الاهتمام الخاص بالشروط الاجتماعية التى تتفق فى ظلها دوافع الأفراد بصورة مؤثرة .

وفى بداية العشرينات ايضا تحدى ادوارد ليندمان الطريقة التأملية لمعظم الدراسات الاجتماعية عن الجماعة واقترح طريقة تجريبية لدراسة الجماعات الوظيفية انجزت أول محاولة على نطاق واسع للبحث فى عمليات الجماعة وسميت "التحقيق The Inquiry" والتى جاءت فى كتابه ،"التربية الاجتماعية" وقد ركزت طريقة التحقيق على العمليات التى تحدث فى اللجان والمؤتمرات الصغيرة التى تعقد لحل المشاكل الاجتماعية الكبيرة .

وتحت تأثير تحليل ديوى للفكر التجريبى ظهرت دراسات فى كيفية تحقيق الجماعة لأهدافها بواسطة المناقشة وأسلوب حل المشكلات .

وبدافع من هذه التيارات المنطقية والنفسية حددت فوليت من خلال عملها الواسع فى تشخيص المشكلات الانسانية فى السياسة والاقتصاد والخدمة الاجتماعية ، حددت نوعية وصفة وشروط الاشتراك فى الجلسات السياسية والاجتماعية والصناعية كموضوعات لدراسة عمليات وخبرة الجماعة . وبينت أهمية القيادة كوظيفة فى مقابل القيادة كمنصب أو كشخصية كما ركزت على السلوك المتكامل كوسيلة لحل الصراعات بطريقة خلاقة ولا يزال لهذه الافكار تأثيرها المستمر على دراسة وممارسة أساليب الجماعة .

بالاضافة الى هذه المؤثرات النفسية والمنطقية على الدراسات الجماعية بدأ فرويد فى العشرينات من هذا القرن البحث فى أصول تكوين الجماعات بتأثير من الأسس العميقة واللاشعورية فى بعض الاحيان وعمليات الضبط التى تمارسها جماعة الاسرة الأولى وركز فرويد على الجوانب الانفعالية لقيادة الجماعة وتكوينها أكثر من تركيزه على تنظيم الاعضاء فى عمل واع .

وظهر الاهتمام بمسالة القيادة اعتمادا على نظرية السمات وأيد الكثير من الباحثين وجهة النظر القائلة بأن هناك صفات شخصية معينة مثل الضبط الذاتى، الحس البديهى ،الحكم، العدالة ، الحماس ، الدقة ، المثابرة ، الشجاعة ، والحسم نجدها شائعة فى كل القادة الناجحين، ولقد أدت هذه الدراسات الى كم هائل من الأبحاث ولكن كان الاتفاق محدودا على هذه السمات العامة . وهناك دراسات تصف القيادة النموذجية فى المواقف الاجتماعية المختلفة مثل البيروقراطية ، اتحادات العمال، الأحزاب السياسية وهكذا.

وقد أفادت هذه الابحاث فى الالحاح على أهمية العوامل التى يحددها الموقف الاجتماعى.

وفى العقدين التاليين، الثلاثينات والاربعينات، ظهرت بوضوح توجهات محددة لدرسة الجماعات نجملها فيما يلى:

١ - اتجاه نظرية المجال :

وضع كورت ليفين " نظرية المجال لفهم سلوك الجماعة " ولقد وصل الى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٣٢ كمحاضر زائر فى ستانفورد ومكث فيها بعد أن جعل الانقلاب النازى عودته الى برلين مستحيلة. وفى عام ١٩٣٥ بدأ مع بعض طلاب الدراسات العليا فى عمل سلسلة من الدراسات عن السلوك الجماعى فى جامعة ايوا فى مركز أبحاث الطفل بها. وقد انتقلت هذه الجماعه الى معهد ماساشوستس للتكنولوجيا فى منتصف الاربعينات وهناك كون "مركز دراسات ديناميات الجماعة" فى هذا المعهد وبعد وفاة ليفين سنة ١٩٤٦ بنعام واحد انتقل هذا المركز ثانية الى جامعة ميتشيجان وقد كان لهذا المركز تأثير كبير على دراسة ديناميات الجماعة من خلال "نظرية المجال" .

وتفترض هذه النظرية، متأثرة بالفهم الجشطالتى، ان هناك مجالا نفسيا يعمل مثل المجال الكهرومغناطيسى فى الفيزياء وان هذا المجال يتكون من عدة قوى أو متغيرات تؤثر على سلوك الجماعة وان القوة النسبية لهذه المتغيرات تحدد اتجاه وسرعة وحركة الجماعة وعلى علماء الاجتماع أن يطوروا وسائل الملاحظة والقياس التى يمكنهم بها أن يحللوا هذه القوى وأن يحددوا القوانين التى تحكم عمل الجماعة.

ويقرر لفين أن الشىء المهم فى نظرية المجال هو طريقة التدرج فى التحليل فبدلا من التقاط عنصر أو آخر منعزل فى الموقف فان نظرية المجال تبدأ بالتعامل مع صفات الموقف ككل وبعد هذا تخضع عناصر وأجزاء هذا الموقف الاجتماعى للتحليل المتخصص وبهذا يمكن تفادى رؤية الموقف من زاوية واحدة، وكان يرى أنه لابد من التعبير الرياضى عن الموقف النفسى للتأكد من دقة المنطق وقوة التحليل والفكر المتخصص، وعلى هذا تتناثر المعادلات الرياضية والرسوم الهندسية فى كتاباته وكتب اتباعه . وعلى الرغم من أن ليفين هو الذى صك مصطلح ديناميات الجماعة فانه لم يقم بدراسات واسعة فى هذا المجال .

٢ - اتجاه التحليل العاملى :

يتمثل هذا الاتجاه فى أعمال ريموند كاتل ومساعدوه فى جامعة الينوى وفيه يتم تحديد الأبعاد الرئيسية فى الجماعات بواسطة التحليل العاملى، وكما قال كاتل، فاننا ندرس عددا كبيرا من الجماعات نخرج منها بعدد محدود من القواعد العامة المستقلة والتى يمكن بها وصف وفهم أى جماعه وقد ابتكر كاتل مصطلحات لوصف الجماعة استعاره من علم النحو وهو مصطلح Syntality أى التركيب ليشير به الى مجمل خصائص الجماعة مثلما نستخدم مصطلح الشخصيه لوصف الفرد ويعنى بهذا المصطلح تركيب الجماعة بما يشابه "موقعها من الاعراب" ويهتم كاتل بعوامل مثل الطاقة والقدرة والقيادة فى دراسته للجماعة . والتحليل العاملى أسلوب احصائى يفحص العلاقات الارتباطية بين عدد من المتغيرات ويستخلص ما بينهما من خصائص مشتركة بحيث يصل الى اقل عدد من العوامل تصف الظاهرة وتعبر عن حقائقها الأساسية، فستخرج معاملات الارتباط بين عدد من الظواهر كالتماسك والتفكك والقيادة... الخ ثم نستخلص من تلك الارتباطات عوامل هى ما يمكن أن نسميه بالقاسم المشترك الأعظم ونرتد بعد ذلك من هذه الصور الرياضية الرقمية لنرسم صورة واقعية لخصائص الجماعة .

٣ - اتجاه التنظيم الرسمى :

يهتم هذا الاتجاه أساسا بوضع فكر منطقى عن التنظيم وفهم طبيعة القيادة فى المنظمات الرسمية وقاد هذا الاتجاه س.ل شارتل وزملاؤه فى جامعة ولاية أوهايو وتركز أساليبه على ملاحظة التفاعل فى هذه الأنظمة والوصف التفصيلى لتركيبها .

٤ - اتجاه القياس السوسيومترى :

يتناول هذا الاتجاه الناحية الانفعالية لحياة الجماعة خلال التفاعل الذى يحدث بين اعضائها والذى يحدد مقدار جاذبية الجماعة ودرجة التماسك بين الأعضاء. واساس هذا الاتجاه هو المقياس الذى وضعه مورينو لقياس التجاذب والتنافر بين الأعضاء وفيه يسأل الاعضاء أى من الأعضاء الأخرين يمكنه أن يختاره أو لا يختاره كرفيق أو زميل فى عمل ما كالقيام بنزهة أو الاستذكار.... الخ . وهذا هو المقياس السوسيومترى، ثم تحلل العلاقات بين الاعضاء فى رسم يسمى السوسيوجرام الذى يوضح مكانات الاعضاء فهناك "النجوم" الذين يختارهم أكبر عدد من الأعضاء وهناك الخطوط التى توصل بين المكانات وتوضح مقدار التماسك .

٥ - اتجاه التحليل التفاعلى :

تطور هذا الاتجاه على يد روبرت ف . بيلز وزملاؤه فى معمل العلاقات الاجتماعية بجامعة هارفارد ويؤكد أن السلوك الظاهرى فى تفاعل الفرد مع الأخرين هو جوهر الدراسة الفعلية لقياس التفاعل فى الجماعات الصغرى وأدخل هذا الاتجاه استخدام جهاز التسجيل والنوافذ ذات الاتجاه الواحد لملاحظة الجماعة دون أى ازعاج .

٦ - اتجاه التحليل النفسى :

وهو الاتجاه المتأثر بنظرية فرويد فى النمو النفسى ودور العلاقات الانفعالية مع الأم والأب والاخوة ويلح هذه الاتجاه على العناصر العاطفية اللاشعورية أساسا وتأثيرها على نمو الشخصية وتقوم طريقة البحث فى هذا الاتجاه على تحليل الخبرات المسجلة بدقه ويتعامل هذا الاتجاه فى الأغلب مع الجماعات العلاجية .

٧ - اتجاه جماعات العمل الاجتماعى :

يتكون هذا الاتجاه تقليديا من تحليل التسجيلات القصصية لأعمال الجماعة واستخلاص التعميمات من سلسلة من تاريخ حالات الجماعات وقد اهتم هذا الاتجاه أساسا بتطوير الشخصية من خلال خبرة الجماعة برغم انها ليست علاجية. واهتم رواد هذا الاتجاه بالتجريب أكثر من الأبحاث وبالتالى فليست هناك كتابات نظرية كافية، وهناك اتجاه حديث بشأن توجيه ابحاث عمل الجماعة الى رصد تأثير بعض المتغيرات مثل القياده على عمل الجماعة وعلى نمو افرادها وذلك بدلا من وصف ما يحدث فى الجماعه فقط .

*** *** ***

ومن العلامات الرئيسية فى تاريخ حركة ديناميات الجماعة تأسيس "معامل التدريب القوميه" والتى تغير اسمها فيما بعد الى "معهد العلوم السلوكية التطبيقية" وقد تأسس هذا المعهد بقيادة ثلاثة من رفاق كورت ليفن هم كنيث بن وليلاند برادفورد وورولاند ليبيت وتحت رعاية مؤسسة التعليم الوطنى. وقد اصبحت معامل التدريب القومية مركزا لكثير من الابحاث والتجارب فى مجال ديناميات الجماعه واسهمت معاملها فى تكوين شبكة من المدربين الذين كانوا المصدر الرئيسى فى حركة التوسع الكبير فى التدريب على العلاقات الانسانية التى انتشرت بسرعة فى أنحاء الولايات المتحدة الامريكية وهناك مؤسسة شبيهه فى لندن هى معهد تافستوك التى كان لها تأثيرا مشابه فى بريطانيا ودول الكومونولث. وفى هذه الفترة أيضا صدرت عدة مجلات جيدة متخصصة بالكامل فى ديناميات الجماعة مثل "مجلة العلاقات الإنسانية" و "مجلة القضايا الاجتماعية" و "مجلة القياس السوسيومترى" .

* العصر الحديث :

فى الستينات والسبعينات تمددت وتشعبت الدراسات والاختلافات فى مجال ديناميات الجماعة وتميزت هذه الفترة بعدة توجهات منها انتشار النشاط التجريبى فى العديد من المعاهد والمراكز المتفرقة فى العالم ففى عام ١٩٥٩ كانت قائمة المراكز المهتمة بذلك لا تتعدى العشرة ولكن عام ١٩٧٠ انتشرت دراسه ديناميات الجماعة فى اقسام عديدة مثل اقسام علم النفس وعلم الاجتماع والتربية والخدمة الاجتماعية والطب النفسى وعلم الانسان وادارة الاعمال وهيئات الحكومة والمستشفيات ومراكز الصحة العقلية والاستشارية كل هذا بالاضافة الى المراكز المستقلة المختلفةز وظهر اتجاهان يحتوى كل منهما على تيارات متنافسة .

الاتجاه الأول يتعلق بالمنهج وهو تيار يركز على دقة القياسات الكمية والاحصائيات فى مقابل تيار معارض لتقنين ولا انسنة الانسان ويؤكد على التوجه الشامل الخلاق فى دراسة الانسان وبتاثير من هذا التيار تكونت "جمعية علم النفس الانسانى" سنة ١٩٦١.

وثانى الاتجاهين يتعلق بطبيعة الظاهرة فقد كان التأكيد السابق يتركز على سلوك الجماعات الصغيرة ومنه نشأت تيارات تدعو الى دراسة القوى الكامنة فى الفرد والقدرات الشخصية وفى المقابل هناك تيار لدراسة القضايا الاجتماعية الاكبر والتأكيد على ديناميات واستراتيجيات التغيير .

ومن السمات المميزة للفترة الحديثة تكاثر استخدام أساليب الجماعات فى التعليم والتدريب وبرغم أن المنافسة الاجتماعية هى تقليد ممارس منذ القدم الا أن حركة ديناميات الجماعة أفرزت أشكالا جديده من الجماعات مثل جماعات التدريب Training Groups وجماعات المواجهة Encounter Groups وجماعات التدريب على الحساسية Senstivity Training Groups وجماعات الماراثون Marathon Groups ومعامل العلاقات الانسانية Human Relation Laboratories جماعات العلاج الجشطلتى Gestalt Therapy Groups وجماعات الوعى الحسى Sensory Awareness Groups وجماعات الديناميكية الحيوية Biodynamics وانواع اخرى عديدة من الجماعات وتستخدم واحدة أو اكثر من هذه الجماعات التعليمية فى المناهج الأساسية لبعض الهيئات الحكومية والعديد من المدارس والكليات والكثير من مراكز الاعداد المهنى المختلفة .

" ديناميات الجماعة وفهم سلوك الفرد "

لما كانت الجماعات تتكون من عدة افراد فان فهم سلوك الجماعة لابد أن يسبقة فهم للسلوك الفردى والكثير من الابحاث فى سلوك الجماعة تهتم بالحصول على فهم أكبر لاسباب وديناميات سلوك الفرد فى الجماعة، ويستخدم أصحاب ديناميات الجماعة الكثير من المعلومات المتاحة عن السلوك الفردى من العلوم المهتمة بذلك مثل علم النفس الإكلينيكى والطب النفسى وغيرها .

ونقطة الانطلاق فى البحث عن القوى المختلفة التى تجعل الفرد يتصرف بطريقة معينة فى الجماعة هى معرفة ما هى الاسئلة التى ينبغى شرحها ثم معرفة كيف نشق الطريق فى هذا الكم من الكتب والدراسات فى العلوم ا لاجتماعية لتحديد الاجابات .

١ - تاريخ حياة الفرد :

ما هو تأثير الخبرات الماضية على الفرد ؟ تعطينا ابحاث مدرسة التحليل النفسي اجابات خصبة فى هذا المجال. ويعتقد التحليليون بأن القيم والمواقف والعادات التى تنمو من خلال الجماعة الأولى "الأسرة" تؤثر بشدة على مشاعر الفرد وسلوكه تجاه القائد والسلطة واعضاء الجماعة الحالية. فقد يفرغ الفرد انفعالاته التى تكونت مع اسرته الأولى فى الجماعة الحالية وقد يكون مستسلما او متمردا تجاه ممثل الاب فى الجماعة الحالية وربما يكون منافسا او متعاونا مع نماذج الاخ والاخت فى الجماعة وربما يشعر انه فى بيته فى جو دافىء ومتعاون او جو بارد ومتعارض، وفى جماعات اخرى تالية للأسرة الأولى يتعلم الفرد استجابات وانواع من السلوك قد يتكرر حدوثها فى المواقف المشابهه فى جماعات تالية لها.

وتشير هذه الابحاث التحليلية ايضا الى ان خبرات الماضى ينتج عنها ميول ثابتة فى الاستجابة للمواقف المشابهة بطريقة متسقة واشهر من درس هذه الحالات هو بيون الذى قال بأن ديناميات الجماعة تشمل : القتال - الهرب - المزاوجة - والاعتمادية، ففى حالة الشخص الذى لديه ميل قوى للقتال نجده يعبر عن عدوانيته فى المجموعة بسهولة فاذا كان ميله الاقوى للهرب نجده يتجنب بطريقة او باخرى الدخول فى التفاعلات واذا كان ميله الاقوى للمزاوجة نجده يعبر بسهولة عن مشاعره الدافئه تجاه الاخرين ورغبته فى الاقتراب منهم اما اذا كان ميله للاعتماد قويا فانه يميل للاتكال على الاخرين وطلب المساعدة منهم. ولكل فرد مجموعة ميوله الخاصة المكونة من درجات متفاوتة من كل هذه النواحى الانفعالية.

٢ - قوى الاحتياجات النفسية :

هناك نوع آخر من القوى التى تؤثر فى الفرد عند دخوله فى جماعة، فالاحتياجات الحيوية مثل الحاجة الى الطعام والماء والراحة والنشاط والجنس هى احتياجات معروفة لدينا جميعا ولكن هناك احتياجات اخرى معرفتنا بها اقل وهى الاحتياجات النفسية وقد كانت منذ القدم هدفا دائما لابحاث العلماء فى مجال العلوم الانسانية وقد تسمى هذه الاحتياجات بأسماء مختلفة ولكنها تدور حول معانى واحدة مثل الاحتياج للامان والحب والتقدير ومعايشة خبرات جديدة ....الخ.
وهذه الاحتياجات ليست لها نفس القوة عند كل الافراد ولا عند الفرد الواحد فى الأوقات المختلفة، فلكل فرد طابعه الخاص فى احتياجه النفسى فى وقت معين، علاوة على ذلك فان اساليب تعبير الفرد عن احتياج معين تختلف من شخص لاخر وحتى فى نفس الشخص فى الأوقات المختلفة فعلى سبيل المثال عند دخول فرد فى جماعة جديدة فانه يكون فى حاجة للاحساس بالامان وقد يظهر هذا الاحتياج فى شكل انسحابه من المشاركة فى التفاعلات او على العكس يظهر فى شكل كثرة الكلام كوسيلة للحماية .

ومن دراسة هذه الاحتياجات النفسية نجد انها لا تخضع لحكم الاخلاق. فليس من الممكن ان نلوم احدا على احتياجه للمعرفة تماما مثلما لا نستطيع ان نلومه على احتياجه للطعام، فاذا ادى به احتياجه للمعرفة الى سلوك مزعج للجماعة مثل استقطاب المناقشة او سلوك يلفت اليه الانتباه فان الخطأ هنا ليس فى رغبته - فكلنا لدينا الرغبة ف المعرفة - ولكن فى عدم الحصول عليها بطريقة مقبولة اجتماعيا .

وهذا بالطبع لا يعنى ان على الشخص العادى- غير المتخصص فى العلوم الانسانية - ان يتتبع احتياجات الآخرين المختفية وراء سلوكهم الظاهر ولكن بفهم هذه الدوافع يمكن لنا كافراد ان نصبح اكثر تحملا وقبولا لافعال الاخرين وبالتالى التعامل معهم بطريقة بناءة بدلا من النبذ والتوتر والابتعاد .

٣ - القوى المصاحبة للفرد : (الجماعات المرجعية)

يلازم كل منا في حياته اليومية عدد من "الجماعات غير المرئية" التي ينتمي اليها فقد يكون الفرد منا رجل اعمال أو مدرس أو ربة منزل أو أسود أو أبيض أو مسلم أو مسيحي أو ديمقراطي أو وفدي أو انتماءات أخرى عامة تميزه ولكنها غير محددة وغير منظمة تماما ولكن هناك جماعات اكثر وضوحا وتخصصا مثل الاسرة - الجيران - اتحاد الطلبة - جماعة العمل - وغيرها، تقف خلف كل فرد منا في مواقفه المختلفة وتدفعه لاتخاذ قرارات وتصرفات تتناسب معها وان كانت متعارضة في بعض الاحيان وعندما يتصرف الفرد فانه يتوقع الحكم والتقييم من هذه "الجماعات المرجعية"، أي التي يرجع اليها في حكمه على الأمور حسب أهدافها ومثلها وقيمها.

٤ - قوى الأهداف والمذاهب (الايديولوجيا) :

تجدد هذه القوى أهداف الفرد وقيمه ومثله ومدى ادراكه للواقع ومخاوفه ومدى رؤيته لماهيته وغايته "أي لما يكونه وما يريد أن يكونه" .

ورغم أن هذه القوى تنشأ من كافة المؤثرات الأخرى في حياه الفرد فان شكلها المتميز ينبع من طريقته في تركيبها سويا في نظام واحد متكامل. انها مغناطيس ارادته الخاصة ولها تأثيرها الحاسم على سلوك الفرد وتشير بعض الأبحاث الى انه اذا اتيح للفرد ان يتصرف بحريته فان سلوكه يكون مبدعا وبناءا الى أقصى درجة يقدر عليها وبالعكس فانه اذا وضع في موقف لا يتصرف فيه بحريته فانه يكون "مثيرا للمشاكل" وقد افاضت كتابات اريك فروم وديفيد رايزمان" الحديث في هذا المجال .

٥ - العمليات الداخلية :

من المدارس التي بحثت منذ القدم في السلوك الفردي، المدرسة الحتمية، وترى هذه المدرسة ان سلوك الفرد هو نتاج تأثير هذه القوى السابق ذكرها على الفرد في وقت معين وأن الفرد في الواقع ليس له سيطرة على سلوكه، ولكن يعتقد معظم علماء النفس الان أن هذه القوى تخضع لعمليات برمجه أو معالجة أو طبخ Processing من خلال بعض مكونات الشخصية مثل القيم والمثل والعادات والفكرة عن الذات ومخاوف الفرد وطريقة تفاعله ومستوى ذكائه، هذه المكونات توجه سلوك الفرد في الاتجاه الذي يتناسب مع اهدافه ومعتقداته.

" فهم سلوك الجماعة "

ما الذي يحدث عندما ينضم فرد له مجاله نفسي الى آخرين لهم مجالاتهم النفسية المتميزة؟ وكيف يصبحون جم لها مجالها النفسي الفريد؟ .

* ما هى الجماعة :

يختلف الكثير من اصحاب ديناميات الجماعة فى تحديد ما يميز تجمع الافراد حتى نسميه "جماعة" ومع ذلك فهناك قدر من الاتفاق على بعض الصفات التى تميز الجماعة وهى :

١ - العضوية المحددة "بالاسم والنوع والمهنة وغير ذلك".
٢ - الوعى الجماعى "يرى الاعضاء انفسهم كجماعة لها ادراك جماعى وتوحد واع بين الاعضاء" .
٣ - احساس بالهدف المشترك .
٤ - الاعتماد المتبادل فى اشباع الاحتياجات . يحتاج الاعضاء لبعضهم البعض لانجاز اهداف الجماعة .
٥ - التفاعل "اتصال الاعضاء وتأثيرهم وردود افعالهم تجاه بعضهم البعض" .
٦ - القدرة على العمل كوحدة واحدة او كفريق واحد .

فى حالة التجمع الذى لا يكون جماعة لا توجد اهداف مشتركة فكل فرد له هدف فى اتجاه مختلف وليس هناك حدود للتجمع وبالتالى لا يوجد الوعى او الادراك بأنهم جماعة وتكون العضوية غير محدودة وليس هناك خطوط للتفاعل والاعتماد المتبادل تربط الاعضاء ببعضهم وبالطبع لا يمكن لهم ان يعملوا كوحدة واحدة .

* بعض خصائص الجماعة :

هناك الكثير من الجماعات التى ننتمى اليها مثل الاسرة ، العمل ، النادى، الاصدقاء المقربين وهكذا ، تشترك هذه الجماعات فى بعض الخصائص مثل :

١ - التاريخ المشترك :

قد يوجد للجماعة تاريخ مشترك او لا يوجد وهذا يؤثر على سلوكها ففى حالة الجماعة الجديدة نجد الاعضاء يبذلون جهدا كبيرا فى التعرف على بعضهم البعض والتعرف على هدف الجماعة ووضع الوسائل التى تجعلهم يعملون معا بكفاءة . اما فى حالة الجماعة التى مضى على تكوينها فترة من الزمن فانها تعرف ما الذى تتوقعه من كل عضو وما هى الاحتياجات المطلوب توفيرها وكيفية ذلك. ولكن قد تنمو فى هذه الجماعة بعض العادات التى تعوق كفاءتها مثل المجادلة الزائدة والسلبية وتضييع الوقت وكثيرا ما يحضر اعضاء الجماعة اللقاءات ولديهم بعض التوقعات فربما تكون لديهم دراية تامة بما سيحدث او تكون فكرتهم عن ذلك مشوشة وربما تكون رغبتهم قوية فى الاجتماع وربما العكس والاسئلة التالية تساعد على فهم الخلفية التاريخية للجماعة :

١ - الى اى حد تم اعداد الاعضاء لدخول الجماعة؟
٢ - ما هى توقعات الاعضاء عن الجماعة وعن دورهم فيها؟
٣ - ما هو تركيب الجماعة - نوعية اعضاءها - خبراتهم الماضية - نمط علاقتهم بالاصدقاء - وكيف اختيروا ؟
٤ - ما هى الترتيبات لاعداد اللقاء مثل اماكن الجلوس والادوات وغيرها؟

٢ - نمط المشاركة :

فى كل لحظة معينة يوجد لكل جماعة نمط خاص فى المشاركة ، على سبيل المثال المشاركة فى اتجاه واحد حيث يتحدث القائد للاعضاء كما فى المحاضرات او فى اتجاه ثنائى حيث يتحدث القائد للاعضاء ويتلقى منهم الردود او تكون متعددة الاتجاهات .
وتوضح العديد من الدراسات انه كلما زادت المشاركة بين اعضاء الجماعة زاد معها عمق الاهتمام بالجماعة والاندماج فيها .

٦ - المعايير :

تميل كل جماعة الى تكوين مجموعة من الاخلاقيات والمعايير عن السلوك المناسب والمقبول وعن الموضوعات التى يمكن مناقشتها والاخرى المحرمة وعن مدى الصراحة فى التعبير عن المشاعرومدى ملاءمة الاسهامات التطوعية ، والمدى المسموح به للحديث من حيث عدد المرات والمدة وما اذا كانت المقاطعة مسموحة ام لا ، كل هذا وغيره من القواعد والمعايير من المسموحات والممنوعات تصبح مغروسة فى الجماعة وقد يصعب على العضو الجديد ان يدركها وان ينسجم معها خاصة اذا كانت مختلفة عن المعايير التى عاشها فى جماعات سابقة او كانت غير ظاهرة وغير معروفة له قبل دخول الجماعة ، وفى بعض الاحيان تكون هذه المعايير غير واضحة لاعضاء الجماعة وقد تكون متضاربة مما يسبب الكثير من الاعاقة والتوتر .

* والاسئلة عن المعايير تتضمن :
١ - ما هى الدلائل التى تبين ان للجماعة دستورها الخاص من القيم مثل الانضباط الذاتى والاحساس بالمسئولية وتحمل الاختلافات وحرية التعبير وما شابه ذلك؟
٢ - هل هناك انحرافات ملحوظة عن هذه المعايير من واحد او اكثر من اعضاء الجماعة ؟
٣ - هل هذه المعايير مفهومة لدى كل الاعضاء ام هناك بعض التشوش ، وما تاثير ذلك؟
٤ - اى من هذه المعايير تساعد وايها تعوق تقدم الجماعة؟

٧ - النمط السوسيومترى :

فى كل الجماعات يميل الاعضاء الى تحديد افراد يحبونهم اكثر من غيرهم فى الجماعة وآخرين لا يحبونهم بنفس الدرجة او قد يكرهونهم. هذه العلاقة الدقيقة من الميل والنفور لها تاثير عام على نشاطات الجماعة . وتشير بعض الابحاث الى ان الناس يميلون الى الاتفاق مع من يحبونهم والاختلاف مع من لا يحبونهم حتى ولو كانوا يعبرون عن نفس الآراء .

* والاسئلة التالية تساعد على فهم واستكشاف النمط السوسيومترى:

١ - من هم الاعضاء الذين يميلون للاندماج وتدعيم بعضهم البعض؟
٢ - من هم الاعضاء الذين يبدون فى نزاع دائم مع الآخرين ؟
٣ - هل يعمل بعض الاعضاء كممثل لردود افعال فورية من الآخرين سواء كانت مؤيدة او معارضة ؟

٨ - البنية والتنظيم :

للجماعة تركيب منظم مرئى وآخر غير مرئى والتركيب المرئى يبدو رسميا مثل تحديد اعضاء اللجان والمناصب ووضع الحاضرين، او غير رسمى اما التركيب غير المرئى فهو من وراء الكواليس يرتب فيه الاعضاء حسب المكانه والتاثير والقوة والاقدمية والقدرات وما شابه ذلك:

* والاسئلة عن التركيب تتضمن :
- ما هو التركيب الذى تحدده الجماعةبصورة واعية مثل مناصب قيادة وفرق العمل واللجان ؟
- ما هو التركيب غير المرئى والذى يتحكم فى الوضع ويؤثر فى از الجماعة؟ من يخضع لمن ؟
هل هذا التركيب مفهوم ومقبول من كل الاعضاء؟
هل هذا التركيب مناسب لأهداف الجماعة ؟

٩ - الاجراءات :

تحتاج كل جماعة الى ان تستخدم بعض الاجراءات "طرق العمل" لتنفيذ الأهداف وقد تستخدم ترتيبات واجراءات محددة وصارمة كما فى اللقاءات الرسمية او تكون أقل صرامة كما فى الجماعات غير الرسمية، ويؤثر نوع الاجراء مباشرة على باقى نواحى الديناميات فى الجماعة مثل الترابط والمناخ والمشاركة وغيرها ويجب أن يكون هناك قدر من المرونة والابتكار لكى يسهل على الجماعة أن تختار الاجراءات التى تتناسب مع احتياجات المواقف المختلفة .

* والاسئلة التالية تساعد على فحص واختبار الاجراءات :
١ - كيف تحدد الجماعة أهدافها وجدول اعمالها ؟
٢ - كيف تصل الجماعة الى القرارات؟ بالاجماع أم بالتصويت أم الموافقة الصامتة؟
٣ - كيف تكتشف الجماعة وتستغل امكانيات اعضائها؟
٤ - كيف تعمل الجماعة على انسجام اعضائها وجماعاتها التحتية وانشطتها؟

١٠- الأهداف :

لكل جماعة أهداف سواء على المدى الطويل مثل تنمية البيئة أو المدى القصير مثل عمل بحث ميدانى عن مشكلة بيئية محدودة أو أهداف وقتية مثل تحديد المتحدث فى الجلسة المقامة. وفى بعض الاحوال تكون الأهداف واضحة ومحددة ومعلنة ولكن فى أحوال أخرى تكون مشوشة وعامة وغير واضحة .

وربما يشعر الاعضاء بالتزاماتهم تجاه هذه الأهداف أو ربما يسايرونهافحسب وبما أن أهداف الجماعة هى من أهم خصائصها كما سبق الذكر فى تعريف الجماعة فقد افاضت الكتابات فيها .

* والاسئلة عن الاهداف تتضمن :
١ - كيف تصل الجماعة الى أهدافها؟
٢ - هل هذه الأهداف واضحة لكل اعضاء الجماعة ؟
٣ - هل يلتزم كل الاعضاء بها؟
٤ - هل هذه الاهداف واقعية ويمكن تحقيقها بواسطة هذه الجماعة؟

* أنواع الجماعات ومراحل نموها :

القت الدراسات السوسيومترية الضوء على وجه آخر لخصائص الجماعة والتى تعطينا بدورها رؤية أوضح لوظيفتها. وتميز هذه الدراسات نوعيتين مختلفتين من الجماعات أولها جماعة غير رسمية ولها قواعد اجراءات قليلة جدا وليس لها أهداف محددة مثل جماعة النادى والمقهى ويطلق عليها اسم الجماعات النفسية . والعضوية فى هذه الجماعات اختيارية وتكوينها فى الغالب متناسق ويقاس مدى نجاحها بمدى كونها ممتعة لاعضائها وينتمى الناس اليها من أجل الاشباع العاطفى.

والنوعية الثانية هى الجماعات الرسمية مثل المجالس واللجان وجماعات المناقشة وفيها الاهداف معلنة والقواعد والاجراءات رسمية ويعتبرها المشتركون فيها جماعات لتحقيق هدف معين، وتسمى هذه النوعية بالجماعات الاجتماعية، ويميل تكوين اعضائها الى الاختلا تبعا للامكانيات المطلوبة لانجاز عملهم وفى الغالب يجمعهم الاحسا بأداء واجب ويقاس نجاح هذه النوعية بكمية العمل الذى تنجزه .

وهاتين النوعيتين من الجماعات تمثلان طرفى متصل يق بينهما الكثير من الجماعات التى تجمع بين بعض من صفات ونادرا ما توجد الجماعة النفسية فقط أو الاجتماعية فقط فكل مهما كان هدفها تحتاج الى البعد النفسى كالانتماء والاه والاندماج العاطفى وغيره والبعد الاجتماعى مثل الاستقرار والتحر

اتجاه الهدف واحساس الانجاز، فبدون هذا العمل وهذ الانجاز يشعر الاعضاء بعدم الاشباع وبالذنب لعدم قيامهم بأى عمل وبدون البعد النفسى يشعر الاعضاء بثقل الجماعة وبرودها وعدم الرغبة فى الاستمرار فيها .

وقد استخلص تاكمان (١٩٦٥) من استعراضه لعدد كبير من الدراسات التى تناولت مراحل نمو الجماعة فى علاقتها بانجاز أهدافها أن كافة الجماعات تمر بأربعة مراحل من حيث التكوين كما أن بناء الجماعة ونشاط تحقيق الأهدف يسيران فى خطين متوازيين وفقا للجدول التالى :

المراحل	بناء الجماعة	تحقيق الأهداف
Forming جس النبض	توتر وقلق-اعتماد على القائد - فحص الموقف واختباره لمعرفة طبيعته وأنواع السلوك الملائمة والمقبولة.	يكتشف الأعضاء ماهية المهمة الملقاه على عاتقهم وقواعد العمل والأساليب الملائمة .
Storming الاقتحام	النزاع بين الجماعات الفرعية والثورة ضد القائد استقطاب الآراء-مقاومة السيطرة - النزاع على العلاقات الحميمة	مقاومة انفعالية للمطالب التى تفرضها المهمة .
Norming الانتظام	نمو تماسك الجماعة - ظهور المعايير - التغلب على المقاومات وراب الصدوع - تبادل التعاون والدعم ونمو الاحساس بالانتماء للجماعة .	تبادل صريح للآراء والمشاعر - نمو التعاون .
Performing الانجاز	حل المشكلات التى تنشأ بين الأعضاء- تصبح تركيبه العلاقات بين الاعضاء هى ذاتهم الرئيسية فى انجاز المهمة وتصبح الأدوار مرنة وفى خدمة وظائف الجماعة.	انبثاق حلول للمشكلات محاولات بناءة لاتمام المهمة توفر الطاقات اللازمة للعمل الفعال وهى الفترة الأساسية فى النشاط .

وتختلف الجماعات فى كمية الوقت التى تستنفذه فى المراحل، فالجماعات التى تتكون بقصد البحث والمناقشة تستغرق عدة ساعات بينما قد تستغرق الجماعات العلاجية شهورا طويلة. وفى معظم الجماعات ينضم أعضاء جدد ويخرج أعضاء قدامى. وبينت بعض الدراسات أن العضو الجديد يمر بمراحل خاصة هى:

١ - ينصب اهتمامه أولا على اشباع الحاجة الأساسية التى أدت به الى الانضمام الى الجماعة.

٢ - الامتثال لمعايير الجماعة .

٣ - الاهتمام بنمط التفاعل الاجتماعى فى الجماعة ومتابعة أهدافها .

٤ - المشاركة فى القيادة والتفكير فى أهدافها بعيدة المدى. وعلى وجه العموم فانه فى المراحل المبكرة فى حياة الجماعة تكون المشكلة هى الوصول الى نوع من التوازن فى نمط التفاعل والعلاقات بحيث يصبح مقبولا من كافة الأعضاء وهو نشاط معادل لعملية التعلم بطريقة المحاولة والخطأ فى العلاقات الثنائية .

" القيادة والأدوار "

هناك وجه آخر فى حياة الجماعة له تأثير قوى على فهمنا لسلوك الجماعة وتشخيص مشكلاتها وتحسين عملها هذا الوجه هو الطريق الذى يتم به انجاز الوظائف فى الجماعة، وتنقسم هذه الوظائف الى نوعين :

أ - أدوار لبناء الجماعة والعمل على بقائها " وهى الوظائف التى تنمى العلاقات والترابط بين الاعضاء (البعد النفسى) ".
ب - أدوار لتحقيق هدف الجماعة "وهى التى تساعد الجماعة على انجاز عملها (البعد الاجتماعى)".
ويساعد الصنف الأول من الادوار على الحفاظ على وجود الجماعة واستمراريتها مثل :

١ - التشجيع "مثلما يحدث عندما يمدح احد الاعضاء الآخرين وآراءهم ويقبل اسهاماتهم ويكون متوددا أو متقبلا لهم" .
٢ - التوسط "محاولة تحقيق الانسجام والتوفيق بين الآراء المتعارضة واللجوء الى الحلول الوسيطة.
٣ - فتح باب المشاركة "بأن نجعل من الممكن للاعضاء الاخرين أن يساهموا فى الموضوع أو العمل المطروح بوضع وقت محدد لكل عضو فى حديثه حتى تتاح الفرصة للباقين".
٤ - وضع وشرح المعايير للجماعه .
٥ - مسايرة الجماعة "قبول آراء الاخرين والاستماع الجيد اثناء المناقشة".
٦ - تخفيف التوتر "بتحويل الانتباه عن الموضوعات الشائكة وتصريف المشاعر بالدعابات السلبية" .

* ويساعد الصنف الثانى من الادوار على حركة الجماعة فى اتجاه هدفها مثل :

١ - المبادرة "باقتراح افكار جديدة أو طريقة مغايرة لرؤية مشاكل واهداف الجماعة واقتراح انشطة جديدة ".
٢ - البحث عن المعلومات وطلبها من باقى الاعضاء .
٣ - اعطاء المعلومات ذات الصلة بالموضوع وعرض الخبرات المفيدة.
٤ - الادلاء بالآراء .
٥ - التوضيح "باستقصاء المعانى واعادة عرض الافكار الهامة".
٦ - التوسع فى تطوير الافكار المطروحة والبناء عليها واعطاء الامثله لها.
٧ - التنسيق "توضيح العلاقة بين مختلفة الآراء ومحاولة الوصول الى وجهات نظر واحدة" .
٨ - التوعية والتوجيه "تحديد مدى تقدم الجماعة فى المناقشة أو العمل فى اتجاه هدفها وهل تسير الجماعة فى اتجاه هدفها أم لا".
٩ - الاختيار "معرفة ما اذا كانت الجماعة مستعدة لاتخاذ أى قرار أم فى حاجة لمزيد من العمل" .
١٠- التلخيص "مراجعة محتوى المناقشة ككل والاستعداد لاتخاذ قرار أو الانتقال الى مهمة أخرى" .

هذه الوظائف لا تحدث كلها فى وقت واحد، واذا حدث ووجدنا أن الجماعة ليست كما يجب فى انجازها لأهدافها فان هذا يشير الى انه لا يوجد من يقوم بهذه الوظائف بكفاءة فى التوقيت المناسب. ويلاحظ أن بعض الاشخاص يميلون للقيام بوظائف معينة أكثر من الاخرى وقد تميزهم هذه الوظائف فى الجماعة ويميلون الى القيام بنفس الوظيفة فى كل جماعة. ومن الخطر المبالغة فى وصف أحد الاعضاء على انه "مصدر للمعلومات" أو "منسق" أو ما شابه ذلك لان الافراد يمكنهم ان يتعلموا أداء كل الوظائف المطلوبة عندما يكونوا على دراية بها.

وفى بعض الاحيان يمكن للمرء ان يلاحظ تصرفات لا تندرج تحت هذه الوظائف تكون فى الاغلب متمركزة حول الذات ويشار اليها فى بعض الكتابات بالدور اللاوظيفى هذه التصرفات لا تسهم فى عمل الجماعة ولكنها تشبع الاحتياجات الشخصية وقد تتعارض مع عمل الجماعة امثلة لذلك :

١ - الاعاقة "التدخل فى مسار الجماعة بطرح خبرات شخصية هامشية لا علاقة لها بمشكلة الجماعة ، والمجادلة الزائدة فى نقطة توصل فيها باقى الاعضاء الى حل، ونبذ الافكار دون تجربتها ومنع التصويت عليها".
٢ - العدوانية "نقد او لوم الآخرين، اظهار العداء تجاه المجموعة او احد افرادها بدون مبرر. التشكيك فى دوافع الاخرين والانتقاص من قدرهم" .
٣ - الاستعراض "لفت الانتباه بكثرة التحدث وبعرض افكار شاذة والتفاخر والصخب".
٤ - اسهامات خاصة به "طرح وتدعيم الافكار التى تعبر عن اهتماماته وطرح فلسفات غير منطقية والتحدث باسم الجميع مثل التحدث عن الانسانية" .
٥ - الانسحاب "السلبية واللامبالاه او العمل بصورة رسمية مبالغ فيها او الهمس للآخرين عندما لا تسير الامور على هواه" .
٦ - السيطرة "تأكيد السلطة فى تعامله مع الجماعة او احد افرادها وابراز مرتبته واعطاء توجيهات من اعلى.

ويؤدى ظهور هذه التصرفات الى توتر باقى الاعضاء ويميلون الى الرد عليها بالمثل او الى التراجع والسلبية فى الجماعة، ولكن على الجماعة ان تتعامل مع هذه الظواهر بطريقة بناءة بان تبحث فى نفسها وفى طريقة عملها عن اسباب ظهور هذه التصرفات والتى تعكس احتياجات نفسية مشروعة داخل الجماعة، وان تحاول مساعدة اصحابها على الاستبصار بها وادراك تأثيرها على اداء الجماعة بدون اتهامات او تهديدات .

* دور القيادة :

لم نميز فى تحليلنا السابق الوظائف القيادية عن وظائف الاعضاء لان الابحاث قد فشلت فى تحديد اى [illegible] ف لا يمكن لغير القادة القيام بها. (وفى الواقع توجد فى كل ج[illegible] [illegible]عرفها شخصية بارزة قد تسمى الرئيس او المدير او القائد او [illegible] وغير ذلك من الاسماء، وبعد فحص مختلف النظريات التى تشرح دور [illegible]د "يبدو لنا انه يجب على اى نظرية شاملة للقيادة ان تضع فى [illegible] ها الحقيقة القائلة بأن القيادة دور قد يرتبط بعوامل شخصية و [illegible] ف واحتياجات الاتباع فى وقت معين كما يرتبط ايضا بتركيب الجماعة [illegible]وقف ، والقيادة نتاج التفاعل بين هذه العوامل. وهناك امثلة [illegible] تجارب الكلاسيكية فى كتابات ديناميات الجماعة عن انماط القيادة

وقد اجرى ليبيت وهوايت ضمن برنامج ا[illegible] [illegible]ذى تراسه كورت ليفين فى جامعة ايوا فى الثلاثينات من هذا [illegible] تجربة اصبحت كلاسيكية اليوم فى انماط القيادة وكان هدفهم [illegible]س مدى تأثير الانماط المختلفة من سلوك القادة على بعض الجماعات التجريبية وتم اختبار ثلاثة انماط من القياده هى:

" الدكتاتورى "

١ - يقرر القائد وحده سياسة العمل .
٢ - املاء الخطوات واوجه النشاط على ان تعلن خطوة واحدة فى الوقت الواحد ، ولا يكون لدى الجماعة اى معرفة بالخطة كلها.
٣ - يعين القائد الأعمال وزملاء العمل .
٤ - يوجه القائد مدحه ونقده من وجهة نظر شخصية اكثر منها موضوعية ، ويبقى بعيدا عن المساهمة مع الجماعة الا اذا استثنينا أوقات الايضاح.

" الديمقراطى "

١ - تتقرر السياسة عن طريق تبادل الراى بين الجماعة وما تتخذه من قرارات مع تشجيع القائد ومساعديه .
٢ - مناقشة الخطة الشاملة والخطوات للوصول الى اهداف الجماعة.
٣ - تقوم الجماعة بتعيين الأعمال، ويختار الأعضاء زملاءهم فى العمل.
٤ - توجيه القائد للوم والنقد على اساس موضوعى لا شخصى، ويحاول القائد ان يكون عضوا فى الجماعة دون ان يشترك كثيرا فى العمل.

" الاعتباطى"

١ - الحرية التامة للجماعة فيما يختص بسياستها بأقل مساهمة ممكنة من جانب القائد .
٢ - يساهم القائد بتوفير المواد، ويذكر انه سيمدهم بالمعلومات حين يطلب منه ذلك، ولكنه لا يؤدى اى دور آخر فى نشاط الجماعة.
٣ - لا يساهم القائد باى شكل فى تعيين الاعمال او مقارنة العمل .
٤ - ليس هناك اى محاولة لتقدير نشاط الجماعة او تنظيمها.

* آثار الأجواء الثلاثة :

لقد ادى الموقف الدكتاتورى الى نوعين واضحين من الاستجابة : نمط مستسلم أو خاضع ونمط عدوانى. واظهرت المجموعة الخاضعة اعتمادا كبيرا على القائد، ولم تبد اى استعداد للبدء فى العمل. من الناحية الأخرى، نجد ان الجماعة العدوانية اظهرت ما يدل على الصد والحرمان مع توجيه جزء من هذا العدوان نحو القائد.

اما الناحية المعنوية بمعنى التجاذب التلقائى بين افراد الجماعة، والعمل معا نحو هدف مشترك والاحساس بالشعور بالـ "نحن" فكان اكثر ما يكون فى الجماعات الديمقراطية. ففي الجماعات التي كانت تعمل في جو ديمقراطى، كانت نسبة استعمال "نحن" الى "انا" اكبر مما فى المجموعة الاعتباطية او من مجموعة النظام الدكتاتورى بنوعيه، كما ان الجو الديمقراطى كان ينطوى على ود اكثر وتذمر اقل.

وكانت حدة الطبع والعدوان نحو الزملاء من الاعضاء تتكرر فى الجماعات الدكتاتورية والاعتباطية اكثر منها فى الجو الديمقراطى. وظهر فى السلسلة الأولى من التجارب فى الجماعة الدكتاتورية العدوانية توتر فيما بين الاشخاص مع الميل لتحميل بعضهم البعض الذنوب والأخطاء . وكانت الرغبة فى استرعاء انتباه القائد اكبر فى الجو الاجتماعى الدكتاتورى منه فى المواقف الأخرى. وفى المجموعة الخاضعة لوحظ ان الروح الاجتماعية العادية فى الاطفال قد ردعت بشكل ظاهر. وكانت تجرى بين الأطفال، الواحد مع الآخر، محادثات هامسة.

وقد اظهرت المجموعة الخاضعة فى الجو الدكتاتورى انها اقدر من الجماعات الأخرى على العمل المستمر، ذلك كان يحدث فقط أثناء حضور القائد. وحينما كان القائد يصل متأخرا، فان المجموعة الدكتاتورية لم تظهر أى استعداد لبدء أعمال جديدة أو مواصلة العمل، فى حين أن الجماعة الديمقراطية كانت تقوم بعملها وتستمر فيه حتى ولو لم يكن القائد حاضرا .

وقد أدى الموقف الدكتاتورى الى ايجاد روح معنوية ضئيلة فى الجماعة، وهذا يرجع جزئيا الى أن المكافآت لم تأت من النشاط ذاته، ولكن من مدح القائد . أما فى الموقف الديمقراطى فكان المدح يأتى أيضا من جانب الزملاء.

وهكذا نجد أنه فى الجماعة الدكتاتورية، كانت توجد منافسة انانية لنيل استحسان القائد، ومدح أحد الأعضاء معناه فشل الآخرين مما كان يساعد على هدم التوحيد أو التطابق الاجتماعى .

وتؤيد الكثير من الابحاث التى اجريت منذ الحرب العالمية الثانية وجهة النظر القائلة بأن مواقف معينة تحتاج الى القيادة الدكتاتورية وأخرى الى القيادة الاعتباطية وان كانت الجماعات تزدهر على المدى الطويل فى الاحوال العادية عندما تكون القيادة ديموقراطية يشترك فيها كل أعضاء الجماعة.

* الجماعة كائن متحرك "حركة الجماعة" :

فى دراستنا للعوامل المختلفة التى تؤثر على الجماعة كنا ننظر للجماعة وكأنها كيان ساكن فى الزمان والمكان وهذا لا يحدث فى الواقع فالجماعة دائما فى حالة حركة وتفاعل داخلى ولكن لاغراض الدراسة فقط يتم هذا الفصل بين العناصر .

ويوجد نوع من الاتفاق العام بين أصحاب ديناميات الجماعة على أن الجماعات تمر بمراحل نمو أثناء دورة حياتها يمكن لنا أن نتنبأ بها. وهناك العديد من النظريات التى تشرح هذه الاطوار والمراحل ويلاحظ انه برغم تركيز النظريات على قضايا مختلفة فأنها جميعا تشير الى ظواهر متشابهة تحدث فى المراحل الأولية والمتوسطة والنهائية من نمو الجماعة .

* الأسس العامة فى دراسة الجماعات الصغيرة :

تمدنا دراسات ديناميات الجماعة ببعض القواعد التى تفسر الاسباب والنتائج وتمكننا من الفهم والتنبؤ والتطوير لسلوك الجماعة وبالطبع من المستحيل أن نلخص كل ما كتب عن ذلك ولكن سنسرد بايجاز بعض القواعد العامة البارزة فى حياة الجماعة.

١ - يميل الفرد الى الانجذاب الى الجماعة والانتماء اليها عندما يتوفر فيها الآتى :
   أ - امكانية اشباع احتياجات الفرد ومساعدته على تحقيق الاهداف الحيوية بالنسبة له .
   ب - عندما تلائم مزاجه الشخصي وطباعه .
   ج - عندما تمده باحساس بالتقبل والامان .
   د - عندما تكون الجماعة موضع تقدير العالم الخارجى .

٢ - يميل كل فرد الى الاحساس بالالتزام بقرارات أو أهداف الجماعة حسب مدى مشاركته فى وضعها .
٣ - تعتبر الجماعة وسيلة فعالة لاحداث التغيير والنمو فى الافراد عندما يتوفر فيها الآتى :
أ - الاحساس العميق من الاعضاء المؤثرين والمتأثرين بالانتماء الى نفس الجماعة .
ب - تفوق جاذبية الجماعة على آلام التغيير .
ج - احساس مشترك من كل الاعضاء بأهمية التغيير .
د - مشاركة من كل الاعضاء فى اعطاء المعلومات ووضع الخطط وتحمل نتائج التغيير.
هـ - اتاحة الفرصة للاعضاء لقياس مدى التقدم نحو الاهداف.
٤ - لكل فعل رد فعل وبالتالى فمن الافضل اذا اردنا التغيير ان نضعف القوى التى تقاومه بدلا من اضافة قوى جديدة فى اتجاه التغيير، فمثلا اذا قاومت مجموعة فى مصنع اجراءات عمل جديدة فربما يحدث ذلك لانهم لم يفهموا كيف تعمل هذه الاجراءات وفى هذه الحالة فان تأثير اجراء تجربة عملية يفوق بكثير زيادة الضغوط عليهم لقبول هذه الاجراءات .
٥ - كل جماعة لديها القدرة على تحسين اداءها طالما أنها تختبر بصورة واعية عملياتها ونتائجها ويسمى ذلك فيدباك Feedback.

٦ - كلما ازداد فهم الفرد للقوى التى تؤثر على سلوكه وعلى الجماعة كان اسهامه اكثر ايجابية وكان اكثر قدرة على الحفاظ على تكامله فى مواجهة الضغوط التى تفرض عليه .

٧ - يمكن تقليل قوة الضغوط التى تفرض الطاعة والتكيف على الفرد بالعوامل التالية :
أ -قوة جذب الجماعة للفرد .
ب - مدى أهمية الموضوع الذى يتطلب الطاعة .
ج - درجة عدم الاعتراض فى الجماعة لطلب الطاعة (ضغط الجماعة).
٨ - العوامل التى تحدد مدى فعالية الجماعة تشمل الآتى :
أ - مدى وضوح الأهداف .
ب - مدى قدرة هذه الأهداف على تحريك طاقات الاعضاء لدفع وتحقيق هذه الأهداف .
ج - مدى الاتفاق أو الصراع على أولوية الأهداف .
د - مدى الاتفاق أو الصراع بين أعضاء الجماعة على الوسائل التى تتحقق بها هذه الاهداف .
هـ - مدى توفير الامكانيات المطلوبة لتحقيق الاهداف مثل التمويل والادوات والاجراءات وغيرها .
و - درجة التنسيق بين نشاطات الاعضاء ككل فى خدمة هدف الجماعة .
ن - مدى تناسب الجماعة مع هدفها.
ى - مدى اتساق عمليات الجماعة مع أهدافها ومراحل تطورها.

" الفصل السادس "

نظرية واحدة أم نظريات متعددة ؟
محاولة للتوليف النظرى

* التحليل النفسي: بناء الجماعة عند فرويد.
* المجال الدينامى عند كورت ليفين .
* السوسيومترى: تماسك الجماعه عند مورينو .
* خاتمـــة .

" نحو نظرة ثلاثية الأبعاد لعلم النفس الاجتماعى"
"نشوء الجماعة وتفاعلها وتماسكها"

لكى نفهم ديناميات الجماعة يجب ان يكون لدينا تصور عن سبب نشوئها وهو ما يمدنا به الفهم الفرويدى ومدرسة التحليل النفسى لنشوء الجماعة. ويكمل هذا التصور فهم للقوى المؤثرة فى الجماعة اى قوى التماسك والتنافر وهو ما توفره لنا سوسيومترية مورينو. وان يتم ذلك التفاعل فى اطار المجال النفسي الاجتماعى للفرد كما تصوره كورت ليفين. والنظرات الثلاث مرتبطة متماسكة تخلق اساسا موحدا نظريا لعلم النفس الاجتماعى.

* اولا : التحليل النفسى وبناء الجماعة :

اعتبر سيجموند فرويد ان سيكولوجية الجماعة تسبق سيكولوجية الفرد وافترض ان القطيع الأول Primal Horde او الجماعة الأولية هى اول وحدة اجتماعية - سياسية. وان الحالة التى تسبق ذلك، او ما يسمى بالحالة الطبيعية للانسان، هى حالة من عدم الاستقرار وعدم وجود سلطة او قيادة.

واقدر من استبصر بهذه الفكرة بعد فرويد هو المحلل النفسى البريطانى ويلفريد بيون حيث قال " الفرد حيوان جمعى ، فى حرب مستمرة لا مع الجماعة ولكن مع نفسه لكونه عضوا فى جماعة، وكذلك مع تلك الجوانب فى شخصيته التى تملى عليه هذه الميول الجمعية " .

وهذه الفكرة هى الأساس الذى تقوم عليه مساهمة التحليل النفسى فى ادراك تأثر الفرد بالجماعة. وهى لا تعنى أن الجماعة تنبثق من الأفراد الذين يكونونها وانما تعنى أن هناك جوانب من سلوك الفرد لا تظهر أو تتبين الا عندما يوجد الفرد فى جماعة.

ان القول بأن سيكولوجية الجماعة تأتى فى البدء يعنى ببساطة أن تلك الجوانب من الطبيعة الانسانية التى تتضح أول ما تتضح فى الجماعة أهم فى تفسير سلوك الجماعة من تلك الجوانب المألوفة فى نفسية الفرد. بعبارة أخرى - كما يفترض بيون - أن التوجه النفسى الجمعى للفرد عادة ما يكون فى حرب مع نفسيته الفردية. فاذا ما اختزلنا أو رددنا كل ما هو نفسى الى الكيان النفسى الفردى فقط فسنفقد جوهر المسألة (أى تأثير الجماعة) واذا ما ركزنا على الجماعة واعتبرنا أن لها حياتها النفسية الخاصة فان ذلك لا يعنى انكار الوجود الفعلى للأفراد فيها.

" ما هى الجماعة "

لم يكن فرويد واضحا فى مسألة ما هو عدد الافراد الذى يكون الجماعة . ففى كتابه "سيكولوجية الجماعة وتحليل الأنا" تناول بشىء من التفصيل الحشد، أى الجماعة التى تلتصق ببعضها ولو لفترة قصيرة بدافع المصلحة مثلا. ولكنه اهتم أيضا بالجماعات المنظمة كالجيش والكنيسة. ولقد سار البحث فى سيكولوجية الجماعة منذ فرويد على ذلك النهج أعنى أنه اعتبر الجماعة هى أى تجمع ابتداء من الاثنين الى جمهور المشاهدين فى مباراة كره القدم الى آلاف الأعضاء فى المؤسسات البيروقراطية الى الأمم والدول. ورغم ذلك الكيان الفضفاض يظل الأساس النظرى واحدا وهو أن القواعد العامة لسيكولوجية الجماعة واحدة فى كل الحالات .
والحقيقة أنه لا الدولة - الأمة ولا المجتمع المدنى جماعة فى واقع الأمر ، انها نوع من التجريد. فالدولة - الأمة تضم جماعات عرقية وفئات وطبقات متباينة. والدولة الحديثة (الأمة) بما تحتويه من تنظيمات وفئات اقتصادية واجتماعية وعقائدية انما هى عدة تجريدات. ومع ذلك فان قواعد علم النفس الاجتماعى يمكن استخدامها لفهم كل فئة على حدة، ولا يترتب على هذا اعتبار الامة أو المجتمع جماعة واحدة بل الأقرب الى الواقع أن نعتبرها سلسلة من الجماعات الصغيرة المتغيرة المتحولة التى لا تثبت على حال والتى تتبادل فيما بينها التحالفات والتعارضات. ان أى محاولة لفهم تلك الجماعات يجب - كما يبدو لنا - أن تضع فى اعتبارها ديناميات الجماعات الفرعية (الصغيرة) وكذلك العلاقات بين القادة والأتباع. بعبارة أخرى بينما لا تكون الأمم المجتمعات جماعات، فان عمليات الجماعة الصغيرة تؤثر فيها لأن تلك العمليات تفعل فعلها فى كل مكان يحدث به تجمع انسانى.

" ما الذى يربط الأفراد بالجماعات "

افترض فرويد أن ما يربط الفرد بالجماعة هو توحد الأفراد بالقائد فالتوحد بالقائد يساوى التوحد بالاب. والمعنى هو أن "القائد - الاب" يعمل على تخفيف القلق والتوتر بين الأعضاء عن طريق أن يعمل كأب وراع للجماعة. ولقد توسعت ديناميات الجماعة فى هذا المفهوم فرات أن ما يوحد الجماعة هو اشتراكها أيضا فى ميكانيزمات دفاعية واحدة ضد القلق والتوتر. فالأعضاء ، يتوحدون ببعضهم البعض لا بسبب اشتراكهم فى الخضوع لقائد واحد فى المقام الأول وانما بسبب اشتراكهم أيضا فى نفس الدفاعات ضد القلق .

ولكن القلق حول ماذا؟ من زاوية ديناميات الجماعة فان أعظم قلق ينتاب الأعضاء هو بشأن الجماعة نفسها. هل هى جماعة جيدة تستحق الانتماء اليها؟ هل تحمى أعضاءها هل تستطيع تحقيق أهدافها وتجعل الأعضاء فخورين بالانتساب اليها وتعطى معنى وهدفا لحياتهم؟ .

ومن الواضح أن الأعضاء سيعانون ذلك القلق بدرجات متفاوتة نظرا لاختلاف درجة الارتباط بالجماعة وكذلك لاختلاف درجات القلق لدى كل منهم ولكن الجميع سيساورهم القلق بشأن الجماعة ذاتها. وسيستخدم الدفاعات التى تقدمها أو توفرها الجماعة للتخفف من ذلك القلق أى سينطبع بطبع الجماعة ويتكيف معها. فالحقيقة أن الجماعة تساعد أعضاءها على أن يتحصنوا ضد أعمق أنواع قلقهم الشخصية. والقلق بشأن الجماعة هو تلخيص لكل تلك الأنواع، فأن يساور المرء ذلك القلق أمر يرجع الى كونه - كما يقول بيون - "حيوان جمعى" . وهذا القلق الاكتئابى جوهره الخوف من ألا تستطيع الجماعة أن تفى بما تعد به ، فلا تكون ناضجة بما فيه الكفاية أو ذات نفوذ بما يسمح لها أن تلم شتاتها وتتماسك لتسير الى تحقيق هدفها. ويسمى هذا القلق اكتئابيا، نظرا لما ينتاب الأعضاء من يأس بشأن قدرة الجماعة على تحقيق أغراضها. وعادة تعمل الجماعة على توفير الطمأنينة والتخلص من ذلك اليأس بالقاء اللوم على الآخرين. "فلولا ما تفعله تلك الجماعة الأخرى لوصلنا الى ما نريد" ....الخ .

وقد بينت البحوث أن هناك ثلاثة أنواع من الدفاعات توجد فى كل الجماعات تقريبا وهى : الانشقاق Splitting والتوحد الاسقاطى Projective identifcation، والانكار Denial.

* الانشقاق :

والنوع الأول هو اكثرها شيوعا وهو صورة من انقسام العقل الفردى على نفسه أو ما يسمى الصراع الداخلى ولكى تساعد الجماعة أعضاءها على التغلب على ذلك الصراع فانها تحتويه وتتيح له الظهور، ويتطلب ذلك أن تنقسم الى عدة جماعات فرعية (صغيرة) بحيث تتقابل تلك الجماعات وتتصارع مثلما تفعل أجزاء العقل المختلفة. فينسب أعضاء كل جماعة فرعية الى أعضاء الجماعات الأخرى الصفات والسمات غير المرغوبة وكل ما لا يريدونه فى أنفسهم. وكما نعلم فان أعضاء المجتمع مفطرون الى الانتماء الى جماعة أو الى أخرى أى أنهم فى الواقع لن يكونوا أبدا شخصيات مكتملة ، اذ يوجد جزء منهم فى كل الجماعات الأخرى .

* التوحد الاسقاطى :

وظاهرة كبش الفداء هى احدى الظواهر الجمعية المألوفة، حيث تتجسد فى جماعة صغيرة كل الصفات السيئة التى توجد فى الجماعة الكبيرة، وبذلك تضمن الجماعة الكبيرة (المجتمع) أن تبقى متطهرة خالية من العيوب - التى توجد فعلا فيها .

وغالبا ما نجد فى كل المجتمعات جماعة أو جماعات فرعية (الاقليات) تعزى اليها عن طريق التوحد الاسقاطى صفات الكسل والاجرام والبخل والغباء....الخ وقد بين لنا المحلل النفسى المعاصر والكاتب السياسى فاميك فولكان فى كتابه " الحاجة الى الحلفاء والأعداء" كيف أن الجماعات تحتاج أعداء تعزو اليهم ما فى نفسها من عدوانية وشرور عبر التوحد الاسقاطى. والى اصدقاء تتحالف معهم لتتخفف من القلق. ان الصراع مع الأعداء يجسد فى الواقع صراعنا النفسى الداخلى بين الخير والشر فى نفوسنا، حيث نخرج ما فى نفوسنا من شر فنجده فى الخارج بحيث يمكننا قتاله. ونهيب بالأبرار (الذين على شاكلتنا) أن ينضموا الينا فى القضاء على البغى والعدوان .

هذا هو ما تفعله الجماعات، انها تخفف القلق لدى أعضائها بأن تفصل أو تميز بين الخير والشر، فتجد الشر وتعزله فى مكان بالخارج، سواء فى جماعة فرعية ضعيفة، أو جماعة خارجية أخرى وتحتفظ بالنقاء والطهر فيها. الا أن ثمن ذلك الحل (لابقاء التماسك) باهظ فلن يواجه الأعضاء قط حقيقة موضوع قلقهم ولن يختبروا قدرتهم اختبارا واقعيا بأن يتحملوا المسئولية فى تحقيق رغباتهم ومخاوفهم.

ان الجماعة - كما يبدو - تدافع عن أعضائها بأن تجعلهم ينفذون (يصرفون) act-out قلقهم فى العلاقات بالجماعات الفرعية، مما يجعل أعضاء الجماعة فى انشغال دائم بهذا التصريف بحيث ينعزلون عن الواقع، فيخلقون صراعات وهمية وأعداء بلا مبرر بينما يتجنبون الأعداء الحقيقيين أو ينصرفون عن المهام الصعبة الملقاة على عاتقهم ذات الأجل الطويل والتى تثير القلق الاكتئابى.

الا أن هذا الوضع ليس من الضرورى أن يكون، اذ لو قيض للجماعة قائد أو زعيم يعمل على تجسيد قلقها بأن يسمى المخاوف بأسمائها الحقيقية لساعد الأعضاء على معرفة واقعهم بدلا من أن يحتوى قلقهم داخل الجماعة. ان القادة "الطيبين" هم الذين يبرزون المخاوف بشكل واقعى بحيث يربطون بين مخاوف وقلق الأفراد ومصادرها الفعلية بحيث يمكن معالجتها بدلا من أن نحصن أنفسنا ضدها بأن ندفن رؤوسنا فى الرمال.

* الانكار :

رأينا فيما سبق أن ديناميات الجماعة لا تعتمد كثيرا على فكرة التوحد بالقائد التي قال بها فرويد، الا أن ذلك لا ينفي اعتمادها على بعض آرائه الأخرى، ففي كتابه "الحضارة ومنغصاتها Civilization and its discontents" يرى فرويد أن غريزة العدوان وما تستثيره من قلق واحساس بالذنب هي المشكلة الرئيسية التي يجب على الجماعات أن تعالجها. وتؤيد البحوث هذه الفكرة، مثلما تؤيد ما ذهب اليه فرويد من أن الجماعات غير المنظمة تتميز باللاعقلانية والبعد عن اختبار الواقع. فيقول: "تتميز الجماعة غير المنظمة بأنها تصدق كل شيء بطريقة غير عادية، كما أنها تتقبل التأثير بسهولة فائقة، ولا تتمتع بأي حس انتقادي، ولا يوجد لديها ما يسمى بغير المحتمل أو غير المعقول. انها تفكر عن طريق الصور الذهنية وهي صور لم تخضع أبدا لأي اختبار أو فحص منطقي.. ان تلك الجماعة لا تعرف الشك أو عدم التأكد" ولقد درس "بيون" العشرات من الجماعات "بلا قائد" (وهي تجارب أجراها على جماعات لا قائد لها أو مهمة تقوم بها) ووصل الى نتيجة مشابهة فتلك الجماعات غير المنظمة (والتي سماها جماعات الافتراض الأساسي) تعمل كما لو لم يكن لديها شخصية أي وظائف للأنا فهي تكره أن تتعلم من الخبرة كما أن فكرة التقدم عن طريق بذل الجهد والمعاناة أمر لا يخطر لها ببال. ويبدو أن هدفها الوحيد هو "ممارسة" ميكانيزماتها الدفاعية البدائية ضد القلق، وهي دفاعات بدائية لدرجة أنها تتجاهل الواقع وتنكره.

ان طبيعة الانسان تتجلى في ذلك التوتر الحادث بين المهمة الظاهرة للجماعة والتي تتطلب احترام الواقع وحاجتها الكامنة الى حماية أعضائها من القلق والتي تتطلب غالبا انكار الواقع وتجاهله أو تشويهه وتحريفه. ان الحالة الطبيعية للانسان تدور حول الصراع الموجود في كل الجماعات (وغالبا في كل الأفراد) بين الرغبة في مواجهة الواقع والرغبة في الهروب منه. ويمكن لنا القول أنه كلما سعت الجماعة للهروب من الواقع (وبالتالي كلما أصبحت دفاعاتها بدائية كالتوحد الاسقاطي ونسب الشر الى الآخرين) زاد اقترابها من الحالة الطبيعية أي البدائية الأولية. ان الحالة الطبيعية هي وضع قد تنزلق اليه الجماعات الانسانية في غياب الحكومة والنظام. انها حالة تعتبر مكانا أو ملاذا بين انجاز المهمة والدفاعات. ونحن لا نستطيع افتراض أن الجماعة - خاصة الجماعات الكبرى غير المتجانسة - تعمل باعتبارها فردا كبيرا هائلا. اذ أنها على عكس الفرد لا مركز لها، أي لا يوجد بها ما يعادل الأنا في قيامها بوظائفها. وهذا يعني أنها تعمل عن طريق تعزيز الدفاعات البدائية لأعضائها، تلك الدفاعات التي تنشر القلق بدلا من تجميعه (الانشقاق والاسقاط) وهي طريقة أسهل بكثير من تلك الدفاعات الأكثر نضجا، تلك التي تعتمد على التكامل بين أجزاء العقل، كأن تقرب ذلك الجزء من العقل المعني بالقلق من الجزء الآخر المعني بالواقع. والحقيقة انه كلما زاد حجم المجموعة، وكلما تنوعت فئاتها وزاد تباين مصالح الجماعات الفرعية المتنوعة، زاد الاحتمال أن تلجأ الجماعة الى استخدام الدفاعات النفسية البدائية اذ غالبا ما ينقصها مركز يدير وظائفها. ان الأمم والمجتمعات - وهي بشكل ما أعقد منتجات البشرية - أميل الى أن تضع صراعاتها موضع "التفعيل".

هذا هو ما يحدث فى معظم الجماعات، انها تضع موضع "التفعيل او التنفيذ" الصراعات البدائية لاعضائها ومن ثم تعيد تمثيل او انتاج - فى العلاقات داخل الجماعة او فى العلاقات مع الجماعات الاخرى - الكثير من الصراعات التى نشات الجماعات لمعالجتها. ويعاد انتاجها او اخراجها فى كل جماعة وبواسطة كل جيل باعتبارها مخاوف لا شعوريه ودفاعات تتجسد فى الجماعات الفرعية وفى علاقاتها ببعضها البعض.

" ظاهرة القيادة : رؤية نفسية "

عندما تزلزل الشدائد كيان الجماعة فى حالة الحرب او الوباء، عندما يزداد عدد القتلى والخسائر كل يوم ولا تلوح فى الافق نهاية، فان الجماعة تهجر المتابعة المنطقية او العقلانية للمصالح الذاتية، اذ يزداد القلق بدرجة هائلة وتصبح الحاجة الى مواساة الوهم اعمق واعظم. وفى تلك الحالات لن يستمع الناس الا الى القادة الذين يعدونهم بتحقيق ما يريدون. وما يريدونه هو الاحساس بانهم اقوياء ولهم جاذبية ويستحقون الاعجاب ولكن دون بذل الجهد ودون القدرة على الانتظار وكبح الجماح وقبل هذا كله القدرة على تحمل القلق الاكتئابى وهى الصفات التى يتطلبها اى انجاز حقيقى. وكثيرا ما يحدث ان تظهر الدعوة الى الانتقام باسم الشرف. على ان هذا ليس هو السبب الوحيد الذى يجعل الجماعات ترفض القائد الحقيقى. ويقول بيون ان القائد ليس على وجه العموم تلك الشخصية المتميزة البارزة التى يظنها الناس بل الارجح انه غالبا ما يكون "اناء فارغا"، شخصية مطيعة تستطيع الجماعة ان تسقط عليها قلقها. (وملاحظة بيون هى مجرد ملاحظة عملية وليست تفسيرا (ولو ان لها ما يؤيدها). فالقادة قد يساعدون الجماعة على التماسك بدلا من احتواء قلقها الا ان ذلك نادرا ما يحدث. ولا يرجع ذلك الى ندرة القادة الجيدين ولكن لان الجماعة عادة ما ترفض التخلى عن دفاعاتها البدائية لأن التخلى سيزيد من قلقها.

وهناك نقطة اخرى، فغالبا ما يتخذ قلق الجماعة شكل اليأس، ويفهم خطأ على انه غضب، او انه يكمن خلف الغضب. ويصل اليأس الى درجة مؤلمة لدرجة انه قد يتحول الى نوع من البارانويا وينسب سوء حاله الى خبث الجماعات الاخرى، بدلا من ان يراه على حقيقته باعتباره مخاوف الجماعة وهلعها من الا تكون فى مستوى المسئولية وهو اقوى واشد المخاوف داخل الجماعة.

وعادة ما يعبر عن يأس الجماعة بالروح المعنوية فانخفاض الروح المعنوية هو علامة على اليأس، وانخفاض الروح المعنوية امر سيء مهما انكرناه ولم نعترف به.

ويتميز يأس الجماعة بضياع الاعتقاد فى تكامل الجماعة وتماسكها وفقدان الاعتقاد فى جدواها مما يؤدى الى الانحراف عن المهمة. وتكامل الجماعة يشير الى الاعتقاد المشترك فى "كلية الجماعة" وكونها واحدا بما يؤدي الى استمرار تمايزها عن الجماعات الخارجية دون ان تتمزق الى جماعات متنافسة او انسحاب اعضائها منها. ان خيال الوعاء المشقوق او المتفتت، هو خيال عميق الغور لدى معظم الناس، وتفترض مدرسة التحليل النفسى انه يثير اعمق

مخاوف الطفل بشأن أمه وكيف أنها لن تستطيع احتواء كل غضبه وقلقه دون أن (تذهب شذر مذر) تتفتت الى شظايا. (وهذه مجرد فكرة نظرية لا ضرورة للاقتناع بها) الا أنه لا جدال فى أن أخطر ما تتعرض له الجماعة هو الصراعات الانقسامية الداخلية. والسبب الرئيسى الذى يجعل الجماعات تتحول عن الواقع الى أوهام دفاعية بشأن الانتقام والتمسك بالشرف يدعم الزعم بأن الأخطار التى تهدد تماسك الجماعة (مهما كان مصدرها) تثير حزنا وتعاسة شديدة لدى الأعضاء مثيرة بذلك أنواع الدفاعات والقلق الأشد بدائية. ان اللجوء الى استثارة الانتقام للشرف يرجع الى اليأس من العجز عن الوصول الى الهدف بطريقة واقعية، ويرجع فى جانب منه الى الخوف من فقدان الجماعة لتماسكها.

أن نفوذ الجماعة وفاعليتها يشير الى الاعتقاد المشترك بأن الجماعة قادرة على تحقيق الأهداف التى وضعتها لنفسها. ولعل أحد العلامات الرئيسية لفقدان الفاعلية هو "الانحراف عن المهمة" Task drift . حيث تتخلى الجماعة عن أهدافها الأصلية لأنها تبدو صعبة المنال وتحل محلها مهاما أسهل ولكنها أقل أهمية. وغالبا ما تكون المهمة البديلة هى التهرب من المشاعر الخاصة بعدم فاعلية الجماعة. وتصبح المهمة الأساسية للجماعة هى الدفاع عن نفسها لا ضد الجماعات الأخرى ولكن ضد يأسها هى بشأن الجماعة أى من قلقها الاكتئابى. ان أحد الأسباب التى تجعل الجماعة تكره الكفاح والنضال والتعلم من الخبرة عبر الزمن هو أنها تخشى الفشل فى مهمتها. ان الأعضاء يصبون قلقهم الاكتئابى فى الجماعة بحيث تصبح هى فعليا أكثر خوفا من أعضائها بشأن عدم فاعليتها.

أن انخفاض الروح المعنوية، ويأس الجماعة والخوف من التمزق وعدم الفاعلية، يتم التعبير عنها جميعا فى الانحراف عن المهمة الأصلية. واذا أردنا أن نستفيد من هذه الرؤية فى فهم مجتمعنا المصرى فسنجد أن ظاهرة "الانحراف عن المهمة الأصلية" أصبحت من العلامات المميزة للتفاعل الاجتماعى وهو ما يسمى بالعامية "الطناش". كما نجده فى اللجوء الى الحلول المدمرة كاقتراح اعدام تجار المخدرات بدلا من وضع برامج لعلاج المدمنين واصلاح حالهم. والأمر بالمثل فى الدعوة الى العنف والجريمة باعتبارها الخطوة الأولى نحو "مجتمع سعيد"!!. كل هذه علامات على اليأس والاحساس بأن المجتمع لم يعد قادرا على مواجهة مسئولياته ومشكلاته الحقيقية. وفى بلادنا العربية تدل هذه الأعراض أيضا على أن القادة قد أصبحوا مقتنعين بأن الطريق للبقاء فى الحكم ليس هو مواجهة القلق الاكتئابى واليأس لدى شعوبهم (أى القيادة الناجحة) وانما حرف المسار عن الاهتمامات الحقيقية. لقد أصبحت المسألة التى تواجه علم النفس الاجتماعى عندنا هى التغلب على ذلك الاحساس بالعجز تجاه المشكلات الحقيقية وتدريب القادة والجماعات على استيعاب فكرة أن المهام الملقاة على عاتقهم ليست بهذه الصعوبة وليست أعلى من قدراتهم، وتوجيه القدرات والطاقات الى مواجهة تلك المشكلات بدلا من صرفها فى مهام زائفة.

* ما هى الدروس المستفاده من تطبيق نظرية التحليل النفسى على قيام الجماعة وفاعليتها:-

(١) ان سيطرة الانسان على مصيره أى مساهمته فى العملية الديموقراطية أمر هام لانه يؤدى الى التحكم فى الذات أى التصدى للمسئولية، وهو أصعب مهمة تقوم بها الجماعة وترجع صعوبتها بدرجة كبيرة الى اليأس (القلق الاكتئابى) حيث يخاف الأعضاء من أن عدوانيتهم هم أنفسهم وحسدهم وجشعهم وكراهيتهم قد تتلف الجماعة وأنهم أضعف من أن يفعلوا شيئا حيالها. وتكون النتيجة أن الجماعات غالبا ما تهتم بازاحة المسئولية وألقاء التبعة أو اللوم على أعداء خارجيين (اسرائيل، الجماعات الاسلامية ...الخ)، وخلق كباش الفداء، والانكار، والانحراف أو التهرب من المهمة. وعلى العكس تكون المشاركة وسيلة لخلق الأعضاء المتكاملين ودفعهم للانشغال الكامل بأنشطة الجماعة وبالتالى تجعل من الصعب على الأعضاء التهرب من المسئولية والحصول على ثواب مقابل التهرب. هناك مكاسب نفسية من اختبار المرء لنفسه باعتباره كلا متكاملا، فالمكسب هو المسئولية. ومن الواضح أن مجرد المشاركة فى الانتخابات أو الاستفتاءات غير كاف لتحقيق تلك المكاسب. فالكثير من الناخبين ينتخبون المرشح الذى الذى يساعد الجماعة على التهرب من المسئولية. بل ان المستوى الأعلى من المشاركة ليس ضمانا كافيا.

(٢) القادة ذوو أهمية كبرى، وهم فى الوقت نفسه لا أهمية لهم على الاطلاق. والجملتان صحيحتان. فالقادة "الجيدون" ينفعون فى احتواء قلق الجماعة وبالتالى يغرونها على الاعتقاد بأنها تمتلك القدرة اللازمة (قوميا وسياسيا) على مواجهة الواقع (أى لايدللون الجماهير أو يسعون لاكتساب رضاها بالكذب والتفاق) أنه من خلال الزمن والعمل الجاد والمعاناة والتعلم من الخبرة والمحاولة والخطأ يمكن للجماعة أن تحل مشكلاتها. كما يساعد القادة الجماعة بأن يعبروا تعبيرا واضحا عن مهام الجماعة. ولكن من جانب آخر اذا ما انتاب الجماعة قلق عنيف أو اذا اجتاحها اليأس فلن يكون لدى القائد ما يفعله . فما أن يصل القلق واليأس الى حد معين فان الجماعة لا ترغب الا فى الوهم ولن تستمع الا الى من يقدمه لها. وعادة لا يوجد هناك نقص فى القادة المستعدون لتقديمه. ويختلف محتوى "الوهم" بدرجات هائلة، ابتداء من الأوهام "الحميدة" نحن مصدر الحضارات ومهد الأديان ويحسدنا الجميع ....الخ الى الأوهام البارانويدية كالجماهيرية العظمى، ومن الخليج الهادر الى المحيط الثائر....الخ وتتوقف درجة "خبث" الوهم على درجة قلق الجماعة.

(٣) ومن وجهة نظر علم النفس الاجتماعى، فلا توجد نهاية للتاريخ أى لا توجد نهاية للمهام التي تقوم بها الجماعة ولا للجهد الذى يجب أن يبذل لكى تظل محتفظة بالاتجاه نحو تحقيق المهام وعدم الانحراف الى الأوهام. ان مهمة علم النفس الاجتماعى المهتم بالتوفيق بين رغبات الأفراد ومهام الجماعات هى خلق التوازن بين الواقع وبين الدفاعات والقلق وأن يبين أن حفظ التوازن باتجاه الواقع أكثر فائدة للجماعة من حيث البقاء وازدهار الجماعة. ان الواقع النفسى الاجتماعى يدعو الجماعة الى البقاء فى ظل أفضل ظروف ممكنة أكثر مما يدعوها الى البحث عن العزاء والغرق فى الأوهام والبعد عن الواقع. ان مهمة علم النفس الاجتماعى هى أن يدفع الجماعة بعيدا عن طريق اليوتوبيا، ان كل من يدعو الى يوتوبيا يدفعنا الى طريق اليأس والانحراف عن المهام. فاذا لم نستطع أن نوقف الرشوة والفساد واتلاف البيئة فلنستمع الى القاده الذين يعدوننا بمجتمع مثالى من العدالة والثروة السلام. ويجعلوننا نعيش فى أمجاد الماضى الزائل أو يدعوننا الى العودة اليه.

(٤) ونستطيع أن نستخرج بالتالى من المنطق السابق أن المهمة الملقاة على عاتق العلوم الاجتماعية خاصة علم النفس الاجتماعى والسياسى هى بناء صورة واقعية للجماعة، فلا تنخدع الجماعة بالأوهام وتعتبر أصحاب ديانة ما مثلاهم سبب الشرور فى الأرض أو أنهم يعملون على تقويض المجتمع وأن من صفاتهم الخبث واللؤم ....الخ، أو أن الجماعات العرقية أو الدينية أو غيرها من الجماعات فى يدها صلاح الأمة. ان الجماعة - الأمة اذا أرادت أن تحمى نفسها من القلق واليأس بالدخول فى حروب (كما فعل العراق) أو بدفع أبنائها الى الانسحاب من الحياة العامة وتركها لأولى الأمر ، فأنها تحكم على نفسها فى النهاية بالمعاناة اللانهائية.

السياسة ليست هى الصراع حول من يحصل على ماذا كما أنها ليست صراعا حول التوزيع السلطوى للقيم، كلا انها صراع حول بناء الواقع REALITY CONSTRUCTION فمن الذى سيعرف الواقع وكيف يفعل ذلك؟ فاذا استطاعت جماعة فرعية اقناع غيرها بقبول تعريفها للواقع، فلن تكون هناك ضرورة للصراع ، أو على أقل تقدير ستصبح المواجهة أكثر سهولة وسوف تدور حول التفاصيل لا المبادىء. ويضيف علم النفس الاجتماعى بعدا جديدا لهذا التعريف. فالسياسة هى أيضا صراع حول بناء اللاواقع وبذلك تصبح المسألة الرئيسية هى من الذى ستنفذ الجماعه صراعاتة الداخلية ودفاعاته ومن هى الجماعة الفرعية التى ستصبح كبش الفداء فتستقطب قلق الجماعة ويأسها. وهى عملية ستتطلب فى نهاية المطاف تعاون كبش الفداء مع غيره .

هل تعمل الجماعة - الدولة لتقى نفسها من القلق واليأس على القيام بمغامرات استعمارية أو تشجيع أفرادها على الانسحاب من الحياة العامة؟ النتيجة واحدة فى الحالين. ولو أن المجتمع كله سيعانى فى النهاية. صحيح أن البعض سيعانى أكثر من البعض الآخر أو لحساب البعض الأخر. فالجنود سيموتون والفقراء سيظلون بلا مأوى ينفذون الدراما السيكولوجية للجماعة. وهى دراما لا تتغير قصتها ابدا ولكن التفاصيل تتغير. فالجماعات الاكثر نفوذا وقوة، ستستثمر عدوانها وقلقها ويأسها فى الجماعات الاقل قوة، فتجسد فيها هذه الأشياء وبالتالى تحمى نفسها من وجودها بداخلها وتبنى حائطا يعزلها عنها بواسطة (الانشقاق). وقد يكون هذه الجماعات الأضعف احيانا عدوانيه وقلقة ويائسة الا أن هذا ليس دليلا مضادا. تماما مثل وجود أعداء حقيقيين فى الخارج. فالجماعة قد تخلق أعداءها ولكنها فى نفس الوقت قد تخلع على الأعداء الحقيقيين أوصافا من صنع خيالها.

الديمقراطية هى الحل ولكن يجب ادراك أن العوائق التى تقف فى طريقها تأتى من الأسفل (الطبقات الشعبية) مثلما تأتى من أعلى (الطبقات الاقوى) فالكثير من الناس يتجنبون المسئولية التى تتطلبها المشاركة الديمقراطية، ولذلك يجب رعايتها وتشجيعها بكل طريقة، وليس مجرد السماح بها. وحقيقة الأمر أن الجماعات المحرومة ستظل أكثر قابلية لاحتواء تفعيل سوءات المجتمع وبذلك سيكون من الصعب على الجميع الوصول الى توافق مع الواقع.

" المجال الدينامى عند كورت ليفين"

وجه كورت ليفين اهتمامه فى سنواته الاخيرة الى مشكلات علم النفس الاجتماعى فطور مفهوم ديناميكيات الجماعة بأن طبق فى هذا المجال ما سبق له أن اكتشفه عن سيكولوجية الفرد. فكما يكون الشخص وحيز حياته المجال السيكولوجى فان الجماعة وبيئتها تكون المجال الاجتماعى. واحد الخصائص الأساسية للمجال الاجتماعى هو أنه يعتمد على المواقع النسبية لأعضاء الجماعة. ويكون سلوك الجماعة دالة للموقف كله. وبالتالى فان الجماعة تتميز بالاعتماد الدينامیکی المتبادل بين أعضائها. وعبر ليفين عن اعتقاده بامكان الوصول الى مجموعة متماسكة من المعارف التجريبية عن طبيعة الحياة الجماعية بحيث يكون لها معنى عند التطبيق على اى نوع من أنواع الجماعات. وكان ليفين يأمل فى التوصل الى نظرية عامة عن الجماعات يمكن تطبيقها فى مجالات العائلة أو المدرسة أو المصنع.....الخ كما كان يعتبر مشكلات معينة مثل القيادة والدور والمكانة والجو الاجتماعى والمعايير الاجتماعية والتواصل أجزاء فى مشكلة عامة هى فهم طبيعة ديناميات الجماعة.

ويتخذ كورت ليفين التفاعل بين الافراد أساسا للجماعة ويرى ان التشابه بين الأعضاء قد يكون أساسا صالحا للتفاعل اذا كان المقصود هو تشابه الاتجاهات أو الأهداف أو الولاء أو وجود عدو مشترك، وقد يكون التفاعل نتيجة للتشابه وقد يكون سببا له.

* نظرية المجال:

ولقد أدخل ليفين الى علم النفس نظرية المجال النفسى. ومن المعروف أن الكثير من مفهومات علم الطبيعة وجدت طريقها الى علم النفس، نظرا للوحدة الأساسية بين جميع العلوم، الا انه يجب أن يكون معروفا أن ما أخذه علم النفس هو منهج تمثيل الواقع وليس الحقائق الطبيعية الفعلية ذاتها. ولذلك لم يكن من المستغرب أن يكون لمفهوم المجال في علم الطبيعة أثره فى علم النفس. وقد بدأ هذا المفهوم فى علم الطبيعة بأعمال فاراداى وماكسويل وهيرتز فى المجالات الكهرومغناطيسية فى القرن التاسع عشر وانتهى بنظرية النسبية لاينشتاين فى القرن العشرين.

ولقد بدت أول المظاهر الهامة لتأثير نظرية المجال على علم النفس فى الحركة المعروفة باسم علم النفس الجشطالتى والتى بدأها ثلاثة من العلماء الألمان هم فريتهمر وكوهلر وكوفكا فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى. والفكرة المحورية فى علم نفس الجشطالت هى أن الطريقة التى يتم بها ادراك موضوع ما يحددها السياق أو الاطار الكلى للموضوع. فالعلاقات القائمة بين مكونات المجال الادراكى وليس الخصائص الثابتة لهذه المكونات الفردية هى التى تحدد الادراك. (الكل سابق على الأجزاء)

ولقد زامل كورت ليفين (الذى ولد فى بروسيا عام ١٨٩٠)، فريتهمر وكوفكا فى جامعة برلين فى السنوات التالية على الحرب العالمية الاولى. وعندما وصل هتلر الى الحكم كان ليفين استاذا زائرا فى جامعة ستانفورد ثم استقر فى الولايات المتحدة وتوفى بها عام ١٩٤٧.

ويعتبره الكثيرون من معاصريه من اكثر الشخصيات نبوغا فى علم النفس المعاصر، وتركت كتاباته النظرية واعماله التجريبيه اثرا لا يمحى فى تطور علم النفس. ويمكن تلخيص السمات الأساسية لنظرية المجال عند ليفين فيما يلى:

١ - السلوك دالة للمجال القائم فى الوقت الذى يحدث فيه السلوك.
٢ - يبدا التحليل بالموقف ككل، ومن الموقف تتمايز الاجزاء المكونة.
٣ - من الممكن تمثيل الشخص الفعلى والموقف الفعلى رياضيا.

ويؤكد ليفين اهمية القوى التى تسهم فى تحديد السلوك ويعرب عن تفضيله للوصف السيكولوجى للمجال على الوصفين الفيزيائى والفسيولوجى. ويعرف المجال بأنه " جماع الوقائع الموجودة معا والتى تدرك على اعتبار ان بعضها يعتمد على البعض الآخر". ولقد طبق ليفين مفهومات نظرية المجال على ظاهرات سيكولوجية واجتماعية متباينة ابتداء من الطفولة والمراهقة الى الاقليات والطابع القومى ودنياميات الجماعة ولخص فى مقال له عام ١٩٣٨ فى المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع بعنوان "نظرية المجال والتجريب فى علم النفس الاجتماعى" مشاكل علم النفس الاجتماعى فى النقاط التالية:

١ - خلق تكامل بين الاوجه والجوانب المختلفة، وانشاء لغة علمية اى مفهومات تستطيع التعامل مع الوقائع الثقافية والتاريخية والاجتماعية والسيكولوجية والفيزيائية على اساس مشترك.
٢ - تناول الوقائع السابقة على اساس من اعتمادها على بعضها البعض.
٣ - معالجة المشكلات التاريخية والنظامية systematic.
٤ - حل مشاكل الافراد وكذلك الجماعات.
٥ - تناول الجماعات فى كافة "احجامها" فعلم النفس الاجتماعى يشمل مشكلات الأمم والشعوب مثلما يشمل جماعات الأطفال المكونة من ثلاثة اطفال اجتمعوا ليلعبوا معا.

٦ - مشكلة الجو الاجتماعى كالود او الضغط.
٧ - على علم النفس الاجتماعى التجريبى ان يجد طريقة للتعامل مع الجماعات الكبرى فى اطار صغير يسمح بالممارسات المعملية.

ان تنوع الوقائع التى يجب على علم النفس الاجتماعى معالجتها تثير الفزع لدى اجرا العقول العلمية، فهى تشمل القيم (كالعقائد والأخلاق والايديولوجيات (كالليبرالية والاشتراكية) واسلوب الحياة والتفكير وما الى ذلك من الوقائع "الثقافية" فضلا عن المشكلات السوسيولوجية كالجماعة وبنائها وتدرجها وانماط المؤسسات او الفروق بين الجماعات والى جانب ذلك توجد المشكلات السيكولوجية كذكاء الأشخاص واهدافهم ومخاوفهم وشخصياتهم. وهناك ايضا مشكلات فسيولوجية كالصحة والمرض والضعف والقوة ولون البشرة..الخ واخيرا هناك مشكلات مادية مثل المساحة او الموقع الجغرافى الذى تحتله الجماعة.

واصبح من المقبول علميا اليوم ايجاد اسلوب ايجابى يجمع تلك الوقائع المتنوعة بحيث نعالجها جميعا فى مستوى واحد دون ان نضحى بالخصائص المتميزة لكل منها. وفى رأيى (اى ليفين) ان المنهج المجالى النظرى هو الأداة التى يمكنها القيام بذلك.

ويتكون المجال النفسى أولا من حيز الحياة الذى يتكون من الشخص تحيط به بيئة نفسية. ويتمايز الشخص الى منطقة ادراكية - حركية ومنطقة شخصية - داخلية وتقسم المنطقة الشخصية - الداخلية بدورها الى مجموعة من الخلايا المحيطية والخلايا المركزية. كما تتمايز البيئة النفسية كذلك الى مناطق. ويحيط بحيز الحياة غلاف سماه الغلاف الغريب، الذى يشكل جزءا من البيئة غير النفسية أو الموضوعية. ويفصل بين مناطق الشخص ومناطق البيئة حدود تتميز بخاصية القابلية للنفاذ. وتتشابك كل مناطق حيز الحياة فيما بينها، بحيث تستطيع واقعة فى احد المناطق ان تؤثر فى واقعة فى منطقة اخرى. وعندما يحدث هذا التأثير بين واقعتين فانه يسمى حدثا. ويحدد درجة الاتصال بين المناطق، أو مدى التأثير المتبادل بينها صلابة الحدود وعدد المناطق الموجودة بين المنطقتين المتفاعلتين، وخصائص السطح للمناطق. ويقال أن مناطق البيئة متصلة بعضها ببعض عندما يستطيع الشخص أن يقوم بالتحرك بين المناطق. كذلك يقال أن مناطق الشخص متصلة بعضها ببعض عندما تستطيع هذه المناطق الاتصال بعضها البعض ولحيز الحياة بعدان آخران هما: الواقع- اللا واقع، والماضى- الحاضر.

ويمثل ليفين المفهومات السابق ذكرها باصطلاحات مكانية، بحيث يصبح من الممكن تناولها بوساطة فرع من الرياضيات يسمى بالطوبولوجيا. ويتناول علم الطوبولوجيا العلاقات المكانية. وهو لا يهتم بالحجم أو الشكل، أو المساحة، أو المسافة، أو غير ذلك من الخصائص التقليدية للمكان بل يتناول العلاقات المكانية مثل "اندماج شىء ما فى شىء آخر" و "الكل والجزء" و "الاتصال وعدم الاتصال"، ونظرا لان ليفين يمثل مفهوماته البنائية تمثيلا طوبولوجيا. لذا يطلق على هذا الجزء من نظريته (أو منهجه) علم النفس الطوبولوجى.

وكان على ليفين لكى يصور المفهومات الدينامية مثل الاتجاه، والمسافة، والقوة، أن يبتكر نوعا جديدا من المكان أسماه المكان المسارى (أو الهودولوجى). Hodology والهودولوجيا هو علم الممرات أو المسارات. والممر أو المسار عنده يساوى الحركه. وميزة المكان الهودولوجى هى امكان التعبير عنه برسوم تخطيطية، فتمثل كل منطقة بنقطة والحدود بين المناطق بخط يربط بين تلك النقاط. وتشكل مفهومات ليفين الدينامية فى مجموعها ما يسميه بسيكولوجيا الموجهات Vector psychology.

* ديناميات الشخصية :

يشبه التمثيل البنائى لحيز الحياة خريطة الطريق. فخريطة الطريق الجيدة تحتوى على جميع المعلومات التى يحتاج المرء الى معرفتها للقيام بأى نوع من الرحلات، تماما مثلما يحتوى التمثيل البنائى الجيد للشخص وبيئته جميع الوقائع التى يحتاج المرء لمعرفتها ليستطيع تفسير أى نوع من أنواع السلوك المحتملة. ولكن، كما أن خريطة الطريق لا تستطيع أن تذكر لنا أى الرحلات سيقرر شخص ما أن يقوم بها، كذلك لا تستطيع أى صورة مفصلة لحيز الحياة أن تخبرنا كيف سيكون سلوك الشخص بالفعل. والمفهومات البنائية أو الطوبولوجية وحدها لا تستطيع أن تفسر السلوك العيانى فى موقف نفسى فعلى. فمثل هذا النوع من الفهم يحتاج الى مفهومات دينامية.

ومفهومات ليفين الدينامية الرئيسية هى: الطاقة، والتوتر، والحاجة، والتكافؤ. والقوة أو الكمية الموجهة.

ونلاحظ أن مفهوم الحاجة هو المفهوم الوحيد الذى ترتبط به جميع التصورات الدينامية الأخرى. فالحاجة تطلق الطاقة، وتزيد التوتر، وتعطى القيمة، وتخلق القوة. انها مفهوم ليفين الرئيسى أو المركزى الذى تنتظم حوله المفهومات الأخرى.

* اعادة تكوين البناء الدينامى للبيئة النفسية:

من الممكن أن تتغير ديناميات البيئة النفسية بأربعة طرق مختلفة :-

١ - قد تتغير قيمة المنطقة كميا، فتتحول مثلا من منطقة أقل ايجابية الى منطقة أكثر ايجابية، كما يمكن أن تتغير كيفيا، من منطقة ايجابية الى منطقة سلبية. ويمكن أن تظهر تكافؤات جديدة وأن تختفى التكافؤات القديمة.

٢ - قد تتغير شدة الكميات الموجهة أو تتغير وجهتها أو تتغير الشدة والوجهة معا.
٣ - قد تصبح الحدود أكثر صلابة أو ضعفا ، وقد تظهر أو تختفى.
٤ - وقد تتغير الخصائص المادية للمنطقة، فتتغير مثلا مرونتها أو جمودها.

وقد يحدث اعادة تكوين بناء البيئة النفسية نتيجة تغيرات فى نظم التوتر عند الشخص، كنتيجة للتحرك أو كنتيجة لعمليات معرفية. ويحدث اعادة تكوين البناء المعرفى عندما يكتشف الشخص طريقة جديدة لحل مشكلة ما (الاستبصار) أو يتذكر شيئا كان قد نسيه، أو يدرك شيئا فى بيئته لم يكن قد لاحظه من قبل. كما قد ينتج اعادة تكوين البناء عن اقتحام عوامل غريبة من الغلاف الغريب، للبيئة النفسية.

* العودة الى التوازن :

الهدف النهائي لجميع العمليات النفسية هو اعادة الشخص الى حالة من التوازن. يمكن بلوغ هذا الهدف بطرق متعددة وهو الشيء الذى يعتمد على نوع العملية الحادثة. وبالرغم من أننا وصفنا بعض العمليات فى العرض السابق ، فانه قد يكون من المفيد أن نذكرها كلها الآن.

يعرف انعدام التوازن بأنه حالة من عدم تساوى التوتر داخل النظم المختلفة للشخص. ولنفترض - تبسيطا للأمور - أن واحدا من النظم الشخصية - الداخلية فى حالة من التوتر المرتفع على حين يكون مستوى التوتر منخفضا فى بقية النظم الشخصية - الداخلية الأخرى. أن احدى الطرق التى يمكن بها الوصول الى التوازن هى أن ينتشر توتر النظام فى جميع انحاء النظم الأخرى حتى يتعادل التوتر فى أنحاء الغلاف الشخصى - الداخلى . فاذا ما افترضنا أن الطاقة لم تفقد من الغلاف الشخصى- الداخلى، فان نتيجة هذا الانتشار أن يرتفع مستوى التوتر للنظام بأسره ويتزايد الضغط الواقع على الحدود الفاصلة بين الطبقة الشخصية - الداخلية والطبقة الادراكية - الحركية. واذا ما افترضنا تكرر هذه العملية ، فان النتيجة ستكون تراكم التوتر فى الغلاف الشخصى- الداخلى. ويقال عن مثل هذا الشخص أنه يعانى من توتر داخلى شديد. وعندما لا يصبح فى امكان حدود المنطقة الشخصية - الداخلية أن تقاوم الضغط الواقع عليها، فان اندفاعا مفاجئا فى الطاقة يحدث، فى الجهاز الحركى يؤدى الى حدوث سلوك تهيجى. وهذا هو ما يحدث عندما تنتاب الشخص نوبة غضب أو هياج. أما اذا كان الحد الفاصل بين النظام الشخصى- الداخلى والمنطقة الادراكية - الحركية قابلا للنفاذ بدرجة معقولة، فان التوتر يستطيع التسرب من خلال النشاط القلق غير المستقر. وهذه طريقة لخفض التوتر بدائية الى حد ما، ونراها أصلا فى الطفولة. فعندما يتزايد جوع الطفل مثلا، فان عدم استقراره يزداد شدة، ويقال أن عدم الاستقرار يساعد المرء على التنفيس.

واكثر الطرق انتشارا لاستعادة حالة التوازن هى القيام بتحرك مناسب فى البيئة النفسية. والتحرك المناسب هو ذلك الذى يقود الشخص الى منطقة موضوع مشبع للهدف. فاذا كان الشخص مثلا فى حالة من التوتر لأنه عاطل، فان الحصول على عمل يؤدى الى ازالة التوتر. وفى مثل هذه الحالات، تكون العمليات الأدراكية والحركية وسيلة فعالة فى تحقيق تخفيف التوتر. وقد يكون من الضرورى بالطبع اعادة تكوين بناء البيئة حتى يمكن الوصول الى الهدف المرغوب، وقد تتضمن عملية اعادة تكوين البناء هذه عملية معقدة تستغرق وقتا. فالشخص الذى يأمل أن يكون رئيسا قد [illegible] سنوات فى التعامل مع بيئته قبل أن يتحقق له النجاح. وربما لا [illegible] أبدا، وفى مثل هذه الحالة يكون فى حالة من عدم التوازن الدائم.

وقد يؤدى تحرك بديل الى خفض التوتر واستعادة التوازن. وتتطلب هذه العملية أن يكون هناك اعتماد متبادل وثيق بين حاجتين بحيث يؤدى اشباع احدى الرغبتين الى تفريغ التوتر من نظام الحاجة الاخرى.

واخيرا، قد تؤدى تحركات تخيلية خالصة الى خفض التوتر. فالشخص الذى يتخيل انه قد انجز عملا صعبا، او انه يشغل منصبا مرموقا يحصل على اشباع بديل عن طريق مجرد احلام يقظة تدور حول النجاح. بل الواقع انه يتوفر لدينا عدد من احلام اليقظة الجاهزة فى شكل قصص، ومسرحيات وافلام سينمائية.

" السوسيومترى عند جاكوب مورينو "

شرح جاكوب مورينو فى كتابه "البقاء لمن؟" Who shall survive الذى صدر عام ١٩٥٣ مبادىء نظريته عن القياس السوسيومترى. وقد اصبح هذا النوع من أدوات البحث شائعا ومستخدما على نطاق واسع فى بحوث ودراسات ديناميات الجماعة. وغاية هذا الاسلوب هى الكشف بشكل موضوعى عن شبكة العلاقات الاجتماعية التى تميز الافراد فى تفاعلهم اليومى من تجاذب او تنافر او لا مبالاة وكذلك التنظيم غير الرسمى للجماعات والمكانات الاجتماعية للافراد. والسوسيومترية طريقة للتحليل واداة لجمع البيانات ويرى مورينو أن حجر الزاوية فى اسلوبه انه نظرية وتطبيق فى آن واحد. وقد تلقى مورينو تعليمه فى النمسا وعمل طبيبا نفسيا، قبل أن يرحل الى الولايات المتحدة ويستقر فيها.

والسوسيومترية عنده لها صور ثلاث: التجربة السوسيومترية، والعلاج النفسى الجمعى، والسيكودراما*. وفيها يكون اعضاء الجماعة على سجيتهم، يتفاعلون بتلقائية، ولا يضحون بتلقائية الجماعة على حساب تماسكها. فلا بأس من التسق والنزاع داخل الجماعة طالما كان تعبيرا صادقا عما يجول بنفوس اعضائها. ويقاس تماسك الجماعة بدرجة التعاون والتكامل الذى يقوم بين اعضائها وكذلك بين الجماعات الفرعية وغيرها من الجماعات على اساس الهدف الذى تكونت الجماعة من اجـ . ومن المرجح فى المجتمعات التلقائية - اى التى تنشأ

* السيكودراما والسوسيو دراما اساليب تقوم على تمثيل الأدوار وتهدف الى اكساب الأفراد الاستبصار وتنمية المهارات فى مجال العلاقات الانسانية عن طريق تمثيل المواقف التى تعبر عن مشكلات الحياة الواقعية . وينصب الاهتمام فى السيكودراما على الفرد بينما تهتم السوسيودراما بما هو مشترك فى الأدوار الاجتماعية.

العلاقات فيها بحرية - أن يتدهور التماسك او يزداد بقدر زيادة عدد الجماعات المستقلة بداخلها وعدد الأهداف التى تسعى اليها.

السوسيومترية، اذن، تعمل فى نطاق الجماعات الفعلية أو المتوقعة، وهى تقوم على اساسين اولهما ديناميات الجماعة وسلوكها والثانى قياس تلك العلاقات الدينامية التى تنشأ عن التجاذب والتنافر.

وكان مورينو مفكرا اشتراكيا، واعتبر السوسيومترى هو الحلقة الدينامية التى ستقرب بين علم الاجتماع والنظرية الاشتراكية، الماركسية. فما ينجح فى التطبيق على الجماعات الصغيرة يمكن أن يشمل الجماعات الاكبر. وتبدأ السوسيومترية. ببضعة مسلمات أولية أهمها أن البشرية وحدة اجتماعية وعضوية، وبالتالى ستنشأ بين مختلف اجزائها ميول من التجاذب والتنافر تتضح فى مؤشرات واضحة من الوقائع البيولوجية والاجتماعية والنفسية.

والسوسيومترية عنده محور ذو قطبين، يتجه أحد ذراعيه نحو كشف أعمق مستويات بنية المجتمع على حين يتجه الآخر الى احداث تغيير فى المجتمع مؤسس على الوقائع الديناميكية التى تكتشف عن بنيته. ويحاول مورنيو بذلك أن يجمع بين التغيير والتفاعل (التيسير) فى كل واحد. وقد حرص مورينو، لكى يؤكد أصالته واختلافه عن سائر أصحاب المذاهب الكبرى فى علم النفس والاجتماع، حرص على صك مصطلحات خاصة بمنهجه السوسيومترى. فاستخدم لفظ المقابلة encountor ليعبر به عن كل صور الاتصال (اللقاء اتصال الأجساد، المواجهة، العراك، الرؤية والادراك، اللمس والتماس، المشاركة، الحب، التواصل...). وابتكر مصطلح التيليه Tele (وهى لفظة يونيانية تعنى التأثير عن بعد) ويمكن ترجمته الجاذبية ليعبر به عن ذلك الشىء الذى يضم الأفراد والجماعات معا، وهو يعتبر التيليه (الجاذبية) الملاط الذى يلصق الجماعات بحيث يكون التماسك وتبادل العلاقات والمصالح والخبرات والمعلومات كلها وظائف للجاذبية.

* تماسك الجماعة Caroup Cohesiveness

يعتبر اداء الجماعة وتماسكها هما أهم النتائج المترتبة على تفاعل الجماعة. اذ تظل الجماعة فعالة الى الحد الذى تكون فيه نتائج عملها مقبولة من هؤلاء الذين يترقبون ذلك الناتج ويتلقونه، وكذلك الى الحد الذى تظل فيه رغبة أعضاء الجماعة فى العمل مع بعضهم البعض باقية.

ومن الواضح أن هناك علاقة وثيقة بين العمليات التى تجرى داخل الجماعة وبين ناتج عمليها (أى بين التماسك والاداء)، وهى الجوانب التى سبقت الاشارة اليها. ويجمع أصحاب علم النفس الاجتماعى على أهمية مسألة تماسك الجماعة فى فهم دينامياتها، ويعتبرها البعض نتيجة حتمية لتقسيم العمل فى الجماعات.

والتماسك صفة من صفات "الجماعة" فلا يقوم الا بها، ولكن الجماعة نفسها كيان متغير لذلك اتجه الباحثون الى الأفراد (الأعضاء) بوصفهم الجزء الملموس من الجماعة واعتمدوا على سؤالهم عن مشاعرهم ومقاصدهم وملاحظة سلوكهم فى المعمل أو الميدان.

* تعريف التماسك:

الجماعة المتماسكة هي جماعة تلتصق ببعضها أي تشد أزر بعضها البعض، ويلازم هذا الالتصاق احساس بالتضامن والانسجام والالتزام من جانب الاعضاء. وتوصلت البحوث التي تناولت الجوانب المختلفة للمفهوم أن أهم ما يميز الجماعة المتماسكة هو شعور "بالنحن" يعمل على تجاوز الفروق والدوافع الفردية. ولجأ البعض الى تشبيه الجماعة بالذرة، تلك النواة التي تجمع حولها الجزيئات بروابط قوى من الجاذبيه والتماسك ويعرف مورينو التماسك بأنه مقاومة الجماعة للتفكك. ومنذ الستينات ساد تعريف التماسك بأنه جاذبية الجماعة.

ويميل الباحثون الآن الى اعتبار أن أهم ما يميز التماسك هو الالتزام والمسئولية تجاه الجماعة، كما يتضح من التزام الاعضاء بتحقيق المهمة الملقاة على عاتق الجماعة. وبذلك يكون التماسك في نهاية الأمر هو "عملية دينامية تنعكس في ميل أعضاء الجماعة الى شد أزر بعضهم البعض والاستمرار متكاتفين في السعي الى تحقيق أهدافها وغاياتها".

ويطلق مورينو على أصغر وحدات العلاقات الاجتماعية اسم "الذرة الاجتماعية" motAlaicoS. واذا كان علماء الفيزياء قد استخدموا هذا المصطلح فليس لهم فضل الأسبقية لأن الكثير من الالفاظ التي أدخلها الفلاسفة القدامى لوصف الظواهر الفيزيائية مثل الجاذبية والذرة كانت تعبيرات مجازية منقولة من الخبرات النفسية والاجتماعية. والذرة الاجتماعية هي المجموع الكلي للابنية التي تربط ما بين الأشخاص وأسناتجة عن ضروب التفصيل والنبذ التي تتمركز حول فرد معين. وهذه الروابط التي تصل بين الأفراد والجماعات ليست هي المستوى الأعمق للبناء الاجتماعي، فلابد أن تكون تحتها بنية دائمة أو قاعدة تمزج بين التيارات المختلفة وهي ما يسميها بالشبكات الاجتماعية.

ومن الاسهامات النظرية الاساسية في سوسيومترية مورينو التحليل الذي أضافه لفكرة الدور. فهناك "اتخاذ الدور" وهناك "أداء الدور". الأول يعني تأدية دور محدد استقر تماما بحيث لا يسمح للفرد بأي تغيير أو أي درجة من الحرية. بينما يسمح الثاني للفرد بدرجة من الحرية. والمعنى الأول عنده يحل محل الالفاظ الغامضة كالشخصية والأنا والذات والتي تفتقد كيانا ملموسا هو أوضح في "الدور". ونشأة الدور تسبق نشأة الذات، فالأدوار لا تنبثق عن الذات، بل الذات هي التي تنبثق عن الأدوار، وكانت نقطة التحول في نظر مورينو هي: كيف تنبث الحياة في الأدوار وتغيرها وكيف يصبح المرء "مغيرا" للدور ومؤديا له. وأدى به هذا الى اكتشاف أسلوب لعب أو أداء الأدوار Role Playing.

وهكذا تمزج سوسيومترية مورينو بين العلم والعلاج والفلسفة فمفهوماتها النظرية كالذرة الاجتماعية والشبكة السيكولوجية وغيرها تمثل تحديا فى مسالة الوصول الى معنى السلوك الانسانى. وتطمح السوسيومترية الى دراسة الانسانية باسرها على اساس من الاعتقاد بان علاقات "التيليه" تربط البشرية كلها على نحو خاص. ويمكن القول ان السوسيومترية قد استطاعت ان تشق طريقا وسطا بين التغيير الاجتماعى والتفاعل الاجتماعى بان خلقت الذرة الاجتماعية كوحدة اساسية ليست هى الفرد فى حد ذاته، كما انها ليست الجماعة ككل. كما ان البناء الاجتماعى الكبير مفتوح امام تلقائية وابداع الجماعات الصغرى والافراد، اما العلاقات الاجتماعية فتظل دائما تحفزها صلات التجاذب والتنافر والتفضيل والصد. وقد ابتكر مورينو اداة هى الاختبار السوسيومترى Sociometric Test ليقيس بها درجة واقعية التشكيل الاجتماعى. وفيه يطلب من الافراد تحديد من يختارونه او يستبعدونه من رفاقهم فى مختلف المواقف كاللعب او العمل... الخ وتعرض المعطيات فى رسوم بيانية اهمها السوسيوجرام Sociogram وهو خريطة للجماعة تستخدم رموزا ملائمة تشير الى الاختيارات الايجابية والسلبية لأعضاء الجماعة. وتكشف هذه الرسوم عن تشكيلات معينة تتخذها الجماعة تجاه بعضها البعض، فهناك الفرد "المنعزل" الذى لا يختاره احد او تختاره قلة قليلة وهناك "النجم" الذى تختاره غالبية او عدد كبير. والى جانب هذه التشكيلات المميزة للجماعات الصغيرة، تقوم ابنية اجتماعية اوسع مدى تكشف عن ابعاد اخرى للمجتمع المحلى.

وينتقد الكثيرون السوسيوجرام لانه لا توجد طريقة موحدة لرسمه، كما تصعب قراءته فى كثير من الأحيان. ولا يمكن فهمه وتفسير جوانبه بغير الاستعانة بالكثير من البيانات غير السوسيومترية. بينما يرى آخرون ان المقاييس السوسيومترية وسيلة من وسائل متعددة لدراسة العلاقات بين الأشخاص. وفى رأينا ان السوسيومترية قد افادت علم النفس الاجتماعى بوصفها رافدا عميقا من روافده.

* الاساليب السوسيومترية : مثال تطبيقى :

اذا أردنا الكشف عن الجماعات غير الرسمية التى يمكن ان تؤثر فى قرارات الافراد وفى سلوكهم وفى اتجاهاتهم، اى الجماعات المرجعية، فسنقوم بذلك عن طريق تتبع العلاقات الاجتماعية القائمة بين هؤلاء الافراد. فيسأل الناس عمن يجلسون معهم عادة، وكم من المرات، وهل يجلسون عادة مع نفس الاشخاص؟ والى من يتجهون فى طلب النصح فى أمر من الأمور؟ ومن الذى يحيطونه بالحب والتقدير؟ ومن الذى يختارونه لمواضع القيادة فى موقف من المواقف؟ الخ... وقد تكشف هذه الأسئلة عن وجود جماعات غير رسمية يفكر اعضاؤها ويسلكون بنفس الطريقة بالنسبة لموضوعات معينة. كما يمكن الكشف عن الافراد ذوى النفوذ فى هذه الجماعات، وعدد الاشخاص الذين يحتمل ان يكون لهم قدر من التاثير. وهذا هو الاسلوب السوسيومترى.

والغالب أن يطلب الى اعضاء الجماعة ان يحدد كل منهم - على انفراد - عددا من أفراد الجماعة الآخرين الذين يود ان يشاركهم فى نشاط معين، واحيانا ان يحدد عددا من الافراد الذين لا يود ان يشاركهم في هذا النشاط.

مثال: اذا أردنا أن نوزع الدارسين في معهد من المعاهد الى جماعات دراسية او ميدانية فسنوجه اليهم السؤال التالى:

* اكتب اسماء ثلاثة من الزملاء الذين تود مشاركتهم فى العمل الميدانى او الدراسى ، مرتبة ترتيبا تنازليا حسب تفضيلك لهم :

(١) ....
(٢) ....
(٣) ....

وتفيد البيانات التى نحصل عليها عن طريق استخدام الأساليب السوسيومترية كأساس لتنظيم الجماعات او اعادة تنظيمها بصورة مجدية نفسيا واجتماعيا لجميع افراد الجماعة. كما يمكن القضاء تدريجيا على الحواجز المصطنعة بين الأفراد وبذلك نفسح المجال امام القدرات العقلية وقوى الشخصية، كما نسهم فى تحسين العلاقات بين الأفراد والجماعات وزيادة التفاهم والتقدير المتبادلين، وتدعيم التعاون حين ترتبط جهود الفرد باهتمامات الجماعة .

واذا أريد لنتائج الاختبار السوسيومترى ان تفيد فى الكشف عن نمط العلاقات الاجتماعية فى الجماعة. وجب ان يثق الافراد فى ان اختياراتهم سوف تستخدم للغرض المعلن عنه. وان يكون هذا الغرض هاما بالنسبة للافراد.

ويكفى للكشف عن المركز النسبى للفرد في الجماعة ثلاثة الى خمسة اختيارات عادة. وقد اسفرت البحوث عن ان توسيع نطاق الاختيار الى اكثر من ذلك يبدو انه لا يغير من المراكز النسبية لاعضاء الجماعة. واحيانا قد يراد الكشف عن النواحي السلبية فى الاختيار، فيطلب من كل فرد كتابة اسماء من لا يفضل العمل معهم فى موقف معين، واسماء من يعتقد انهم لا يفضلون العمل معه. وقد يكون من المفيد احيانا السؤال عن اسباب كل من الاختيارين الايجابى والسلبى. ومن المهم فى كل الحالات ان تكون الأسئلة المستخدمة ملائمة لمستوى فهم اعضاء الجماعة. والاختبار السوسيومترى يجب ان يطبق فقط على الجماعات التى يعرف اعضاؤها بعضهم البعض. ومن المهم ان يكون الشخص الذى يطبق الاختبار على علاقة طيبة بالأفراد حتى يشعروا بالاطمئنان الى ان نتائج اختياراتهم لن يعرفها احد غيره. وبذلك يكشف الاختبار السوسيومترى عن اختيارات قد لا يكشف عنها السلوك الفعلى، ولا يمكن معرفتها عن طريق الملاحظة .

والخطوة الأولى فى تنظيم نتائج الاختبار السوسيومترى هى تسجيل الاختبارات الايجابية والسلبية التى يتلقاها كل فرد فى الجماعة فى صورة جدول كما هو موضح فى الجدول رقم (١). ودرجة الفرد فى الاختبار السوسيومترى هى عدد او نسبة المرات التى ذكر فيها اسمه من افراد الجماعة الآخرين.

" الجدول رقم (١)"

القائم بالاختيار	الشخص المختار								
	علي	مصطفى	سليمان	احمد	حسن	اسماعيل	علام	سالم	سعد
علي	-	١			٣		٢		
مصطفى	٢	-		١	٣				
سليمان	٢		-			١	٣		
احمد	٣	١		-	٢				
حسن	٣	١		٢	-				
اسماعيل			٢			-	١	٣	
علام	٣		٢			١	-		
سالم			٣			٢	١	-	
سعد		١			٣			٢	-

جدول تسجيل الاختيارات بالوزن : الاختيار الأول - ٣ درجات
الاختيار الثاني - درجتان
الاختيار الثالث - درجة واحدة

	علي	مصطفى	سليمان	احمد	حسن	اسماعيل	علام	سالم	سعد
الاختيار الأول	٠	٤	٠	١	٠	٢	٢	٠	٠
الاختيار الثاني	٢	٠	٢	١	١	١	١	١	٠
الاختيار الثالث	٣	٠	١	٠	٣	٠	١	١	٠
المجموع العام	٥	٤	٣	٢	٤	٣	٤	٢	٠
المجموع الموزون	٧	١٢	٥	٥	٥	٨	٩	٣	٠

وتكتب الأسماء في جدول تسجيل الاختيارات أفقيا ورأسيا بنفس الترتيب، ثم تكتب الأرقام (١) ، (٢) ، (٣) في الخانات المناسبة للدلالة على ترتيب الاختيار. ولنفرض مثلا أن فريقا من فرق العمل الميداني يتكون من تسعة طلاب علي ومصطفى وسليمان واحمد وحسن واسماعيل وعلام وسالم وسعد، فانه يتضح لنا من اختياراتهم الموضحة في الجدول رقم (١) أن حسن اختار مصطفى في الموضع الأول واحمد في الموضع الثاني وعلي في الموضع الثالث. كما يتضح من هذا الجدول أن عليا حصل على أكبر عدد من الاختيارات. ويليه كل من مصطفى وحسن وعلام بنفس القدر، ثم سليمان واسماعيل، ويليهما احمد وسالم، واخيرا سعد الذي لم يحصل على أي اختيار.

ويعطينا السوسيوجرام معلومات هامة عن بناء الجماعة، فهو يوضح النمط العام للتنظيم وشبكة الاتصال. والقوة النسبية لمكانة الاختيار بالنسبة للافراد: فمثلا يتضح من السوسيوجرام الوارد في الشكل السابق انه من المفيد أن نجمع احمد ومصطفى وحسن في جماعة واحدة. وأن نجمع علام وسليمان واسماعيل وسالم في جماعة أخرى. وبالنسبة لسعد فانه يحسن ضمه الى الجماعة الأولى، لأنه من المقدر أن يشعر فيها بقدر أكبر من الاطمئنان. أما على فانه من الممكن ان يضم لأى من الجماعتين، ولكن من المتوقع أن يكون هو حلقة الاتصال بين الجماعتين الفرعيتين نظرا لتبادله الاختيارات مع أفراد كل منهما. وعلى العموم يجب استخدام البيانات المستقاة من السوسيوجرام في الغرض الذى حدد في الاختبار، مثل تقسيم الأعضاء الى جماعات. ويجب ان يوضع كل فرد في جماعة تضم على الاقل فردا واحدا من اختباره، وكلما أمكن في الجماعة التى وقع اختياره على أكبر عدد من أفرادها. أو تلقى هو أكبر عدد من اختياراتهم. وفي كل الحالات، يجب قدر الامكان الا يوضع الفرد في جماعة ينبذه أفرادها. فاذا روعيت هذه الحدود كان لنا أن نتوقع بصفة عامة أن يتسم سلوك الفرد بالاقبال والنضج والاستجابة لحاجات الآخرين. كما يجب الا تستخدم نتائج الاختبار السوسيومترى في مواقف أخرى غير الموقف المتضمن في الاختبار.

واذا أظهر السوسيوجرام جماعات صغيرة يرتبط أفرادها ارتباطا وثيقا باختيارات متبادلة، دل ذلك على وجود تكتلات. فاذا ظهر نمط التكتل بوضوح، كان لنا أن نتوقع عداوة وصداما، ونقصا عاما في التعاون بين الأفراد في النشاط الكلى للجماعة. أما السلاسل التى يربطها اختيار في اتجاه واحد، مع تداخل قليل بين السلاسل، فانها تدل على أن أفراد الجماعة لم يعطوا الفرصة الكافية للتعارف. أما السوسيوجرام الذى لا تتضح فيه بؤرات محددة، فانه يدل على بناء مفكك للجماعة، ونقص في توجيهها من حيث نشاطها، كما أنه يدل على أنه يجب ألا نتوقع من الأفراد القيام بمجهود مشترك كبير الى أن يفهم أفراد الجماعة بعضهم البعض ويتبادلوا التقدير. وعلى العكس من ذلك نجد أن السلاسل التى تتداخل وصلاتها وتتعدد اختياراتها المتبادلة تدل على بناء متكامل للجماعة، وروح جماعية عالية، وانتشار للقيادة، نتيجة للاتصال الجيد والفهم المنتشر بني اعضاء الجماعة. ويمكن أيضا دراسة العلاقات العامة، مثل العلاقات بين الجنسين بصفة عامة، وهل تتركز الاختيارات على أفراد قلائل أو تتوزع بدرجة معقولة؟ وما هو النمط السائد في علاقات الأفراد: هل هو علاقة بين فردينن أو بين جماعات صغيرة مقفلة أو شبه مقفلة؟ وأى الانماط يسود في جماعة الذكور مثلا، وأيها يسود في جماعة الاناث؟ وبذلك يمكن أن نجرى دراسات عن الفروق بين الأعمار المختلفة وبين الجنسين في أعمار مختلفة، الخ...

وبالاضافة الى الانماط السوسيومترية السابقة، كشفت البحوث عن انماط أخرى عديدة منها: "النجم" وهو الشخص الحائز على عدد كبير من الاختيارات، "والمعزول" الذى لا يختاره أحد ولا يختار أحدا، او هو الذى لا يختار أحدا ولا يختاره أحد. أما "المنبوذ" فانه الشخص الذى ينبذه الكثيرون من أعضاء الجماعة.

أما اذا أعطينا الاختيار الاول وزنا يعادل ثلاث درجات، والثانى درجتين، والثالث درجة واحدة، فان ترتيب الأفراد يختلف بعض الشيء. كما هو موضح فى الجدول رقم (١).

" شكل رقم (١)"

وبعد ذلك تمثل تلك الاختيارات فى رسم تخطيطى كما هو موضح بالشكل رقم (١)

ويسمى هذا الشكل السوسيوجرام، وليست هناك طريقة مقننة لرسم السوسيوجرام، ولكن أكثر الطرق شيوعا هى التى سنعرضها فميا يلى:

اذا كانت الجماعة تتكون من فئات مختلفة مثل الذكور والاناث أو من جنسيات أو أديان أو مستويات اقتصادية مختلفة، واذا أريد ابراز العلاقات بين هذه الفئات، فانه يرمز لأفراد كل فئة بشكل خاص، فمثلا قد يشار الى الاناث بدوائر والى الذكور بمثلثات. واذا أريد توضيح الاتصال بين افراد الفئات المختلفة، جمع أفراد كل فئة فى جانب من جوانب السوسيوجرام. فمثلا، قد ترسم المثلثات كلها الى اليمين والدوائر الى اليسار. وفى كل فئة يكتب اسم الفرد الذى يذكر اسمه أكبر عدد من المرات فى الشكل الاوسط، ثم تكتب أسماء من يليه فى الترتيب بعد هذا الرمز تبعا لعدد المرات التى تذكر فيها أسماؤهم اطلاقا، أو من ذكرت اسماؤهم مرات قليلة فى الأشكال البعيدة عن الوسط.

ويمثل للاختيارات بين الافراد بخطوط توصل بين الأشكال. وتختلف هذه الخطوط فى أشكالها أو فى ألوانها حسب ترتيب الاختيار الذى تدل عليه. ويمثل للاختيار فى وجهة واحدة بخط ينتهى بسهم يشير الى الشكل الذى يمثل الشخص الذى اختير. أما الاختيار المتبادل فيمثل بخطين بين الشكلين. كذلك يمثل للاختيارات السلبية. سواء كانت فى وجهة واحدة أو متبادلة، بخطوط ملونة، ويمثل للأشخاص الغائبين بأشكال منقوطة أو ملونة.

والأساليب السوسيومترية وحدها لا تكفي للكشف عن أسباب الاختيارات، ولذلك يتعين علينا توجيه بعض الأسئلة وجمع بعض البيانات لتحديد هذه الأسباب، مثل أسباب الجفوة أو التقارب بين الافراد من الجنسين أو من القوميات المختلفة، أو الطبقات الاقتصادية الاجتماعية، أو الجيرة، أو المعايير الاجتماعية، وما هو العامل المشترك بين أولئك الذين يقل اختيارهم، الى غير ذلك من الأسئلة التى يتوقف نوعها على موضوع الدراسة. وقد نستعين بمصادر اخرى مثل سجلات الأفراد وتقارير الآخرين عنهم والسيكودراما والمقابلات والاستفتاءات، الخ ...

ويمكن عن طريقة اعادة الاختبار السوسيومترى فى مراحل معينة دراسة التغيرات والاتجاهات في تنظيم الجماعة، وفى مراكز الافراد واتجاهاتهم. ويجب أن تكون الفترة بين كل اختبار والاختبار التالى له كافية لاظهار هذه التغيرات.

"الجماعات المرجعية وتماسك الجماعة"

تعتبر الجوانب التالية هى أهم الجوانب الاجتماعية التى يتعين دراستها لتحديد معالم الخريطة النفسية الاجتماعية من وجهة نظر التفاعل بين الافراد.

١ - تنظيم الأدوار :

من يفعل ؟ وماذا يفعل؟ ومن الذى يتوقع الناس قيامه بمسئوليات معينة؟ وما الذى يظن الناس أن غيرهم يتوقع منهم أن يقوموا به؟.

٢ - بناء الاتصال :

أى النمط الذى يتم به نقل المعلومات خلال الجماعة أو المجتمع، ومن ثم الطرق التى يحتمل أن نشكلها للتأثير فى الآراء والاتجاهات وتغييرها. فمن المهم أن نعرف من يتكلم مع من؟ وكم من المرات؟ وما هو موضوع الكلام؟ وقد يكون من المفيد أن نبحث الصلة بين بناء الاتصال وبين المواضع الفيزيقية للمنازل، وللمؤسسات والمرافق العامة، ومنازل القادة، الخ...

٣ - بناء القوة :

من الذى يستمتع بالمكانة والسمعة والمسئولية ومصادر الثواب؟ وأى أنواع قادة الرأى يقوم بدور القيادة فى مختلف موضوعات التأثير، ومن هم ذوو النفوذ فى الجماعات ذات المعايير المعينة؟.

٤ - البناء السوسيومترى :

من الذى يختار من في موقف من المواقف؟ من هم الناس الذين يختلط بعضهم ببعض ويستمتعون بهذا الاختلاط؟ ما هو مدى العزلة فى الأجزاء المختلفة من المجتمع؟ من هم المعزولون والمنعزلون؟ أى نوع من الناس يسعى الى تكوين الصداقات ولو كانت خارج حدود جيرته؟ وأى نوع من الناس لا يكون صداقات الا مع جيرانه الاقربين؟ من ينضم الى الجمعيات المختلفة؟ وما صلة ذلك بيالمستويات الاقتصادية الاجتماعية؟ هل العلاقات الشخصية متجانسة من حيث السن والمكانة الاجتماعية؟.

٥ - المعايير الاجتماعية :

ما هى معايير الأداء؟ ما الذى يمكن وما الذى لا يمكن عمله؟ أى أنواع الجماعات: العمل، العائلة، الأصدقاء، الخ. يؤدى الى تكوين أى أنواع المعايير؟ وكيف تختلف الارتباطات باختلاف الموضوع والناس.

* الجماعة المرجعية :

يتأثر سلوك الفرد بالأفراد الآخرين بطرق مختلفة، وبدرجات مختلفة، فالفرد قبل أن يتخذ قرارا يضع فى اعتباره غالبا ما سوف يفعله، أو يقوله، أو يظنه أشخاص معينون. أو جماعات معينة، فى هذا القرار وذلك لاهتمام الفرد بآراء هؤلاء الأشخاص، أو تلك الجماعات. وهذا هو ما نقصده بمفهوم "الجماعة المرجعية" وتؤثر الجماعات المرجعية فى السلوك عن طريقين رئيسيين هما:

أولا : مستويات الطموح، فاذا كان الأفراد الآخرون فى الجماعة المرجعية للفرد (كالجيران مثلا) أكثر غنى أو شهرة أو كفاية، فان الفرد قد لا يرضى بمستواه، وقد يحاول أن يصل الى ما وصل اليه الآخرون، أى أن الفرد ينزع الى مقارنة نفسه بأفراد جماعة أخرى، ويكون احساسه بالحرمان منسوبا الى هذه الجماعة.

ثانيا : أنواع السلوك: تحدد الجماعات المرجعية أنماط استخدام العضو لثروته أو لشهرته، أو غير ذلك من أنواع السلوك. كما أنها تحدد المحرمات، وقد يكون لها القدره على طرد العضو من الجماعة .

ولا شك أن هذين النوعين من التأثير بينهما قدر كبير مشترك، وكلاهما يتضمن ادراكا معينا من جانب الفرد ينسب الى الجماعة المرجعية خصائص قد تتميز أو لا تتميز بها. كما أن كليهما يتضمن - سيكولوجيا - مكافأة وعقابا.

ويتوقف تأثير الجماعة المرجعية فى قرارات الافراد على عوامل كثيرة متشابكة يتعلق بعضها بالفرد، مثل شعوره او عدم شعوره بالامن فيما يتعلق بالجماعات المرجعية، وادراك موقف هذه الجماعات فيما يتصل بانواع السلوك المتوقعة او الاتجاهات نحو موضوعات معينه، ومدى معرفة الموضوع الذى يتخذ القرار بشانه. ويتعلق البعض الاخر من هذه العوامل بالموضوع الذى يتخذ القرار بشانه.

ومفهوم الجماعة المرجعية بهذه الصورة يكاد يكون امرا واقعا يسلم به الناس جميعا. الا أن علم النفس الاجتماعى، يهتم بتحديد وتحليل وتوضيح ما يتصل بهذا المفهوم من مشكلات بصورة يمكن معها الاستفادة منه فى مواقف معينة.

* انواع الجماعات المرجعية :

هناك أنواع متعددة من الجماعات التى يرجع اليها الفرد فى تقويم سلوكه منها:

١ - جماعات عضوية ينتمى اليها الفرد فعلا، وقد تتضمن هذه الجماعات:
(ا) جماعات المواجهة الصغيرة التى يسود فيها الارتباط الفعلى مثل العائلات او المنظمات سواء كانت منظمات عمل او منظمات دينية او اجتماعية او سياسية .
(ب) جماعات ينتمى اليها الفرد فعلا دون أن تتضمن زمالة شخصية فعلية (مثل عضوية جمعية تعاونية دون حضور اجتماعاتها)
وقد تكون هذه الجماعات الأخيرة من نفس الأنواع السابقة، ولكنها تختلف عنها فقط فى خلوها من الزمالة الشخصية والمواجهة .

٢ - فئات ينتمى اليها الشخص بصورة آلية بحكم سنه او جنسه او ثقافته او حالته الزواجية وما شابه وتتضمن هذه العلاقة الجماعية المرجعية مفهوم الدور، فمثلا، قبل أن يقوم الفرد بفعل معين ياخذ فى اعتباره ما اذا كان هذا الفعل متفقا مع دوره كرجل، أو كمتعلم، او كعمدة او كبير السن، او اى مجموعة معينة من هذه الأدوار.

٣ - جماعات متوقعة او منتظرة ، فمثلا اذا كان الشخص يطمح الى عضوية جماعة لا ينتمى اليها فعلا، فان الاحتمال فى ان يرجع الشخص اليها او ان يقارن نفسه بمعاييرها عند اتخاذه قرارا، اكثر من احتمال رجوعه الى معايير الجماعة التى ينتمى اليها فعلا، ويرغب في تركها. مثال ذلك الفلاح المعدم حين يطمح الى تملك قطعة ارض، او المرشح لمنصب النيابة او لعضوية جمعية من الجمعيات، او الموشك على الحج الخ.

٤ - قد تكون الجماعة المرجعية سلبية، وذلك حين يتجنب الفرد احيانا فعلا معينا، يرتبط بهذه الجماعة (سواء كان الفرد ينتمى اليها فعلا او لا ينتمى) التى يرغب فى الانفصال عنها. مثال ذلك جماعة العزاب بالنسبة للمقبل على الزواج، ومجتمع القرية لمن يريد الهجرة منها، الخ....

" خاتمـــة "

يبحث العلماء فى كافة مجالات المعرفة، عن نظريات لتفسر الأحداث والظواهر التى قد لا يبدو بينها أى رباط فى الظاهر. والتفسير هنا يعنى الفهم والاستيعاب. أى أنه من خلال النظرية تنتقل الظاهرة أو الحدث من عالم المجهول الى عالم المعلوم. اذ أنه فيما يتعلق بالمعرفة لا يوجد أمام العقل الا المعلوم والمجهول وما نشاط العقل، أى التفسير والفهم، الا نقل الوقائع والأحداث من دائرة المجهول الى دائرة المعلوم. ولكن النظريات اذ تفسر الاحداث والوقائع تخلق أيضا رؤية جديدة لها وبالتالى توجد فروضا جديدة وبحوثا جديدة وحقائق جديدة، وهلم جرا...

ولا توجد نظريات صحيحة وأخرى خاطئة، فلكل نظرية منطقها الذى تستند اليه، ولكن محك صدق النظرية هو نفعها، فهو المعيار الذى نحكم به على مدى صلاحيتها. ويعتمد هذا النفع على براعة النظرية فى تفسير الحقائق الموجودة ومدى خلقها لمعلومات جديدة. ولكن لا توجد نظرية لديها التفسير الشامل والكامل لكيفية وجود العالم الذى نعيش فيه بالطريقة التى يوجد بها. ولذلك توجد نظريات كثيرة فى مختلف العلوم، أى لا توجد نظرية واحدة تفسر كل ظواهر الفيزياء والكيمياء والحياة ....الخ وانما لكل فرع نظرياته المتعددة. لذلك فان كافة النظريات (أى تفسير الاسباب) تتعرض للانتقاد وتواجه التحدى، فتظهر دائما اسباب وتفسيرات جديدة لنفس الظاهرة، ومن ثم تعاد صياغة النظريات القائمة أو تقدم نظريات جديدة تماما. وفى حالة اعادة الصياغة فان الامر لا يخرج عن توسيع أو تقليص مداها، فاذا كانت النظرية مثلا غامضة أو غير دقيقة فانها تتغير فى اتجاه البساطة أو الاحكام اللفظى.

ويشبع الناس جوعهم الى المعرفة بطريقين، الطريق الأول هو ملاحظة البيئة ومحاولة تنظيم ما هو مجهول لديهم بطريقة معقولة ولها معنى وهذا هو العلم، والطريق الثانى اعادة تنظيم ما هو معلوم لديهم بحيث يخلقوا منه شيئا جديدا، وهذا هو الفن. وفى اعتقادنا أنه فى علم النفس الاجتماعى غالبا ما نمزج بين الطريقتين.

فقضايا علم النفس.. تتدخل فيها عوامل كثيرة بعضها ماثل أمامنا وبعضها لا نراه أو ندرى به، لذلك تتعدد النظريات بقدر ما يمكن للمؤلف ان يجمع بين المتغيرات، وهو جهد لن يصل الى نهاية فستظل هناك متغيرات مجهولة يسعى العقل الى ادخالها فى حظيرة المعلوم، ويقول بعض المتشائمين أنه عندما يصل العقل الى الاحاطة بكافة المتغيرات فستكون نهاية الكون، اذ لن يوجد عندئذ مبرر لبقاء العقل .

ومسألة علم النفس الاجتماعى، أى تأثر الفرد بالجماعة وامتثاله لمعاييرها أو تمرده عليها من المسائل المتعددة الأوجه لذلك لاتف نظرية واحدة بالتفسير الذى يحيط بكافة جوانبها ومن هنا كان اللجوء الى أكثر من نظرية تتناول كل منها عددا من المتغيرات المساهمة فى الظاهرة. ولا نقول أننا حللنا المشكلة، بل هى مجرد محاولة لابد أن تتلوها محاولات فباب الاجتهاد سيظل مفتوحا. ولعل النفع الذى يبدو لنا من هذه الرؤية الثلاثية لقضايا علم النفس الاجتماعى هو أنها قد تكون ذات فائدة عملية فى جعل علم النفس الاجتماعى أداة تيسر لأصحابه والمنتفعين به دفع عجلة التفاعل الاجتماعى نحو مزيد من سيطرة البشر على مقدراتهم، وتجنب مخاطر وضع أمورهم فى أيدى قادة لا يدرون شيئا عن وسائل تيسير العيش للجماعات المختلفة التى تكون مجتمعاتهم .

الفصل السابع
الاتجاهات والمعتقدات والقيم

* تمهيد : الشكل والمحتوى فى علم النفس الاجتماعى .
* معنى الاتجاه .
* تعريف الاتجاهات .
* مقارنة الاتجاه بالمفهومات المماثلة .
* ابعاد الاتجاه ومكوناته .
* تغيير الاتجاهات .
* قياس الاتجاهات .

* تمهيد : المحتوى والشكل فى علم النفس الاجتماعى

انصب معظم النقد الموجه الى علم النفس الاجتماعى على انه يهتم بالشكل لا بالمضمون . فالناس تؤثر فى بعضها البعض وتضع أهدافا ومعايير وقيما وتنتظم فى جماعات لا حصر لها من أجل ماذا؟ يجيب البعض أن هذا لا يهم فعلم النفس الاجتماعى يتناول الأشكال التى تتم التفاعلات بواسطتها وييسر لها حدوث ذلك التفاعل. أما محتوى التفاعل كتغيير نظم المجتمع أو تحقيق الانتصار فى حرب أو السيطرة على السلطة فى جماعة أو هيئة أو حزب.. الخ. فهذه أمور تتغير من مكان لمكان ومن زمان لزمان.. الخ أى أن علم النفس الاجتماعى يصبح شأنه شأن اجراءات التقاضى وهى الأجراءات التى تتبع فى كل الحالات سواء كانت الجريمة جناية أم جنحة والموضوع سرقة أم احتيالا أم قتلا.

أما البعض الآخر فيقول أنه فى العلوم الانسانية لا يمكن فصل الشكل عن المضمون. فالاتجاهات والمعايير والقيادة والتواصل والتفاعل انما تهدف الى غرض ما مثل سعادة المجتمع والأفراد والتقدم والرقى وتحقيق الحياة الطيبة والاستمتاع بالصحبة...الخ. فلابد من دراسة مضمون العقائد والمعلومات والتواصل حتى يمكننا فهم الموضوع الأساسى وهو التأثير الاجتماعى.

وفى رأينا أنه لا مجال لافتعال هذا التناقض، فلابد للتفاعل الاجتماعى سواء كان تعديلا للاتجاهات أو تيسيرا للتفاعل ...الخ، لابد له من عمليات وأشكال تحتويه، بمعنى أن التفاعل الاجتماعى لابد أن يتم فى أوعية وبواسطة عمليات (أشبه بالتفاعل الكيماوى). ولقد ذاعت ونمت تلك التناقضات المفتعلة خاصة فى مجال علوم الانسان والمجتمع وفروعهما حين كان الصراع بين الايديولوجيات الليبرالية والاشتراكية على أشده، وكان مجال العلوم الانسانية ومجال انتاج الاسلحة هما الميدانان الرئيسيان للمجابهة، الاول من أجل السيطرة على عقول البشر واتجاهاتهم وتجمعاتهم، والثانى من أجل السيطرة على مصادر الثروة والقوة. والآن، بعد أن اتضح أن الصراع فى ميدان تكنولوجيا السلاح سيؤدى الى الدمار الشامل وأن ازدياد الانفاق فى صنع السلاح سيؤدى (أو أدى فعلا) الى الافقار والبطالة، كما اتضح ايضا أن الصراع من أجل السيطرة على الاتجاهات يستحيل أن تنفرد به ايديولوجيا واحدة، أصبح لا مفر من أن يتحول علم النفس الاجتماعى (والعلوم الانسانية عامة) الى علم جديد، علم انسانى لدراسة الانسان وقضاياه المصيرية فى ضوء هدف جديد وهو اعادة بناء المجتمع الانسانى فى ضوء زيادة وتيسير عمليات التفاعل الاجتماعى واتاحة أكبر فرصة للمشاركة الحرة من جانب كافة أعضاء وجماعات المجتمع فى تقرير مصيرهم.

**** ****

لقد انتهينا فيما سبق من الفصول الى أن موضوع علم النفس الاجتماعى هو التأثير الاجتماعى، أى تيسير التفاعل بين الجماعات. فقد وضح لنا أنه ما أن تتكون جماعة حتى ينشأ لها هدف وتتوزع فيها الادوار وتبرز فيها القيادات وهذا هو ما سميناه بتفاعل الجماعة. ويتم هذا التفاعل فى مجال نفسى اجتماعى كما بين كورت ليفين، ويكون موضوع هذا التفاعل هو تبادل المعلومات والمصالح (التواصل) ومن ثم تبذل الجماعة ضغوطا على أفرادها لكى يمتثلوا لمعاييرها وقيمها حتى يتحقق الهدف. الا أن التفاعل لا يسير بهذه السهولة، فهناك رغبات فردية ونزعات عدوانية تدفع الأفراد للخروج على المعايير، وبالتالى يحتاج الأفراد الى تبرير أفعالهم من جهة، وتحتاج الجماعة الى وسائل لكبح جماح العدوان عند أعضائها من ناحية أخرى وهذا هو ما نسميه بديناميات الجماعة.

تأثر الفرد بالجماعة، اذن، هو عملية ديناميكية تتبادل فيها الأطراف مراكز القوة والضعف والتمرد والامتثال مستخدمة أساليب الاغواء والاقناع والترغيب والترهيب. وجوهر هذه العملية (المحتوى) هو تعديل أو تغيير العقائد والاتجاهات والقيم وذلك على أساس من التواصل وتبادل المصالح.

وموضوع علم النفس الاجتماعى هو الاتجاهات والعقائد والقيم، كيف تنشأ وكيف تتعدل. ويتم هذا النشوء والتعديل من خلال عمليات اجتماعية هى التواصل. والمختص فى علم النفس الاجتماعى هو العالم بكيفية قياس الاتجاهات، والمدرك لكيف يتم التواصل والتفاعل، والفاهم لديناميات الجماعة، كل ذلك فى اطار من استيعاب النشوء الاجتماعى للشخصية ومدى امتثالها للقيم الاجتماعية أو تمردها عليها.

* معنى الاتجاه :

من الأساليب العلمية التى تتبعها العلوم الانسانية خاصة علم النفس تقديم تصورات أو فروض تفسيرية (يطلق عليها أحيانا متغيرات) وهذه المتغيرات المفترضة تفسر لنا ما نشاهده من أنواع الثبات فى السلوك، أى تكرار نفس السلوك كلما تكرر الموقف، كما أنها تعمل على خلق توحيد أو تجانس بين ما قد يبدو من تضارب فى المعلومات.

ومفهوم الاتجاه هو أحد هذه التصورات التفسيرية اذ يعتمد عليه فى تفسير ما يشاهد من ثبات أو اتساق فى السلوك الاجتماعى.

والاتجاهات هى الناتج النهائى لعملية التنشئة الاجتماعية، وتؤثر بشكل ملحوظ على استجابات الانسان للمؤثرات الثقافية وللاشخاص الاخرين والجماعات. فاذا ما علمنا اتجاه شخص ما نحو موضوع أو فرد بعينه أو مجموعة من الاشياء أو الاشخاص فسيمكننا ذلك، بالاضافة طبعا الى معرفتنا بالموقف وغيره من الظروف الشخصية، من تفسير استجابة الشخص لتلك الموضوعات وكذلك التنبؤ بسلوك .

واذا ما تمكننا من ادراك القواعد التى تتغير الاتجاهات بموجبها فاننا سنستخدمها فى معالجة استجابات الشخص تجاه المسائل المهمة فى حياته، كالتربية والعلاج والاعلام. ولهذا السبب تقع مسألة الاتجاهات وتغييرها فى قلب اهتمامات علم النفس الاجتماعى وتكون هى والقيم والأهداف لب موضوع هذا العلم.

نستطيع تصور الاتجاهات باعتبارها حالة استعداد أو تأهب، حالة من الميل أو الحساسية لكى ندرك ونلاحظ ونختار ونتذكر ونستجيب لموضوع أو مادة (واقعية أو لفظية) بطريقة خاصة كلما صادفتنا. وهكذا فان الاتجاهات تؤثر على كل عملياتنا المعرفية وحالاتنا الانفعالية، وهى تسود أو تسيطر على جوانب هامة من حياتنا الاجتماعية كالدين والزواج والسياسة والعمل وأوقات الفراغ كما ان أثرها يبدو طويل الأجل وصعب التغير .

والاتجاهات هى نوع من التصورات أو المفهومات التى نطلق عليها فى علم النفس لفظ Coustruct أى بناء أو تصور نظرى، فهى تجريد لا يمكن لمسه أو تناوله مباشرة. انها أحد المكونات الداخلية لحياتنا العقلية وتعبر عن نفسها بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال عمليات أكثر وضوحا كقوالب التفكير الجاهزة Stereotypes والمعتقدات والتعبيرات اللفظية أو الاستجابات والأفكار والآراء والتذكر الانتقائى والغضب أو الرضى أو غير ذلك من الانفعالات وأنواع السلوك الظاهر. الا أن الروابط والصلات بين الجانب الظاهر أو المعبر والاتجاه الكامن هى علاقات مركبة وغاية فى الدهاء (كالعلاقة بين التعبير الواضح عن كراهية الجنس الآخر مثلا والاتجاه الكامن نحوهم). ولذلك لا يجب أن نفترض أن معرفتنا بالاتجاه تمكننا من استنتاج السلوك أو على العكس أننا نستطيع أن نستنتج الاتجاه بشكل موثوق به من ملاحظة السلوك.

ولعله مما يسهل لنا فهم هذا التصور النظرى أن ندرك الاتجاه من خلال "مستويات". فاذا كنا نقول بأن الاتجاهات "تكمن" خلف التعبيرات الاكثر سطحية مثل المعتقدات والآراء فلا شك أنه "تكمن" خلف الاتجاهات بالتالى أبنية أو تصورات أكثر عمقا وأشد دواما كالقيم وفلسفات الحياة وفى النهاية بعض نواحى الشخصية. وكلما تعمقنا ازدادت واتسعت التصورات التى نصادفها واشتد تأثيرها ونفوذها، كما تصير أشد ثباتا واستعصاءا على التغير. وهكذا نجد الشخص المتعصب للذكور من الناحية السطحية يعامل النساء باحترام بل وبمساواة وربما يبدى اعجابه بما تحققه سيدة ما، ولكن هذا لا يغير ما بداخله من تمييز الرجال على النساء، وقد يمكن ربط ذلك بنظام من القيم فيه ميل الى الاستبداد والتسلط وهذا يمكن ارجاعه الى نوع من الجمود والتصلب فى الشخصية.

وهناك جانب آخر هام من جوانب الاتجاه وهو أنه أى الاتجاه ليس "صندوقا مغلقا" معزولا عن غيره ، بل هو متصل ومتشابك صعودا ونزولا وطولا وعرضا بكل الاتجاهات الأخرى. فالاتجاهات تكون فيما بينها أنماطا أو نماذج ولكل فرد نمطه الخاص به والذى يخلق عنده نظرته الخاصة للحياة. الا أنه خلال تكون تلك الأنماط توجد عناصر مشتركة، ولذلك كثيرا ما نجد فى ثقافة ما أو فى ثقافة فرعية أنماطا متكررة لدى كثير من الناس. ففى المثال السابق"الشخص المتحيز للذكور"، لن ندهش مثلا اذا وجدنا مثل هذا الشخص يؤيد فكرة الحاكم العادل المستبد، أو يعارض فكرة طرد "نواب الكيف" من المجلس النيابى، ويحب الرياضات الخشنة (المصارعة الحرة) ومعيار الجمال عنده هو الضخامة...الخ. وكثيرا ما نطلق على أنماط معينة من الاتجاهات صفات أو شعارات مميزة مثل "يسارى" "رجعى" "تقدمى"...الخ. وبالطبع فان مثل هذه الانماط قد تتغير ولكن ببطء شديد وتختلف من ثقافة لأخرى.

ونلاحظ أيضا أن مثل هذه الأنماط "غير منطقية" بل قد تكون "لا عقلانية" فلا توجد أسباب مقنعة "منطقية" تجعل الشخص المتسامح يناصر مثلا الغاء عقوبة الاعدام أو المتعصب ضد الاقليات يؤيد فكرة الحزب الواحد. ان وجود مثل هذه الانماط يرجع الى وجود شبكة من الانسجة أو الخيوط "الاتجاهية" أكثر ارتباطا بالانفعالات وحاجات الشخصية من ارتباطها بالمنطق والتفكير العلمى. وعلى أى حال فان كثيرا من الاتجاهات التى نتبعها لا تنشأ من خبرتنا المباشرة أو نتيجة لتحليلنا للموقف بل غالبا ما نتبناها أو نستقيها من الآخرين ذوى الأهمية فى حياتنا كجزء من ثقافتنا وتنشئتنا الاجتماعية.

* تعريف الاتجاهات :

يستخدم تعبير الاتجاهات بعدة معان، فمنها ما هو نظرى ومنها ما هو اجرائى (أى يحدد المفهوم بطريقة الحصول عليه) ورغم هذه التنويعات فان هناك تعريفا متفقا عليه هو: وجود استعداد أو ميل حالى للاستجابة للموضوعات الاجتماعية، يعمل على توجيه السلوك الظاهر للفرد خلال المواقف بما تحتويه من متغيرات.

وهناك تعريفات أخرى لا بأس من ايرادها لتساهم فى جلاء المعنى.

* الاتجاه استعداد دائم متعلم للسلوك بطريقة متسقة تجاه فئة او مجموعة من الاشياء.
* الاتجاه نظام دائم من التقويمات السلبية والايجابية، والمشاعر والاحاسيس والميل الى اتخاذ موقف بالقبول او الرفض بالنسبة لموضوع اجتماعي ما.
* الاتجاه هو حالة عقلية عصبية من التهيؤ تنميها الخبرة ولها تاثير ديناميكي او توجيهي على استجابات الفرد لكافة الاشياء والمواقف التي له علاقة بها.
* الاتجاه الاجتماعي للفرد هو مجموعة من الاستجابات المتسقة المتعلقة بموضوع اجتماعي.
* الاتجاه هو موقف تقويمي، وهو حاصل جمع قوة المعتقدات عن الموضوع والجانب التقويمي لهذه المعتقدات. وتعني كلمة تقويمي درجة التفضيل (مرفوض/مقبول) لخصائص ذلك الموضوع.

وهذا التعريف الأخير يتضمن فكرة اجرائية اى يربط بين التعريف وكيفية الحصول عليه. ولذلك يعود فيعرف الاتجاه بانه نسق دائم تقريبا من الاستجابات التقويمية والوجدانية، يعكس الجوانب التقويمية التي تعلمها المرء عن خصائص الموضوع الاجتماعي، او عدة موضوعات.

ويرجع الخلاف بين هذه التعريفات الى خلافات في تصور فكرة الاتجاه. الخلاف الأول حول مسألة العمومية والخصوصية، اى هل الاتجاه يختص بـ ـئة معينة من الموضوعات ام انه عام؟ يرى البعض ان الاتجاه استعداد عام نافذ الى كل الموضوعات وهو اقرب الى ان يكون صفة شخصية، (اى ان الفرد على استعداد لاتخاذ موقف او سلوك من كل شيء يعرض له (في حياته). بنيما يرى البعض الاخر ان الاتجاه خاص بفئة معينة من الموضوعات. وهذا هو الرأى الغالب فلا معنى لجعل الاتجاه شيئا عاما بحيث يفقد قيمته.

المصدر الثاني للخلاف هو تعميم المفهوم بحيث يشمل اى استعداد للاستجابة لمختلف نواحي البيئة. فالاتجاه كما نراه في علم النفس الاجتماعي يتناول الاستعداد للاستجابة الى النواحي الاجتماعية من البيئة فقط، وقصر الاتجاه على الجوانب الاجتماعية أمر لابد منه حيث اننا نعني فقط بالتفاعل بين الأشخاص والجماعات وما ينتجه الأشخاص من مواقف واحداث وموضوعات. ولذلك نحن نستبعد التفاعل مع الأشياء المادية. والتفاعل مع الاشياء يكون اجتماعيا عندما تمتلك تلك الأشياء خصائص مثل الدافع والرغبة والقصد. اما صفات الأشياء المادية فلا تزيد عن الوزن والطول والملمس وبعض الخصائص الأخرى كتوصيل الكهرباء والحرارة.

وهكذا فان الانسان لا يوجد لديه اتجاه الا بالنسبة للاشياء والأحداث ذات الطبيعة الاجتماعية، فيجب على موضوع الاتجاه ان يمتلك خصائص يعتبرها الفرد صاحب الاتجاه ذات قصد ومعنى او على الاقل ناتجة عن نشاط له قصد ومعنى. لذلك تنشأ لدينا اتجاهات نحو الأعمال الفنية التي وضعها آخرون بقصد.

المصدر الثالث للخلاف يرجع الى الأساس النظرى فى فهم مكونات الاتجاه. فيرى البعض أن للاتجاه مكونات ثلاث هى: مكون انفعالى ومكون معرفى ومكون سلوكى. بينما رأى البعض الآخر أن الاتجاه يشمل التقويم والمقاصد . ويقول هؤلاء نحن نفضل أن نفهم الاتجاه على أنه مكون انفعالى وانما يقام على أساس من عمليات معرفية وتقويمية مرتبطة بالسلوك الظاهر. وهذه الفكرة، التى تجعل الاتجاه عملية تقويم بناء على معلومات، لها ميزة الربط بين المفهوم النظرى وعمليات قياس الاتجاه. فمقاييس الاتجاه تتكون من عبارات تحمل مواقف تتراوح من السلبية الى الايجابية بشأن موضوع الاتجاه ومنها نستنتج وجود تقويم سلبى أو ايجابى لدى الفرد ومن الطبيعى أن يكون هذا التقويم ذو طبيعة انفعالية. وهذا هو الاتجاه السائد.

* مقارنة الاتجاه بالمفهومات المماثلة:

تقع الاتجاهات ضمن مفهوم الشخصية، ولكنها تتميز عن غيرها من مكونات الشخصية بالآتى: أولا أنها نسبية وثانيا أن مرجعها أو مصدرها موضوع أو شئ محدد، بمعنى أن للاتجاه خاصية تتضمن وجود نوع من العلاقة بين الشخص وناحية أو جانب محدد من بيئته. وثالثا أن الاتجاه يختلف عن معظم مكونات الشخصية فى أن له جانبا تقويميا، ورابعا أن الاتجاهات ليست استجابات واضحة ظاهرة وانما هى استعداد للاستجابة، ولذلك فمن الضرورى أن نقيسها بشكل غير مباشر، وأن نميزها عن غيرها من التصورات المماثلة كالقيمة والمعتقد والدافع.

المعتقدات التى يعتنقها الأفراد هى نوع من وصف البيئة المحيطة بهم. وتنقسم الى نوعين: الاعتقاد "فى" شئ معين كالاعتقاد فى الله والأولياء والقديسين، والاعتقاد "بشأن" شئ ما. والاعتقاد فى الله أو فى "الحجر الأسود" (1) هى مسألة ايمان وبالتالى لا يمكن اختبارها تجريبيا أو منطقيا. أما الاعتقادات بشأن الأشياء مثل الاعتقاد بأنه لاصلاح للمجتمع الا بتغيير نظام الحكم أو أن ارضاع

1 - يروى عن عمر بن الخطاب أنه عندما أمر بتقبيل الحجر الأسود فى الكعبة قال" والله انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك".

الأطفال لبن الحمير يجعلهم يشبون أصحاء... الخ فهى تخضع للاختبار. أى أن هناك اعتقادات ايمانية يقينيه لا سبيل الى مناقشتها وهناك اعتقادات قابلة للمناقشة. ومن الواضح أننا فى علم النفس الاجتماعى لانتناول الا المعتقدات والاتجاهات والقيم القابلة للمناقشة.

أما الاتجاه فهو استعداد وتهيؤ من جانب الفرد للاستجابة والفعل، وهو تنظيم له درجة من الثبات النسبى لمعتقدات مترابطة تصف وتقيم وتدعم فعلا معينا تجاه موضوع أو موقف. ولكل اتجاه جوانب ثلاث: معرفى وجدانى وسلوكى، وهو استعداد يؤدى الى القيام باستجابة مفضلة، أى ميل للاستجابة بطريقة معينة يفضلها المرء، اذا ما توفرت له ظروف الاستثارة المناسبة. وهذه الاستجابة المفضلة قد تتجه الى موقف أو موضوع أو الى الآخرين الذين يشاركون المرء تفضيلاته أو الى تدعيم الاتجاه ذاته. وكما سبق لنا القول يميل معظم أصحاب علم النفس الاجتماعى الى اعتبار المكون الوجدانى أبرز مكونات الاتجاه ولو أنه يعتمد أيضا على المعرفة (المعلومات) وتقويم الموضوع أو الموقف (الانتقاد).

ويلزم هنا ايضا التفريق بين المعتقد والرأى، اذ أن الرأى غالبا ما يكون تعبيرا شفويا عن الاتجاه، ويكون الرأى العام هو التعبير الشفوى عن الاتجاه بشأن القضايا والأحداث العامة. ويمكن للآراء أن تعبر عن نفسها ايضا بطرق متعددة مثل الكتابة أو حركات الجسم وايماءات الوجه وما الى ذلك.

وتؤدى الاتجاهات عدة وظائف أو خدمات للفرد، فهى أولا تقوم بوظيفة معرفية، اذ انها تمكنه من تنظيم بيئته وذلك بانشاء نمط من الاستجابة لمجموعة من المنبهات المتشابهة (توفير الطاقة). وتقوم الاتجاهات أيضا بوظيفة الدفاع عن الأنا، اذ انها تحمى الفرد من المنبهات الخطرة، فاتجاه النفور من رجال الشرطة أو من ركوب البحر يحمى الفرد من الخطر الحقيقى أو المتخيل لرجل الشرطة أو عبور البحر. (امش سنة ولا تخطى قنا). وتساعد الاتجاهات الفرد على اقامة العلاقة بالآخرين من حيث انها تعبر عن قيمة فتوضح للآخرين أى شخص هو.

ويمكن تعريف القيمة بانها اعتقاد راسخ بأن سلوكا معينا أو طريقة للحياة ووضعا معينا فى الوجود افضل على المستوى الشخصى أو الاجتماعى من سلوك أو وضع آخر مختلف أو مضاد.

ونظام القيم Value System هو ترتيب متدرج (هيراركى) من المعتقدات وفقا لأهميتها بشأن أنواع السلوك أو الوجود المفضل يتسم بدرجة من الثبات والدوام. ويمكن تصنيف القيم الى فئتين، تنفيذية ونهائية. فأما القيم النهائية فهى الغايات المرجوة والحالات المنشودة للوجود كالسلام والعدل والمساواة والحرية والحياة السعيدة، وأما القيم التنفيذية أو الوسيطة فتنصرف الى أساليب السلوك وتتنوع أشكالها فمنها ما هو أخلاقى كالأمانة والصدق ومنها ما يتعلق بتحقيق الذات كالذكاء والكفاءة.

وتختلف القيم عن الاتجاهات فى أنها تتعلق باعتقاد واحد بينما الاتجاه هو تنظيم ثابت نسبيا لعدة معتقدات. وتدور الاتجاهات حول موضوعات أو مواقف أكثر تحددا بينما تضع القيم قواعد ومعايير عامة للسلوك. وبينما يكون لدى الفرد مئات الاتجاهات فان عدد القيم أقل بكثير. وقد حددها بعض الباحثين بأنها ١٨ قيمة نهائية ومثلها تنفيذية. وتحدد القيم اتجاهات الفرد وقد ينشأ الاتجاه الواحد عن عدة قيم.

ولابد فى النهاية من التمييز بين الدافع والاتجاه، فالدافع حالة حافزة تظهر وتختفى وتعود الى الظهور. أما الاتجاه فليس حالة حافزة، انه مقدمة أو اشارة الى احتمال استثارة حالة حافزة وموضوعاته أقل تحددا وتخصصا من الدافع. فعندما يرتبط موضوع ما بتخفيض حافز يميل السلوك الى التوجه نحو هذا الموضوع عندما يستثار الدافع مرة أخرى، أى أن الوضع يشبه حالة ارتباط بين الدافع والموضوع تكاد تكون شبه أوتوماتيكية. أما الاتجاه فيتميز بوجود مكون معرفى وآخر انفعالى.

خلاصة القول أن الاتجاه يتكون من استجابات انفعالية تجاه موضوع معين. وهو يستند الى بناء معرفى كامن يتعلق بذلك الموضوع. وخلال خبرة الفرد بالموضوع يكون مجموعة من المعتقدات والتصورات التقويمية عنه. وتنشأ تلك المعتقدات من الخبرة المباشرة أو غير المباشرة وتكون ذات علاقة بالسعى الى الهدف الذى يريده الفرد. ويصبح الاتجاه بهذا الشكل تهيؤا أو استعدادا ليتصرف بشكل معين ازاء الموضوع.

* ابعاد الاتجاه :

بعد اتضاح الدور الهائل الذى تلعبه الاتجاهات فى حياة الفرد الاجتماعية أصبحت موضوعا لبحوث كثيرة كشفت عن خصائصها المتعددة والتى يمكن اجمالها فيما يلى:

(١) تقوم الاتجاهات على أساس من تقييم خصائص موضوع الاتجاه، وتستثير سلوكا موجها. وللاتجاه نتائج سلوكية متنوعة حركية وفسيولوجية ولفظية وغير لفظية. وللسلوك الاتجاهى بعدان أحدهما هو السلبية - الأيجابية والآخر هو النفور - التجنب. وبذلك تكون هناك أربعة فئات من السلوك الاتجاهى هى: التوجه السلبى كالهجوم، والتوجه الأيجابى كالتودد، والتجنب السلبى كالابتعاد والخوف والتجنب الأيجابى كعدم التدخل فى شئون الآخرين. وهذه الفئات الأربعة هى الأبعاد المفترضة للاستجابة الانفعالية. ولا تقيس مقاييس الاتجاه بعد النفور والتجنب وانما تقيس فقط بعد السلبية - الأيجابية.

(٢) تتوزع شدة الاتجاه ونوعيته بين قطبين هما الايجابية والسلبية مرورا بالموقف المحايد. وتقدر نوعية الاتجاه بمدى تقويم الموضوع من حيث المساعدة على تحقيق الهدف (مع/ضد). أما شدة الاتجاه فيعبر عنها بمدى الأيجابية أو السلبية انطلاقا من الموقف المحايد. والايجابية هى موقف مؤيد أما السلبية فهى موقف معارض. وينظر الى الاتجاه على أنه يمتد على متصل من الايجاب الى السلب مرورا بالموقف المحايد. وعلى هذا يكون الاتجاه على أحد جانبى المتصل ممثلا للاستجابات الانفعالية السلبية والتى تثير توجهات سلبية كالتجنب أو الهجوم أو التقزز، بنيما تمثل الاتجاهات على الجانب الآخر من المتصل وجدانات ايجابية تؤدى الى استجابات ايجابية كالرضا والتودد والقبول أو تجنب ايجابى كالامتناع عن الضرر والأذى. وتثير النقطة المحايدة أو الموقف المحايد استفسارا... فما هو الموقف المحايد ؟ يرى البعض أنه لا يوجد موقف محايد، فاتخاذ موقف معناه الأيجاب أو السلب. ويرى البعض الآخر أنها نقطة توازن بين تقويمين متضادين وبالتالى فانها تعكس موقفا فيه ثنائية الوجدان. وعلى أى حال فمن الناحية العلمية، أى من ناحية قياس الاتجاه تعتبر نقطة الصفر أى الموقف المحايد نقطة توازن لا هى بالمؤيد ولا هى بالمعارض.

٣ - يتفق أصحاب علم النفس الاجتماعى على أن الاتجاهات متعلمة أكثر من كونها فطرية أو ناتجه عن النمو الجسمى والنضج.

٤ - للاتجاهات مصادر أو مراجع اجتماعية محددة . وقد تكون هذه المصادر أشياء مادية ملموسة أو مسائل مجرده كالسياسة والأخلاق.

٥ - تمتلك الاتجاهات فيما بينها درجات متنوعة من الترابط. وهناك اتجاهات محورية أو مركزية ترتبط بها عدة اتجاهات أخرى وهناك أخرى محيطية. ويأتى هذا الارتباط من تشابه المصادر وكذلك من تشابه القيم. وكلما كان الاتجاه مركزيا صعب تعديله، بسبب قيمته المرتفعة لدى صاحبه.

٦ - الاتجاهات أميل للثبات ومقاومة التغير. فالاستعدادات الوجدانية تتغير بصعوبة وغالبا ما يرجع ذلك الى الترابط فيما بينها وأن لها تاريخا من التعزيز خلال تعلمها، كما أن قاعدة ثبات المدركات تقوم بدور كبير فى مقاومة التغير.

* تعديل الاتجاهات وتغييرها :

لقد وصلنا الى اقتناع بان جوهر عمليات الامتثال لمعايير الجماعة هو تعديل او تغيير الاتجاهات والمعتقدات والقيم. اذ يعمل النظام الاجتماعى على الابقاء على التماسك عن طريق احتواء قيم الافراد فيوفر للناس ادوارا تشجع على التعبير عن تلك القيم وتهيىء الظروف المواتية لمزيد من التعبير.

ولذلك تعتمد الضغوط الاجتماعية على خلق نوع من الحث او الحض او الاغراء او الاقناع (او ما سميناه قبل ذلك بالترغيب) يسمح للفرد بتعديل اتجاهاته وتغييرها دون مساس بفرديته بل وبرضى وطواعية بحيث يبدو الامر وكأنه نابع من ذاته، وهذا هو الدور الذى يقوم به التواصل وتبادل المعلومات. فحقيقة الامر ان الامتثال يجب ان يصدر عن قرار يتخذه الشخص بملء ارادته ولكن العمليات التى تساهم فى اتخاذه لقراره هى عمليات تساهم فيها الجماعة - كما راينا - مساهمة كبيرة، فلا يوجد فى الحقيقة قرار "يتخذه الشخص بملء ارادته" بل ان كافة القرارات التى يتخذها الافراد والجماعات تبدو "وكأنها" صادرة عما نسميه بالارادة الحرة.

والسبب فى ذلك يرجع الى العملية التى نتلقى بها المعلومات ونرمزها encode (نكودها) وندمجها مع باقى المعلومات المختزنة لدينا وهو ما اسميناه "طبخ المعلومات "Data Processing". وسبق ان اشرنا الى ان عملية طبخ المعلومات الاجتماعية هى العملية المعرفية الاساسية التى تكون جوهر التأثير الاجتماعى. فما هى المعلومات الاساسية التى يتم طبخها؟ انها معلومات عن الاشخاص الذين نتعامل معهم، وتدور حول مسألتين الاولى ماكنه هذا الشخص؟ والثانية: لماذا يتصرف بهذا الشكل؟. الاولى هى مسألة تكوين الانطباعات عن الآخرين اى معرفتهم والثانية هى البحث عن اسباب تصرفاتهم، فلن يهدأ الانسان حتى يعزو السلوك الى اسبابه.

* ادراك الآخرين :

راينا كيف ان مدركاتنا وذكرياتنا عن الاشياء والأحداث ليست مجرد انعكاس مباشر لها، كما لو كانت صورة فى مرآة، انها غالبا ما تكون اعادة بناء او تركيب مبسطة ولكنها فى غاية الترتيب والنظام لتلك المدركات وليست صورا فوتوغرافية لها، او قوائم مفصلة بكل دقائق الموقف. ونحن نطلق على تلك التركيبات المخططات او الصور الاجمالية او الاسكيما SCHEMA. نحن اذن نكون صورا اجمالية لكل ما يقع على حواسنا من مؤشرات ثم نقوم بعملية دمج او توفيق بين المؤثرات الجديدة (المعلومات) وما يوجد لدينا من صور اجمالية وهذه هى عملية طبخ المعلومات Information Processing وهذه العملية هى التى تساعدنا على تنظيم وتجهيز الكميات الهائلة من المعلومات المتدفقة علينا بكفاءة عالية. فبدلا من ان نتمعن كل شىء او حدث او معلومة جديدة نحيلها الى تلك الصور الاجمالية اى نرى مدى تشابهها مع صورة او اكثر من تلك الموجودة لدينا وبالتالى لا نحتاج الى ترميز او تذكر كل صفاتها وانما تلك الصفات الأكثر بروزا. وتتم عملية الطبخ هذه بسرعة وبشكل اوتوماتيكى لدرجة اننا لا نحس بها.

هذا هو باختصار الادراك الاجتماعى، حيث تكون المنبهات كثيرة التعقيد وحمالة أوجه ويحتاج المرء الى اتخاذ القرار بسرعة وهكذا يستعين بالاسكيمات الكثيرة الموجودة لديه من قبل. ولدى كل فرد منا الكثير من تلك الصور الاجمالية الاجتماعية، فلدينا صورة الرجل الطيب وصورة الذهاب الى حفلة عيد ميلاد رئيس فى العمل، وصورة التعامل مع الباعة.... الخ. وهذه الاحالة هى المرحلة الأولى من تكوين الانطباعات عن الآخرين، وتتلوها بعد ذلك صور اكثر تخصصا كلما زادت معرفتنا بالشخص، وهكذا توجد لدينا صور اجمالية لأنفسنا ولرؤسائنا وآبائنا والمهمون فى حياتنا....الخ .

وتدل البحوث على أن تلك الاسكيمات تساعدنا فى طبخ المعلومات الاجتماعية. ولكن لأن تلك الاسكميات هى فى نهاية الأمر تبسيطات أو تلخيصات للواقع فان لها ولعملية طبخها بعض النواقص تنشأ نتيجة لها ما نسميه بالتحيزات الاجتماعية .

الا ان الذاكرة، وهى مستقر الاسكيمات تعمل على سد ذلك النقص. ولابد من الاشارة هنا الى أن للذاكرة ثلاث وظائف هى الترميز والتخزين والاسترجاع ولها ثلاثة أنماط هى الذاكرة قصيرة الأمد والمتوسطة والطويلة.

وبالنسبة للمؤثرات السمعية والبصرية، نحن نميل- كما بينت مدرسة الجشطالت- الى "اغلاق" و"اكمال" هذه المؤثرات بحيث نسيطر على معناها، وغالبا ما نفعل ذلك باضافة متعلقاتها اليها، فحينما نسمع جملة او حكاية نضيف اليها دائما ما يجعلها بالنسبة لنا شيئاً مفهوما. وهكذا تذهب الذاكرة عادة الى ما هو أبعد من الموضوع أو المعلومات الأصلية سواء كانت لفظية أم تصويرية.

أما الوسيلة الثانية التى نسد بها النقص الطبيعى فى تكوين الاسكيمات فهى قوالب التفكير الجاهزة Stereotypes أو ما يطلق عليه الصور الذهنيه الجامدة. وهذه الصورة هى "حزمة" من المعلومات عن سمات شخصية وصفات جسمية نعتقد انها تنطبق على فئة من الناس أو طبقة بكاملها واحيانا أمة بأسرها. فلدينا صور لا تتغير عن البرود الانجليزى أو بخل أهل الشواطىء...الخ وغالبا مالا تنطبق هذه الصورة على الكثير من أبناء تلك الفئة أو الجماعة، بل قد تؤدى الى مواقف سخيفة وتفسر التفاعل الاجتماعى بل والذاكرة، اذ أن لها أثرا رجعيا، فقد نسمع أو نرى معلومة محايدة أو ايجابية عن شخص ما ثم نكتشف بعد ذلك أنه ينتمى الى جماعة لدينا بشأنها صورة ذهنية جامدة فنتحول عن التأثير الايجابى أو المحايد الى تكوين انطباع سلبى مما يشوه صورة الشخص ويخلق انطباعا مخالفا للواقع .

والصور الذهنيه الجامدة هى نوع من الاسكيما ولكنها تصف جماعة من الناس فالاسكيما تتعلق بالأحداث والوقائع أما قوالب التفكير الجاهزة فتتعلق بالاشخاص والجماعات. ولما كانت القوالب الجاهزة هى ناتج طبيعى لطريقتنا فى التفكير، فان دخول التحيزات والتحريفات الى تفاعلاتنا الاجتماعية يكون أمرا طبيعيا ويصبح من واجب علم النفس الاجتماعى أن يبحث عن الوسائل والأساليب التى تصحح مسار التفاعل أو تعادل أثر التحريف الذى يتبدى فى التحيز والتعصب.

* تفسير سلوك الآخرين :

رأينا أن تكوين الانطباعات عن الآخرين هو أولى ركائز التفاعل الاجتماعي، أما الركيزة الثانية. فهي فهم معنى السلوك ومعرفة أسبابه. وغالبا ما تكون أسباب السلوك غامضة جدا، فلا زلنا حتى اليوم مثلا لا ندرى أسباب السلوك المرضى على وجه التحديد، وكل ما لدينا هو افتراضات محتملة وتوجد عدة نظريات تفسر أشكال السلوك المرضى مثل الهلاوس السمعية والبصرية والأفكار المتسلطة....الخ.
أما بالنسبة للسلوك السوى العادى الذى نمارسه كل يوم فى تفاعلنا مع الآخرين فمن المطلوب لكى يتم التفاعل ويحقق الفائدة المرجوة منه أن يفهم جميع المشاركين فيه أسباب حدوثه وأسباب السلوك الذى يقوم به كل فرد من المشاركين.
واصبحت دراسة ارجاع السلوك الى أسبابه، أو الأسباب التى نعزو اليها ما نلاحظه من تصرفات الآخرين حيالنا من المسائل المهمة فى علم النفس الاجتماعى وهدفها هو اكتشاف القواعد التى نستخدمها للوصول الى الأسباب والأخطاء التى يحتمل أن نقع فيها عند القيام بذلك.

* نظرية الاسناد Attribution theory :

قبل أن تقبل رياح الخماسين قرب "شم النسيم" فى مصر ويمتلىء الجو برائحة الغبار، يصاب بعض الناس بنوع من الحساسية فى عيونهم وأنوفهم، وقد يصابون أيضا "بالهرش" أو الارتيكاريا، ومن ثم يقولون "هلت بوادر شم النسيم".
انهم يعزون ما يصيبهم من أعراض الى ملاحظة مألوفة لهم وهى انها تظهر مع بداية موسم رياح الخماسين وتختفى بانتهائه وهم بذلك يفسرون ما يحدث لهم وفقا لقاعدة معروفة هى "تلازم التغير"، فالتغير فى الجو يصاحبه ظهور "الحساسية".
ولكن اذ ظلت الحساسية أو ا. تيكاريا بعد زوال موسم الخماسين فغالبا ما سيقرر الفرد أن رياح الخماسين وما تثيره من غبار ليس السبب فيما يصيبه وهنا يستخدم قاعدة ثانية فى التفسير وهى أن ما أصابه شىء متميز ولا يرجع الى السبب الذى توهمه، وهذه هى قاعدة التميز.

طريقة ثالثة فى التفسير هى الاضطراد أو الاتساق، فاذا لاحظت ان العرض يتكرر فى كل موسم خلال السنوات الثلاث الأخيرة مثلا، فانك ستصبح متأكدا أن ما يصيبك يرجع الى تلك الظاهرة (الخماسين). ولكن اذا كانت تصيبك لأول مرة فانك تكون فى حيرة من أمرك ولا تستطيع أن تؤكد اذا كانت الحساسية ترجع الى الخماسين أم لا.
وفى النهاية تذهب الى الطبيب الذى يقول لك أن حالتك شائعة ومعروفة وانه رأى اليوم عدة حالات مشابهة، وأنها تظهر عموما مع بدء رياح الخماسين وتنتهى بنهايتها، هنا نستخدم قاعدة أخرى فى التفسير وهى الاجماع أو اتفاق رأى الجماعة.

وهكذا يلجأ الفرد الى عدة أساليب ليفسر سلوكه حتى يصل الى سبب يهدىء روعه وييسر له عملية التفاعل الاجتماعي. وكل الأساليب التي ذكرناها هي طرق شبه علميه للاستدلال. ولدينا قاعدتين نلجأ اليهما في التفسير تلازم التغير covariance وقاعدة الاستبعاد discounting .

ووفقا للقاعدة الأولى (تلازم التغير) نحن نستخدم ثلاثة محكات: الأول، هل الأثر والسبب المحتمل يتغيران معا؟ أم أن الأثر يتغير وحده دون تغير السبب؟ وهل يحدث التغير في الأثر كلما حدث تغير في السبب (الاضطراد) وهل يحدث لبقية الناس نفس الأثر (الاجماع) ونحن نستخدم هذا المنطق في تفسير سلوكنا الشخصي وكذلك في تفسير سلوك الآخرين. فاذا افترضنا أن (س) من الناس تناول عشاءه في أحد مطاعم السمك التي افتتحت حديثا وأصبح لا يمل اطراؤه والحديث عنه. فهناك ثلاثة أسباب محتملة لسلوكه هذا: أولا، المطعم نفسه فربما كان الطعام فاخرا والخدمة ممتازة. ثانيا الشخص نفسه فربما كان (س) يحب أكل السمك حبا جما - أما الاحتمال الثالث فهو الموقف الذي تناول فيه الطعام يجوز انه كان بمناسبة عيد ميلاده، أو لأن مشاهير النجوم كانت هناك يوم تردد عليه. ولكي نتأكد من صحة التفسير فسنرجع الى المحكات الثلاث التي سبق ذكرها، التميز والاضطراد والاجماع. فاذا كان (س) لم يمدح من المطاعم الا هذا المطعم (التميز) ولا يمل الحديث عن جودته كلما أكل فيه (الاضطراد) كما أن أصدقاءه ممن نصحهم بالذهاب اليه قد وافقوه على رأيه (الاجماع) فلابد أن هذا المطعم متميز وعظيم حقا. ويتطابق التفسير مع الظاهرة. ولكن اذا كان (س) يمدح كافة مطاعم الأسماك معظم الوقت في حين لا يفعل ذلك أحد غيره فنحن غالبا سنعلم من سلوكه أشياء عنه اكثر مما نعلم عن المطعم. أما اذا كان (س) لم يمتدح مطعما من قبل بما في ذلك نفس المطعم، كذلك لم يمتدحه أحد من أصدقائه فغالبا ما سنستنتج أن موقف تناول الطعام نفسه هو الذي لون نظرته الى المطعم.

وتؤيد نتائج البحوث ما تذهب اليه هذه النظرية من أن معظم الناس في الواقع تستخدم تلك المحكات بهذه الطريقة .

* قاعدة الاستبعاد :

السلوك الانساني ظاهرة متعددة الأسباب ولا يمكن أن نعزوها الى سبب واحد بل غالبا ما ترجع الى كثرة من الأسباب فسلوك السيد (س) في المثال السابق يرجع الى عدد من الأسباب التي ذكرت. وعندما نرى مثلا الممثل عمر الشريف يظهر في اعلان عن نوع معين من "السجاير" فنحن نعزو سلوكه لا الى محبته لذلك النوع وانما لانه "قبض" . ولذلك نحن نستبعد اتجاهاته الحقيقية كسبب لظهوره في الاعلان. وهذه القاعدة العامة نطلق عليها قاعدة الاستبعاد ومؤداها "يغفل أو يستبعد دور أي سبب في احداث أثر معين، اذا وجدت أسباب أخرى أكثر مصداقية ومعقولية".

وهكذا نجد لدينا قاعدتين لتفسير سلوك الآخرين هما تلازم التغير والاستبعاد. وهما قاعدتان لهما منطق ويتفقان مع الطريقة العلمية. ومع أن الأمثلة التي ذكرناها تؤيد ماتذهب اليه من أن معظم الناس يسلكون هذا المسلك، الا أن البحوث بينت أننا : "نطبخ" المعلومات دائما بهذه الطريقة، فغالبا ما نستخدم تلك القواعد بطريقة خاطئة أو ناقصة. وتميل البحوث الى القول بأن القاعدة التي نميل دائما لاهمالها هي قاعدة الاستبعاد .

* التحيز الشخصى فى اسناد الأسباب :

توضح الامثلة السابقة أن أحد المهام الكبرى الملقاة على عاتقنا فى كل يوم هى تقرير ما اذا كان السلوك الذى نلاحظه يكشف عن شىء فريد فى الشخص الذى نتفاعل معه (أى يبين شخصيته أو مميزاته ...الخ) أو يكشف شيئا عن الموقف الذى تمت فيه ملاحظة السلوك. فاذا استنتجنا أن شيئا ما فى شخصية الفرد هو المسئول الأول عن ذلك السلوك (أن عمر الشريف يدخن ويحب سجاير مارلبورو) وهذا الشىء هو ما يمكن أن نسميه الطبع (وتعبير طبع يحيط بالعقائد والاتجاهات والسمات الشخصية) فان هذا الاستنتاج يسمى اسنادا داخليا. أما اذا وصلنا الى أن هناك سببا خارجيا هو المسئول الأول عن ذلك السلوك كالمال أو التهديد (كما هو الحال مع بعض الناس الذين يعترفون بجرائمهم على شاشات التليفزيون) أو صلابة المعايير الاجتماعية والقيم فعندئذ يقال ان الاسناد خارجى أو موقفى.

وقد لاحظ مؤسس نظرية الاسناد الحديثة " فريتز هيدر " أن سلوك الفرد الفعلى له سطوة ترغم الملاحظين على قبوله على ما هو عليه، أى فى شكله السطحى الظاهرى، ولا يقيمون وزنا كبيرا للظروف والأحوال التى تحيط به (الاستبعاد). وتؤيد البحوث صحة ما ذهب اليه هيدر، فنحن نقلل عادة من قيمة الأسباب الموقفيه ونقفز بسهولة الى استنتاجات بشأن طبع الشخص، وأطلق على هذا التحيز الخطأ الاسنادى الأساسى Fundamental attribution error وقد أجريت تجربة طريفة فى هذا المجال، فدعيت جماعة الى الاستماع الى حديث يلقيه شخص ما عن مزايا التفرقة العنصرية وقيل لهم أن هذه تجربة وأن الكلام الذى سيلقيه الشخص مفروض عليه. ورغم ذلك فعندما سئلوا عما يعتقدونه بشأن اتجاهات المتحدث وميوله نحو مسألة التفرقة العنصرية استنتج البعض أنه مناصر للتفرقة العنصرية، مع أنه ألقى موضوعه من ورقة وكان يقرؤه بشكل ممل .

* اتساق وتنافر المعتقدات والسلوك والاتجاهات :

نلاحظ فى الحياة اليومية أن اتجاهات البشر تبدو متسقة ومنسجمة مع بعضها البعض ولكن أساس ذلك الاتساق لا يكون فى العادة منطقا صارما وانما هو أقرب الى المنطق النفسى وذلك المنطق هو الذى يدرسه علم النفس الاجتماعى تحت اسم الاتساق المعرفى Cognitive Consistency والمسلمة الأولى فى الاتساق المعرفى هى اننا جميعا نسعى الى خلق انسجام وتآلف بين معتقداتنا واتجاهاتنا وسلوكنا، وأن عدم الانسجام والتآلف بينها يخلق حالة من التوتر أو الاستثارة تدفعنا الى تعديل أو تغيير هذه المكونات حتى تعود متسقة بل قد تصل الى حد التآلف المنطقى .

وقد أجريت تجارب عديدة لاظهار مدى الاتساق بين المعتقدات وبين الاتجاهات، ومدى خضوعها للمنطق، وارجع بعض الباحثين درجة تآلف الاتجاهات واتساقها الى انها تستمد أو تستخلص من مجموعة جذرية من القيم ويعتبر "روكيتش" أن القيمة هى اتجاه أساسى نحو بعض أساليب السلوك العامة مثل الأمانة والشجاعة والصداقة..الخ، أو أنها حالات مرغوبة للوجود الانسانى كالمساواة والحرية وتحقيق الذات، وتعتبر القيم بهذا الشكل نوعا من الاتجاهات ولكنها غايات ترتجى وليست وسائل. فالقيم حالات وأوضاع نبتغيها والاتجاهات هى وسائلنا لتحقيقها كما يرى روكيتش، وأن معظم الناس يعتنقون نفس القيم وانما تتبع الاختلافات من درجة الأهمية التى يعلقونها على تلك القيم. وقد بينت دراسات روكيتش عن القيم والاتجاهات أن وجود التنافر أو عدم الاتساق يؤدى الى تغير الاتجاهات وأن الناس تسعى الى ايجاد الاتساق بين اتجاهاتها وقيمها.

أما الاتساق بين المعتقدات والاتجاهات فهو أمر مألوف فى حياتنا اليومية. فاذا اعتقدنا ان السفر بالقطار أكثر أمانا من السفر بالسيارة فستنشأ لدينا اتجاهات ايجابية ومواتية للقطارات ومحطات السكك الحديدية وفى هذه الحالة تبدو اتجاهاتنا ناشئة بشكل طبيعى من المعتقدات التى تؤيدها. ويترتب على ذلك أنه كلما اعتقد المرء فى صحة شيء اتجهت افكاره الى اعتبار ذلك الشيء مرغوبا ومفضلا. وعندما يتغير الاعتقاد فى شيء - نتيجة للترغيب والحض - فان درجة تفضيله تتغير كذلك. وهذا النوع من الاتساق يطلق عليه اصحاب علم النفس التبرير، noitazilanoitar، فنحن نزين لانفسنا ما نعتقد فى صوابه. وعكس ذلك صحيح ايضا فاعتقادنا أننا نفضل أو نرغب شيئا، يترتب عليه أن نقنع أنفسنا بصوابه أى ما نرغبه نقنع أنفسنا أنه صحيح، وهو ما نطلق عليه التفكير الذى يحقق الأمانى Wish full thinking أى تطابق الأفكار مع الرغبات ومثاله "اللى يخاف من العفريت يطلع له".

وبينت البحوث أيضا قدرة الاتجاهات على تعديل وتغيير المعتقدات، فالوظائف أو الخصائص الانفعاليه للاتجاهات تؤثر على الوظائف المعرفيه، فنحن نعدل معتقداتنا ومعارفنا عن طريق "التبرير" و "تحقيق الامانى" مثلما نعدلها عن طريق المنطق والاقناع العقلى.

* والآن ما هى درجة التطابق بين الاتجاهات والسلوك ؟

لعل أحد الأسباب التى تدعونا لدراسة الاتجاهات هو ما نتوقعه من أن ذلك يمكننا من التنبؤ بالسلوك. وما دراسات استطلاع الرأى العام واتجاهاته فى التنبؤ بسلوك الناخبين الا دليل قوى على الاقتناع السائد بأن اتجاهات الشخص تحدد سلوكه. ولكن توجد حالات اخرى يسلك فيها الشخص سلوكا مخالفا لاتجاهاته تحت ضغط وتاثير العادات والتقاليد أو ما نسميه بالأدب والتهذب أو غير ذلك.

فالسلوك فى الحقيقه يتأثر بعوامل عديدة لا تكون الاتجاهات الا واحدا منها. ومن هذه العوامل قلة الاختيارات المتاحة فى الموقف، وشدة الاتجاه نفسه وكذلك درجة ارتباط الاتجاه بالسلوك.

وقد أدى رسوخ فكرة اتساق الاتجاهات مع المعتقدات والقيم وتفسيرها لدور الاتجاهات فى تعديل السلوك الى ظهور نظرية التنافر المعرفى التى تفسر دور السلوك فى تعديل الاتجاهات وتغييرها.

" نظرية التنافر المعرفي Cognitive dissonance"

وهي النظرية التي وضعها ليون فستنجر (١٩٥٧) ومؤداها ان ما يدفع المرء الي تعديل أو تغيير اتجاهه هو وجود حالة من التنافر المعرفي، أى اعتناق الفرد لفكرتين (أو اتجاهين أو رأيين) لا يمكن الجمع بينهما من الناحية النفسية، أى انهما على طرفي نقيض. ويؤدى هذا التنافر الى ضيق نفسي يخلق توترا لدى الفرد يدفعه الى محاولة التقليل منه أو القضاء عليه. وهي فكرة منقولة عن نظرية دوافع السلوك التى تفترض أن حالة الجوع مثلا تخلق توترا يدفع بالمرء الى السعي للحصول على الطعام. ولكن وجه الاختلاف أن القوة المحركة في حالة التنافر المعرفي دافع نفسي بينما هى دافع فسيولوجي فى الحالة الأولى.

ان اعتناق الفرد لفكرتين متضادتين أو بتعبير آخر اختلاف معتقداته واتجاهاته عن سلوكه معناه ببساطة أن الحياة عبث. وكما يقول الكاتب والفيلسوف الفرنسي البيركامي "البشر كائنات تنفق حياتها فى محاولة اقناع نفسها أن وجودها ليس عبثا".

فكيف نقنع أنفسنا بأن وجودنا ليس عبثا؟ أى كيف نخفض التنافر المعرفي؟ وبالتالي تتسق اتجاهاتنا مع أنواع سلوكنا. تتعرض نظرية التنافر المعرفي لعدة أنواع من التنافر ولكن أبرز ما تناولته هو ذلك التنافر الذى يؤدى الى قيام الفرد بسلوك يتناقض مع اتجاهاته، ومن ثم تتعدل الاتجاهات حتى تتسق مع السلوك. وترى النظرية أنه كلما زاد تناقض السلوك مع الاتجاه برز التنافر واضحا ومن ثم يحدث أكبر قدر من تغيير الاتجاه. وقد أجرى فستنجر وكارل سميث تجربة رائدة خرجا منها بنتيجة أن السلوك المؤدى الى التنافر المعرفي يقود الى تغير فى الاتجاه عندما يمكن استثارة ذلك السلوك بأقل قدر من الضغط سواء كان ذلك الضغط ثوابا أم عقابا . وقد أثارت تلك النظرية قدرا كبيرا من الجدل والبحث. وهي نظرية تعتمد كما قلنا على الدافعية، فعدم الاتساق بين السلوك والاتجاهات الموجودة سلفا لدى المرء تدفعه الى تغيير الاتجاه. وعلى العكس من ذلك توجد نظرية ادراك الذات self perception والتى تقول أن الاتجاهات ليست بذات أهمية وانه لا يحدث أى توتر عندما يتناقض السلوك مع الاتجاه، والناس لا تغير اتجاهاتها وانما هى تلاحظ سلوكها وتستنتج منه اتجاهاتها حيث أن الشيء الذى يمكن ملاحظته هو السلوك الظاهرى. ولا توجد أى عمليات دافعية متضمنه فى ذلك.

وعلى أى الأحوال فان هناك بعض أصحاب علم النفس وغيرهم وخاصة علم السياسة لا يعتمدون على فكرة اتساق الاتجاهات والمعتقدات والسلوك، وانما يرون أن الكثير من أرائنا ليست جزءا من نظام متسق للقيم والمعتقدات وانما توجد الاراء كجزيئات أو جزر معزولة وأن كل رأى يتكون من اعتقاد واتجاه وادراك للدعم الاجتماعي الذى يناله ذلك الرأى .

" قياس الاتجاهات "

القياس هو تحويل الصفات أو الأشياء أو الأحداث أو الوقائع وفقا لقاعدة معينه أو عدة قواعد الى أرقام. ونحن عندما نحاول قياس الاتجاه نعمل على وضع أو تعيين درجة رقمية لشخص ما وفقا لعدة قواعد نرمى من ورائها الى خلق تشابه أو تماثل بين الرقم المخصص وبين اتجاه الشخص نحو الموضوع الذى نبحثه. ولما كان الاتجاه هو متغير مفترض أو كامن وليس متغيرا يمكن ملاحظته مباشرة فان قياس الاتجاه يقوم على تقويم استجابات شخص ما لعدد من المواقف. وعادة ما تكون تلك المواقف عددا من العبارات (الفقرات) حول موضوع الاتجاه، يستجيب لها الفرد بطريقة محددة تتراوح من "أوافق" الى "لا أوافق" . ويعطى الفرد درجة عن كل استجابة، ومن مجموع الدرجات يستخرج موقفه من موضوع الاتجاه. ويكون مجموع العبارات والدرجات المخصصة لها مقياسا للاتجاه .

وتتوقف مدى فائدة مقياس الاتجاه على خصائصه وأهمها أن يكون أولا موثوقا به أى يمكن الاعتماد على درجاته فى تقرير الاتجاه reliable وهو ما يسمى فى الكتب العربية الشائعة بالثبات. والخاصية الثانية أن يكون صادقا valid (أى يقيس فعلا ما وضع لقياسه). وهناك خصائص أخرى يجب توفرها فى المقياس مثل تساوى الوحدات، أحادية البعد (أى لا يقيس الا بعدا أو شيئا واحدا) ونقطة الصفر. وسوف نحيل موضوعا الثبات والصدق الى الكتب المتخصصة فى هذا الموضوع ونتناول هنا فقط الخصائص الثلاث الأخرى .

تساوى الوحدات، ونعنى بها أن الفرق بين أى درجتين مثل ٨، ١٠ يساوى الفرق بين أى درجتين أخريتين مثل ١٢، ١٤ . وتساوى وحدات المقياس يمكننا من الحصول على متوسط درجات الفرد، وكذلك من مقارنة التغيير الذى يطرأ على الاتجاه نتيجة للتدخل، وأن نقارن بين درجات فردين على نفس المقياس. على أن هذه الخاصية لا تتوفر لمعظم مقاييس الاتجاهات نظرا لكون الاتجاه لا يقاس مباشرة .

أما أحادية الاتجاه فنعنى بها أن المقياس لا يقيس سوى اتجاه واحد وبالتالى فان الدرجة تعكس فقط موقفه من الاتجاه المعين كما أن الأشخاص الذين تتفق مواقفهم مع موقفه يوجدون عند نفس الدرجة. واذا لم يكن المقياس أحادى الاتجاه أو البعد فهذا يعنى أنه يقيس أكثر من اتجاه وبالتالى فان من يحصلون على نفس الدرجة قد تكون لهم مواقف مختلفة من نفس الاتجاه.

ونقطة صفر المقياس تعنى موقفا متوسطا بين الايجابية المطلقة "أوافق" والسلبية المطلقة "لا أوافق" . وهذا معناه أن هناك نقطة بين الايجابية والسلبية يحدث عندها التحول أى توجد نقطة محايدة أو نقطة الصفر. ووجود مثل هذه النقطة أمر حيوى بالنسبة لقياس الاتجاه اذ انها تدلنا على مقدار الجهد أو التدخل الذى يجب أن يبذل لتغيير موقف شخص ما. وهذه مشكلة لم تحل فى مقاييس الاتجاه سواء من الجانب النظرى أو العملى. ويرى بعض الباحثين أنه لا وجود لنقطة الصفر وأن الاتجاه يجب أن يكون سلبيا أو ايجابيا، واذا لم يكن لديه اشارة موجبة أو سالبة فانه لا يعد اتجاها. وهذا هو الاتجاه السائد فى معظم مقاييس الاتجاه.

* أساليب قياس الاتجاهات :

عند بناء قياس للاتجاهات، يكون الهدف هو اختيار مجموعة من العبارات أو القضايا بحيث يكون قبول أى عبارة أو رفضها يعنى درجة مختلفة من تقبل الاتجاه أو رفضه. واليكم مثالا مأخوذا من أحد مقاييس الاتجاه نحو الحرب :

- ان فوائد الحرب تفوق ما قد تجلبه من شرور .
- يجب التقليل من التجنيد الاجبارى للشباب دون الغائه كلية .
- من الصعب ايجاد مبرر للمشاركة فى حرب أو الموافقة عليها.

من الواضح أن الشخص الذى يوافق على العبارة الاولى ميال الى الحرب، والذى يوافق على العبارة الثانية يتخذ موقفا وسطا، بينما الذى يوافق على العبارة الثالثة معاد للحرب. ولا تعنى أى عبارة فى حد ذاتها شيئا انما المهم هو الدرجة الكلية لكل العبارات.

* كيف تختار عبارات مقياس الاتجاه :

توجد عدة محكات نستخدمها لتحديد أى العبارات سنضمها الى المقياس وأيها نستبعد وما هو عدد العبارات اللازمة .

أولا : قدرتها التشخيصية، يجب أن تكون للعبارة علاقة بموضوع الاتجاه بحيث تشخص أو تصف لنا موقفا ما من الاتجاه، بعبارة أخرى يجب أن تميز بين المواقف المختلفة بحيث تختلف استجابات الناس لها. ونستطيع ذلك بأن نجعل علاقتها بموضوع الاتجاه واضحه تماما. وهذه الطريقة هى المستعملة فى صياغة عبارات مقياس ترستون مثلا. وقد نلجأ أحيانا الى طريقة أخرى فلا نجعل العبارة صريحة فيما يتعلق بموضوع الاتجاه وانما تدور حوله بحيث لا نصدم المستجيب ونحثه على ابداء اتجاهه دون استثارته، فنسأل عن اتجاه الشخص نحو عمل المرأة بعبارة مثل: البيت مملكة المرأة .

ثانيا : القدرة على التمييز بين مختلف درجات الاتجاه: لا يجب على العبارة أن تكون قادرة على استثارة استجابة المفحوص فيما يتعلق بموضوع الاتجاه فحسب وانما يجب أن تكون قادرة أيضا على التمييز بين مختلف درجات وجود الاتجاه لدى الناس. والمفترض أن درجة استجابة المفحوص للعبارة مرتبطة ارتباطا عاليا بالاتجاه أو الاعتقاد الكامن لديه. ولكن من الناحية العملية لن نجد عبارة بمفردها قادرة على التميز بين مختلف درجات الاتجاه أى أن العبارات ستتداخل لذلك يجب اختيار العبارات الأقل تداخلا مع غيرها وبالتالى الأكثر تمييزا للفروق.

ثالثا : وضحنا أن العبارات يجب أن ترتبط من حيث المضمون بالاتجاه أو الرأى المراد قياسه، وأن تميز بين الناس تمييزا وأن يتم اختيار تلك العبارات التى تضع كل فرد على مكانه داخل المقياس. وبالاضافة الى ذلك يجب أن تميز كافة الدرجات والظلال بين طرفى الاتجاه. ويعتمد عدد فقرات المقياس فى شكله النهائى على هذه الخاصية أى درجة تمييز الظلال. فاذا وصلنا الى العبارات الحاسمة فان عدد الفئات التى يتوزع اليها الاتجاه والتى يمكن تمييز موقف الناس منها يجب أن يساوى عدد العبارات، فاذا كان الاتجاه ينقسم الى فئتين فقط (أبيض - أسود) فان عبارة واحدة متقنة تكفى لكشف الاتجاه. أما اذا كانت للاتجاه أبعاد وظلال فيجب زيادة عدد العبارات.

رابعا : ولا توجد عبارات خالصة، فهناك دائما عوامل تتدخل لتقليل درجة تمييز العبارة - كالمعانى الخاصة التى يفهمها بها مختلف الناس و سوء الفهم ..الخ - كما أن هناك تغيرات عارضة تطرأ على استجابات الناس حين استجابتهم للمقياس. وتعمل كل تلك التأثيرات على التقليل من "ثبات" المقياس reliability. وعلاج ذلك العيب هو زيادة عدد العبارات، فكلما زادت ارتفع الثبات حيث تميل أخطاء المقياس الى الغاء بعضها البعض. ولكن لطول المقياس حدود يجب ألا يتعداها والا فلن يجيب عليه أحد .

خلاصة القول أن محكات اختيار العبارات فى مقياس الاتجاه هى، أنها يجب أن تكون عالية الارتباط من الناحية النفسية بالاتجاه أو الرأى الذى تقيسه، وأن تميز تمييزا حاسما بين الناس، وأن تكشف عن كافة ظلال البعد الذى تقيسه، وأن عددها يجب أن يكون كافيا بحيث تعادل الأخطاء والنواقص العرضية.

وسوف نقتصر هنا على ذكر أشهر طريقتين فى بناء مقاييس الاتجاهات وهما طريقة ثرستون وطريقة ليكرت .

* أولا : طريقة ثرستون :

اهتم ثرستون بتساوى المسافات بين وحدات المقياس وقد كان اهتمامه مبنيا على التجارب التى أجريت فى ميدان السيكوفيزيقا (Psychophysics) من أجل ايجاد مقاييس ذات وحدات متساوية لقياس خصائص الأفراد وقد فكر ثرستون بنفس الطريقة عند تصميمه لمقياس وبدأ محاولاته بأن جعل المقياس يتكون من أزواج من العبارات ويطلب من المفحوص أن يقرر أى العبارتين أكثر سلبية أو ايجابية فى التعبير عن الاتجاه .

وعلى ذلك فقد وضع ثرستون طريقة أخرى تتطلب جهدا من المفحوص أقل من طريقة المقارنة الزوجية وهى طريقة الفئات المتساوية .

وتتلخص هذه الطريقة فى جمع عدد كبير من العبارات أو البنود التى تعبر عن مشاعر الرفض والتقبل يفترض أنها تقيس الاتجاه المطلوب ويفضل أن يتراوح عدد هذه العبارات بين ١٠٠-١٥٠ عبارة ويتم عرضها على حوالي ٤٠-٦٠ من الحكام المدربين وفي نفس الوقت يمثلون الجماعة التي سيطبق عليها مقياس الاتجاه قدر الامكان. وتكتب كل عبارة على بطاقة مستقلة ويتم انتقاء هذه العبارات بحيث تقيس اتجاها نفسيا واحدا يتوزع على أحد عشر نقطة تبدأ من الاتفاق وتنتهى بالرفض الكامل مرورا بنقطة متوسطة محايدة ويطلب من الحكام قراءة كل عبارة بدقة ثم تصنيفها في فى احدى هذه الفئات الاحدى عشرة بحيث تكون الفئة رقم (١) تضم تلك العبارات المقبولة جدا (القبول الكامل) والفئة رقم (١١) تضم

المنحنى التكرارى المتجمع لأحد البنود ومنه يتضح أن الوسيط = ٩
الانحراف = ١/٢ (الربيع الثالث - الربيع الأول)
العبارات غير المقبولة اطلاقا (الرفض الكامل)، وذلك بغض النظر عن الرأى الشخصى للحكم بالنسبة لكل بند ولكن يتم التصنيف حسب محتوى العبارة ومعناها وعلاقتها بالاتجاه الذى يفترض أن تقيسه وتحذف العبارات التى لم يتم الاتفاق عليها على أساس حساب التشتت باستخدام نصف المدى الربيعى.
* (مثال توضيحى) يبين كيفية اختيار كل عبارة وفقا للتشتت وكذلك الدرجة التى تخصص لكل عبارة باستخراج الوسيط

فئات	التكرار	النسبة المئوية	النسبة المئوية المتجمعة
١	٠		
٢	٠		
٣	٠		
٤	٠		
٥	٠		
٦	٢	٤٪	٤٪
٧	٢	٤٪	٨٪
٨	١٠	٢٠٪	٢٨٪
٩	١١	٢٢٪	٥٠٪
١٠	١٥	٣٠٪	٨٠٪
١١	١٠	٢٠٪	١٠٠٪
	٥٠	١٠٠٪	

٢ - يرسم بعد ذلك المنحنى التكرارى المتجمع للنسب المئوية بحيث تكون الاستجابات (الفئات) الأحد عشر على المحور الافقى (س) بينما تكون النسب المئوية على المحور الراسى (ص). ومن هذا الرسم البيانى يمكن استنتاج الوسيط والمدى الارباعى فاذا كان الفرق بين الربيع الثالث والربيع الأول كبيرا كانت الجملة غير صالحة وتستبعد وتعطى لكل عبارة من العبارات الباقية درجة أو وزن هى الوسيط المقابل لـ ٥٠٪ من النسب المتجمعة (ويساوى ٩ فى هذا المثال) (انظر الرسم).

* الشكل النهائى للمقياس :

بعد اجراء الحسابات السابقة ووضع درجة امام كل عبارة نقوم باختيار العبارات التى ستكون الشكل النهائى للمقياس- وعادة ما يتكون مقياس ثرستون من حوالى ٢٠ عبارة - وفقا للاسس الآتيه:-

١ - بعد استبعاد العبارات غير الصالحة، يتبقى عدد من العبارات التى تستوفى الشروط التى سبق ذكرها.
٢ - يكتفى بعبارة واحدة من العبارات التى تتساوى قيمة الوسيط لها.
٣ - ترتب العبارات على امتداد المقياس ابتداء من القبول الكامل الى الرفض الكامل بحيث نراعى تساوى البعد بين العبارات، أى أن تتساوى الفروق بين وسيط درجات كل عبارة والتى تليها قدر الامكان.

* تطبيق المقياس :

عند تطبيق المقياس على المفحوصين الذين يراد قياس اتجاهاتهم يطلب اليهم وضع علامة حول رقم العبارة التى يوافقون عليها وتكون درجة المفحوص هى الوسيط لدرجات العبارات التى يوافق عليها. مثال: فيما يلى بعض عبارات مقياس الاتجاه نحو الحرب (نقلا عن ثرستون) وأوزانها .

رقم العبارة	العبارة	الدرجة
١	الشرف القومى أمر له اهميته والحرب هى الوسيلة الوحيدة للحفاظ عليه .	١,٣
٢	عندما تعلن الحرب فان الواجب يقتضى أن نسلم أنفسنا الى ادارة التجنيد.	٢,٥
٣	يكون للحرب ما يبررها اذا أعلنت دفاعا عن حقوق الأمم الضعيفة .	٥,٢
٤	الحرب والسلام كلاهما ضرورى للتقدم	٥,٤
٥	ان أقصى ما نطمع فيه هو التخلى جزئيا عن الحرب	٥,٦
٦	ان انتهاك النفس الانسانية وحقوقها خلال الحرب هو السبب فى موجات الجرائم .	٨,٤
٧	يجب على جميع الدول أن تنزع سلاحها فورا	١٠,٦

فاذا وافق مفحوص على العبارات ٣، ٤، ٥ مثلا فان درجته تساوى:

$$\frac{٥,٢ + ٥,٦}{٢} = \frac{١٠,٨}{٢} = ٥,٤$$

* ثانيا : طريقة ليكرت :

يعتبر مقياس ليكرت من المقاييس كثيرة الاستخدام في ميدان قياس الاتجاهات النفسية ذلك لانه لا يستهلك ذلك الجهد او الوقت الذى تستهلكه طريقة ثرستون. وبالاضافة الى ذلك فان مقياس ليكرت يرتبط ارتباطا موجبا مع مقياس ثرستون وبمعنى آخر يمكن أن نحصل على نفس النتائج تقريبا عند استخدام كلا المقياسين ومن هنا كان مقياس ليكرت اكثر استخداما وشيوعا فى ميدان قياس الاتجاهات .

واول ما يميز مقياس ليكرت هو الاهتمام بأن جميع وحدات المقياس تقيس نفس الاتجاه. كما أنه لا يستدعى استخدام مجموعة من الحكام من اجل تصنيف العبارات او البنود اذ ان الاستجابة لكل عبارة من هذه العبارات تتدرج ابتداء من الموافقة الكاملة الى الرفض المطلق وذلك على مقياس ذى خمس نقاط هى:

اوافق جدا - اوافق - غير متأكد - ارفض - ارفض تماما.

وهذه النقاط الخمسة تعطى عادة اوزانا : ٥،٤،٣،٢،١، وتكون درجة الشخص الكلية هى مجموع درجاته على العبارات المختلفة للمقياس

وعند اعداد مقياس ليكرت يمكن اتباع الخطوات التالية :

١ - يتم تجميع عدد مناسب من العبارات ذات العلاقة بموضوع الاتجاه بعضها سلبى والآخر ايجابى، وهنا يجب أن نشير الى ضرورة التدقيق عند اختيار العبارات وتحليل الاتجاه قبل اختيار العبارات وعادة تكون العبارة تقريرية مثل "الآب هو المسئول الوحيد عن تربية الأطفال" ويستحسن اختيار العبارة التى تقبل استجابتها التدريج بحيث تتراوح الآراء حولها بين الموافقه الكاملة والرفض الكامل. وكذلك العبارات التى تمثل موقفا او مثيرا يتحدى الفرد وينتزع منه الاستجابة التى تدل على اتجاهه فعلا. ويمكن اختيار العبارات من الحوار المتداول بين الناس ومن الشعارات او ما يكتب فى الجرائد اليومية او من تحليل المحتوى لاستجابات الأفراد لأسئلة مفتوحة النهاية. وهذه الطريقة فى جمع العبارات سوف تساعد المقياس على الاقتراب ما امكن الى حقيقة الاتجاه النفسى المطلوب قياسه.

ومن المستحسن الا تكون العبارات من النوع المحايد بل يجب ان تكون العبارة من النوع الذى تصاحب استجابته شحنة انفعالية من درجة ما .

٢ - يتم بعد ذلك اجراء التطبيق التمهيدى لتجريب البنود وقد يحتاج فى هذه المرحلة الى عينة فى حدود المائة. ويطلب من أفراد العينة الاستجابة لكل بند بأن يعين الاحتمال الذى يناسبه من (الاحتمالات) الخمسة السابقة الاشارة اليها. ويمكن توضيح ذلك فى المثال التالى الذى يقيس الاتجاه نحو الانجاب :

العبارات	أوافق جدا	أوافق	غير متأكد	لا أوافق	لا أوافق بشدة
- الأطفال هم سبب استقرار الحياة الزوجية .					
- الأطفال مبعث بهجة وسرور					
- من الصعب التعامل مع الأطفال					
- رعاية الأطفال أمر شاق					
- تعليم الأطفال عملية ممتعة.					

ومن هذا يتضح أن كل فرد من أفراد العينة عليه أن يستجيب لكل عبارة باعطاء أشارة معينة تحت أى نقطة من هذه النقاط الخمسة.

٣ - نقوم بعد ذلك باعطاء الدرجات المناسبة لاستجابات أفراد العينة (تصحيح الاجابات) ولكى نقوم بذلك علينا أن نحدد أولا معنى الدرجة العظمى للمقياس ففى حالة العبارات الموجبة اذا كانت الدرجة الكبيرة تعنى اتجاها ايجابيا كان عليه أن يعطى الدرجة (٥) للموافقة الكاملة والدرجة (١) للرفض الكامل وفى حالة العبارات السالبة يعطى الدرجة (١) للموافقة الكاملة والدرجة (٥) للرفض المطلق . وقد نجد فى بعض الحالات أن هناك عبارة أو أكثر لا نستطيع تحديد اتجاهها تماما بمعنى هل هى سالبة أم موجبة . وفى هذه الحالة يمكن استخراج معاملات الارتباط بين هذه العبارات وبقية العبارات لنتأكد من اتجاه العبارة.

ومن الأفضل التدقيق فى اختيار العبارات منذ البداية حتى لا نواجه مثل هذه الصعوبات بعد اعداد المقياس .

ولتوضيح ذلك لنفرض أن لدينا مقياسا مكونا من عشر عبارات فانه من المتوقع اذن أن تكون الدرجة العظمى هى ٥٠ (١٠×٥) بينما تكون أقل الدرجات هي ١٠ (١×١٠). واذا كان المجموع الكلى لدرجات أحد المفحوصين هو ٣٥ مثلا دل ذلك على أن اتجاه هذا المفحوص كما يقيسه هذا المقياس انما هو أقرب الى الايجابية منه الى السلبية.

نأتى الآن الى عملية تحليل البنود فى مقياس ليكرت لاختيار أفضل العبارات للمقياس. خاصة وأن العبارات المختارة سوف تكون ذات وزن واحد أى ليست كما هى الحال فى مقياس ثرستون حيث يختلف وزن العبارات. وبطبيعة الحال فان الوضع المثالى لتحليل البنود واختيارها هو ايجاد معامل الارتباط بين كل بند من بنود المقياس ومحك خارجي دقيق يمكن الوثوق به ولكن من الوجهة العملية يصعب ايجاد مثل هذا المحك الخارجي. لذلك فان أفضل الطرق المعروفة حتى الآن هى الطريقة التي تقوم على افتراض أن مجموعة البنود التى تكون المقياس والتى تم اختيارها بدقة وعناية هى أفضل مقياس للاتجاه الذى نقيسه. ومن ثم فان هذه البنود اذا كانت متناسقة فيما بينها دل ذلك على أنها تقيس نفس الشىء وبمعنى آخر يمكن أن نزعم صدق المقياس .

واذا سلمنا بذلك يمكن أن تكون طريقة التناسق الداخلى فى تحليل البنود هى عبارة عن حساب معامل الارتباط بين كل بند من البنود والدرجة الكلية للمقياس باستثناء درجة هذا البند وبطبيعة الحال كلما كان معامل الارتباط كبيرا دل ذلك على صلاحية البند .

ولنوضح هذه الطريقة بالمثال التالى :

لنفرض أننا نريد أن نحلل البند رقم (٥) مثلا فى أحد مقاييس ليكرت للاتجاهات عندما طبق على مجموعة من (عشرة أفراد). والجدول التالى يوضح البيانات :

الفرد المفحوص	الدرجة الكلية	درجة البند رقم (٥)	الدرجة الكلية بدون درجة البند (٥)
أ	٤٥	٥	٤٠
ب	٤٢	٥	٣٧
ج	٢٥	٤	٢١
د	٣٥	٤	٣١
هـ	٢٠	١	١٩
و	٣٩	٤	٣٥
ز	٣٣	٣	٣٠
ح	٤٠	٤	٣٦
ط	٢٢	١	٢١
ى	٢٧	٢	٢٥

وبحساب معامل الارتباط بين درجة البند رقم (٥) وبقية المقياس (الدرجة الكلية باستثناء درجة البند رقم (٥) C نجد أن هذا المعامل حوالى ٠,٩٧ وهو معامل ارتباط يمكن الاعتماد عليه لابقاء البند رقم (٥) فى بناء الاختبار.

ولكن عندما يقل معامل الارتباط عن ٠,٧ فاننا ننصح بأن يستبدل هذا البند لارتفاع احتمال عدم صلاحيته .

فى حالة تحليل البنود من المفروض أن تكون عينة المفحوصين كبيرة (حوالى ١٠٠) وكذلك عدد البنود كبيرا أى لا يقل عن خمسين. وذلك حتى نعطى لانفسنا الفرصة للتخلص من العبارات أو البنود التى نشك فى صلاحيتها. وعلى ذلك فان الصورة النهائية للمقياس سوف تتألف من البنود المترابطة أو المتناسقة داخليا أى تلك التى تقيس شيئا واحدا يحتمل كثيرا أن يكون هو الاتجاه المطلوب قياسه. وكل عبارة أو بند من هذه البنود يتبعه تدريج من ٥-١ حيث تدل (٥) على الموافقة الكاملة، (١) على الرفض المطلق مع ملاحظة اتجاه العبارة اذا كانت سالبة أو موجبة والذى عليه يتوقف حساب الدرجة النهائية لاتجاه الفرد المفحوص .

وعند الحديث عن ثبات درجات مقياس ليكرت فانه يعتمد على طريقة التناسق الداخلى السابق الحديث عنها فى تعيين معاملات الثبات ومن أهم الانتقادات التى توجه الى مقياس ليكرت هو أن نفس الدرجة الكلية على هذا المقياس يمكن أن يحصل عليها أكثر من مفحوص بطرق مختلفة. فقد يكون هناك درجتان كليتان متساويتان ولكنهما مختلفان من حيث المعنى والتفسير ولمعالجة هذا فان على الباحث أن يتفحص نظام الاستجابة قبل أن يعتمد على الدرجة الكلية للمفحوص .

ونقد آخر يوجه الى هذه الطريقة وهو ان الدرجة (٣) اى التى تفترض أن المفحوص غير متأكد من استجابته لا يمكن اعتبارها نقطة محايدة اذ انه يمكن تفسيرها على انها استجابة فاترة نحو الموضوع الذى يقيسه المقياس، او أنه " يوجد اتجاه فعلى عند المفحوص تجاه هذا الموضوع او انه ليس لد المفحوص اى سابق خبرة او معلومة عن الموضوع المطلوب ان يقيس تجاهه نحوه. وكثرة الاستجابات من هذا النوع لابد وان تلفت النظر، وكذلك اذا كانت الاستجابات الموجبة جدا والاستجابات السالبة جدا تكاد ان تتساوى هنا يجب ان نشك فى المقياس وخاصة من حيث انه يقيس شيئا واحدا. ولكن هناك ميزتان هامتان لمقياس ليكرت اولاهما ان هذا المقياس يعطى تقديرا دقيقا لمدى موافقة او رفض المفحوص لموضوع ما بناء على التدرج الذى يتبع فى وضع كل بند من بنود هذا المقياس. والثانية هى أنه من الممكن ان يحتوى المقياس على مجموعة من البنود او العبارات المختلفة من حيث المضمون او المعنى بحيث تسمح بالقيام بتحليلات اكثر دقة لمعنى الاتجاه الـــى موضوع القياس.

" الفصل الثامن "

التواصل واتخاذ القرار

* ماهية التواصل
* نشأة علم التواصل
* الرسالة
* شروط التواصل
* التواصل الشخصى
* التواصل داخل الجماعة
* وسائل الاتصال الجماهيرى
* اتخاذ القرار

* ماهية التواصل :

نحن لا نعيش فى عصر التواصل الجماهيرى Mass Communication فحسب، بل نحن نعيش أيضا فى عصر الاغراء أو الاستمالة الجماهيرية Mass Persuasion. فما ان تفتح الراديو أو التليفزيون، أو تتناول صحيفة او مجلة او تقرأ كتابا أو مقالة حتى تجد هناك من يحاول أن يعلمك شيئا، أو يقنعك بفكرة، أو يغريك بشراء سلعة، أو اتباع مذهب أو اعتناق مبدأ، وهذا الأمر أوضح ما يكون فى الاعلان حيث تنفق الشركات الملايين لحث الناس على شراء منتجاتهم. وتبين بحوث الاعلام انه حتى نشرة الاخبار، التى تبدو موضوعية جدا، هى فى حقيقة الأمر تحاول أن "تبيغ" لنا شيئا. وقد تناولنا فيما سبق درجة الخلط بين التربية والدعاية الا انه سواء كان الأمر تربية أو دعاية أو اعلانا فان هدف الاغماء و لاستمالة أمر واقع لدى الجميع ويتعرض البشر طول الوقت لرسائل ترغيبيه تزين للمرء فعل شيء ما.

وتعتمد عملية التأثير الاجتماعى- كما بينا سابقا- على التواصل، فمن خلال تبادل المعلومات والمصالح ينشأ تأثير الجماعة، ولا يمكن فهم الجماعة أو المجتمع الا من خلال الرسائل المتبادلة بين أعضائه والامكانات التى تتيح هذا التبادل .

التواصل اذن هو حجر الزاوية فى بنيان الجماعات الانسانية وهناك من الأدلة ما يؤكد أن الانسان العادى يقضى ما يقرب من ٧٠٪ من وقت يقظته فى الاتصال بغيره عن طريق وسائل لفظية كالكلام والاستماع والقراءة والكتابة ووسائل غير لفظية كالايماءات وحركات الجسم والانفعالات .

وتشيع عبارة التواصل (ويسميها البعض الاتصال) فى مجالات مختلفة وان كان هذا لا يعنى أن من يستخدمونها يعنون بها نفس الشيء. فيستخدمها أصحاب وسائل الاعلام والدعاية والنشر، كما يستخدمها اصحاب وسائل التعليم والايضاح والوسائل السمعيه والبصرية وكذلك يستخدمها أصحاب الارشاد والتوجيه. ونجد رجال السياسة والاعلام وعلم النفس الذين اهتموا بوسائل الاتصال الجماهيرية يطلقون عليها نظرية التواصل Communicotion theory، بينما يطلق عليها أصحاب علم الكومبيوتر وتكنيكات التواصل نظرية المعلومات Information theory. والحقيقة أن هناك العديد من النظريات والآراء يحاول كل منها تفسير وشرح عملية التواصل ولكن لا توجد "نظرية واحدة" تشمل جميع المواقف والمجالات .

وعملية التواصل هى ببساطة أن يجعل المرء نفسه مفهوما من جماعته ، وذلك عن طريق تبادل الأفكار والمشاعر أو الاشياء بين فردين أو أكثر. والشخص الذى يبدأ التواصل هو المرسل أما الذى يتم توجيه الرسالة اليه فو المستقبل. ومن الواضح أن تبادل الأدوار بينهما أمر تلقائى ففى عملية التواصل يكون كافة المشتركين مرسلين ومستقبلين.

* نشأة علم التواصل:

أثرت ثلاث اتجاهات فكرية فى نشأة هذا العلم. الاتجاه الأول هو المقارنة بين الاتصال عند الحيوان والانسان وتحديد مستويات التعقيد المختلفة فى السلوك الاتصالى عند كل منها. وقد توصل علماء النفس والاجتماع الى وجود ثلاثة أنواع من التواصل. الأول هو مستوى الاتصال الانعكاسى REFLEXIVE ويتميز بعدم وجود غرض أو قصد من جانب البادىء بالاتصال، ويكون الاتصال هنا استجابة فطرية أو غريزية للمنبهات. المستوى الثانى هو الاتصال الغرضىPURPOSIVE ويتميز بوجود غرض لدى البادىء بالاتصال يتمثل فى التأثير على سلوك المستقبل. والثالث هو مستوى الاتصال بالجمل المفيده SYNTACTIC والذى تظهر فيه المقدرة على الاستفادة من الرموز فى عملية التواصل وهو خاص بالانسان فقط.

الاتجاه الثانى: هو علم اللغة وتحليلها الذى يبحث فى أبعاد المعانى والالفاظ والتركيبات اللغوية .
الاتجاه الثالث هو اتجاه ديناميات الجماعة ودور التواصل فيها باعتباره عملية اجتماعية .

ويعتبر المتخصصون فى التواصل أن لهم مجالا خاصا بهم وأنهم وحدهم يهتمون بدراسة تلك المواقف السلوكية التى تتميز بوجود مصدر تصدر عنه الرسالة عن وعى، ومستقبل يتلقى تلك الرسالة الهادفة الى التأثير فى سلوكه. وبهذا نجحوا فى خلق دائرة تخصص يهتم بها علم التواصل دون غيره من العلوم السلوكيه .

* وتتكون عملية التواصل فى أبسط أشكالها من الخطوات التاليه :

١ - تنشأ لدى المرسل رسالة يريد توصيلها (فكرة أو رأى أو انفعال)
٢ - يجب أن يحول المرسل رسالته الى رموز، أى يحولها الى أصوات أو كلمات منطوقة أو مكتوبة أو الى ايماءات وحركات ....الخ يفهمها المستقبل .
٣ - بعد ذلك يرسل المرسل الرسالة عبر وسيلة أو قناة اتصال بحيث تصل الى المستقبل.
٤ - يتلقى المستقبل الرسالة عن طريق قنواته الادراكية. واذا تم ذلك دون تحريف أو تشويش فستصبح لديه نسخة طبق الأصل من الرسالة.
٥ - يفك المستقبل رموز الرسالة ويفسرها ويصنفها حتى يفهمها على وجهها الصحيح .
٦ - يعلن المستقبل ويقر باستلامه الرسالة أى انه يوصل الى المرسل ما نسميه الفيدباك أى أنه تلقى الرسالة وفهمها.
٧ - وبناء على اتمام الاتصال قد يتخذ الطرفان قرارا ما.

* الرسالة :

والوحدة الأساسية لتحليل التواصل هى يسمى بالرسالة MESSAGE، وتعرف بانها الفكرة القائمة بذاتها (أو ما يمكن أن نطلق عليه الجملة المفيدة). وتحتوى الرسالة معلومات، والمعلومة هى الأسم الذى يطلق على المحتوى الذى يتم تبادله مع العالم الخارجي خلال تكيفنا معه واشعاره بهذا التكيف. فعملية تلقى الرسالة واستخدام معلوماتها هى عملية التكيف مع البيئة الخارجية. والرسالة بهذا المعنى أى كونها استجابة لمنبه تشمل عملية اتخاذ القرار، فانك اذا تلقيت رسالة فلابد أن يكون الجواب قرارا.

ولعل القول بأن الانسان حيوان" صانع قرارات" هو صفة جديدة تنضم الى طابور الصفات التى تحاول فهم الانسان، فهو حيوان ناطق وعاقل ولاعب وصانع وضاحك وسياسى ومعتقد وهو أخيرا صانع قرارات. ولا شك أن حياة الانسان كفرد وكعضو فى جماعة تعتمد على سلامة القرارات التى يتخذها وهى تعتمد بدورها على المعلومات التي يتبادلها مع غيره خلال تفاعلاته الاجتماعية. فاذا لم تسر عملية التواصل كما سبق شرحها - وهى عادة لا تتم بهذه السهولة - نتيجة نشوء عوائق تمنع وصولها أو فهمها ستكون النتيجة قرارات لا تيسر للفرد استخدام تفاعلاته الاجتماعية بشكل مثمر.

* شروط التواصل :

ولكى يتحقق التواصل فانه يتحتم توافر عدة شروط تتلخص فيما يلى:

١ - وجود مهارات اتصالية. كالكلام والقراءة والكتابة والانصات والتفكير حيث ان هذه المهارات تؤثر فى مقدرتنا على التعبير عن مقاصدنا .
٢ - وجود اتجاهات مواتية. فكلما كانت اتجاهات المرسل والمستقبل متآلفة ادى ذلك الى زيادة فاعلية الاتصال .
٣ - توافر مستويات معرفية مناسبة ونقصد بها اولا معرفة موضوع الاتصال وهو الأمر المؤثر فى نوعية الرسالة الصادرة عن "المصدر" وفى فهم "المستقبل" لها. وثانيا معرفة المصدر لعملية التواصل ذاتها اى لحقيقة اتجاهاته وخصائص المستقبل والكيفية التى يصدر بها رسالة وقنوات الاتصال وفاعلية كل منها.
٤ - توافر وضع اجتماعى لمصدر الاتصال ونعنى به الدور او الادوار التى يقوم بها مصدر معين فى المجتمع او الجماعة التى ينتمى اليها ومجموعة القيم والمعتقدات الثقافيه التى تسهم فى تشكيل شخصيته.

ويتحدد نوع ومدى القوة التى يتميز بها المصدر بالنسبة للمستقبل فى اى عملية اتصال بطبيعة العلاقة التى تربطهما. واهم عنصر فى هذه العلاقة هو القوة والنفوذ ولهذه القوة انواع متعددة اهمها :

١ - قوة الثواب والعقاب :

وتتمثل فى القدرة على المكافأة او انزال العقاب. وتتوقف على حجم المكافأة او العقاب والأسلوب الذى تتم به .

٢ - قوة الشرعية :

وتنبع هذه القوة من ايمان المستقبل بأن للمصدر حقا مشروعا فى التأثير على سلوكه وتوجيهه. وتستند تلك القوة الى القيم الثقافية السائدة وتقبل الافراد للنظام السائد .

٣ - قوة الجاذبية :

وهى القوة الناشئة من امتلاك المصدر لخصائص تجعل المستقبل يسعى الى كسب وده ورضاه واقامة علاقة معه .

٤ - قوة المصداقية :

وهى القوة الناشئة عن اطمئنان المستقبل للمصدر والثقة به. وقد اجريت تجارب عديدة للتعرف على طبيعة الظروف والعوامل التى تجعل شخصا ما يضفى على شخص آخر فى اى عملية اتصال صفة المصداقية فوجد انها تنبنى على عدة عوامل اهمها الخبرات والمؤهلات ودرجة الطلاقة والبلاغة فى التعبير وعوامل اخرى مثل السن والجنس والطبقة الاجتماعية والمظهر العام .

* التواصل الشخصي :

لعل الاتصال أو التواصل الشخصي هو أكثر أشكال التواصل مرونة وتأثيرا. اذ تتم فيه المواجهة بين المرسل والمستقبل وبالتالي يمكن للمصدر أن يشكل رسالة ويعدل فيها أو يضيف اليها طبقا لما يقتضيه الموقف الاتصالي وبناء على الفيدباك الصادر عن المستقبل. وبينت البحوث التى قارنت بين وسائل الاتصال الجماهيرية والاتصال الشخصي أن لهذا الأخير الميزات التالية :

١ - فى مقدوره أن يأسر المستمع جسميا وفكريا بشكل أوضح بكثير مما يحدث فى حالة الاتصال عبر الوسائل الجماهيرية. فلا يمكن تجنبه أو الانصراف عنه .
٢ - يتميز بمرونة أكبر فى تكييف طريقة العرض بحيث يحقق الأثر المنشود.
٣ - خلال الاتصال الشخصي يميل الأفراد بصفة عامة الى الاقتناع بوجهات النظر التى تعرض عليهم بواسطة أناس يعرفونهم ويثقون بهم واحتمال حدوث هذا الميل أكبر بكثير فى حالة الاتصال الشخصي منه فى حالة وسائل الاتصال الجماهيرية.

ويرى خبراء التواصل أنه يمكن زيادة فاعلية عملية الاتصال عن طريق الجمع بين أكثر من وسيلة اتصالية كالجمع بين الاتصال الشخصي ووسائل الاتصال الجماهيرية. وقد انتشر استخدام هذه الاستراتيجية الاتصالية فى مجالات عديدة أهمها الدعاية والاعلان. ويتحدد اختيار وسيلة الاتصال فى ظل اعتبارات كثيرة أهمها :

١ - نوع الناتج أو الأثر المتوقع من وراء استخدام وسيلة بعينها، هل هذا الناتج المطلوب هو مجرد اعلام أكبر عدد ممكن أم أنه يتضمن احداث تغيير فى الاتجاهات والمعتقدات.
٢ - مقدار المجهود اللازم بذله فى استعمال وسيلة الاتصال، فقد لوحظ أن بعض وسائل الاتصال تتطلب مجهودا أكثر من غيرها، ويميل البعض الى استخدام الوسائل السهلة بينما يميل البعض الاخر الى استخدام الوسائل الصعبة نسبيا.
٣ - المتاح من وسائل الاتصال، حيث أن الموقف الاتصالي يخضع أحيانا لما هو تحت يد المصدر من وسائل متاحة.
٤ - تكاليف استخدام وسيلة الاتصال اذ يمثل العنصر الاقتصادى أحد الاعتبارات الهامة فى عملية اختيار الوسيلة الاتصالية.
٥ - مرونة وسيلة الاتصال وطواعيتها لأهداف "المصدر" وكذلك مدى ملاءمتها لمضمون الرسالة.

* التواصل داخل الجماعة :

من البديهي أنه لكي يكون تأثير الجماعة على الفرد فعالا، يجب أن تصله الرسائل الخاصة بموضوع ما وأن يستطيع فهمها. ولا تكف الجماعة عن ارسال الرسائل الى الأعضاء ولكن تعتمد كمية تلك الرسائل على حاجة الفرد وبيئته ومقدار علمه. فاذا كان الفرد فى وضع لا يحتاج فيه الى المعلومات فلن يلتفت الى الرسائل، لذلك يجب أن تكون الرسائل لافتة للانتباه والادراك حتى يكون لها أثر فى تعديل الاتجاه، كذلك فان الطريقة التى يدرك بها المستقبل طبيعة المرسل لها تأثير مباشر على فعالية التواصل، فصاحب الرسالة له نفس الأهمية التى لمحتواها فى حالة تعديل الاتجاه .

فوسائل الاعلام تعالج الحدث الواحد بطرق عظيمة الاختلاف وتستطيع أن تنقل الرسالة الواحدة بمضامين مختلفة، فاذا صورت الكاميرا مثلا مظاهرة فى الشارع وركزت على مجموعة من النساء فقد تبدو وكأنها مظاهرة نسائية فى حين أنهم - أى النساء - لم يكونوا الا عددا قليلا فى المظاهرة. ومن المعروف أنه لا تتفق مجلتان أو جريدتان فى وصف وتفسير الحدث الواحد. كذلك تتعرض الرسائل الاعلاميه لتحريف غير مقصود، فلا يوجد ضمان أن الرسائل قد قرأها أو شاهدها عدد كبير من الناس، أو أنها اذا تم استقبالها ستفك رموزها بالطريقة المرادة منها، كما أن التنوع فى وسائل الاعلام يضعف من تأثير كل واحدة منها بمفردها. ورغم أن هناك ميلا لدى الجمهور لاستقاء معلوماته من التليفزيون ثم من الراديو الا انه لا ضمان هناك بأن تلك الوسائل هى الوحيدة التى يحصل على معلوماته منها.

والآن، هل يمكن القول أن وسائل الاتصال الجماهيرى هى السبب فى حدوث الكثير من أنواع السلوك؟ سبق لنا القول أن هناك اجابتين على هذا السؤال، فالبعض يرى أنها المحرك الأول الى درجة استبعاد أى عوامل أخرى، والبعض الآخر يستبعد وسائل الاتصال الجماهيرى كعامل من عوامل التأثير فى الاتجاهات. ولكننا نتخذ موقفا وسطا بحيث نقول أن وسائل الاتصال الجماهيرى ليست سببا كافيا وضروريا لاحداث التأثير فى الجماعات ولكنها تحدث تأثيرا من خلال مجموعة من الوسائط الأخرى. ولذلك فان وسائل الاتصال الجماهيرى تعتبر رافدا وليست سببا وحيدا فى تعديل الاتجاهات. خلاصة القول أن تلك الوسائل تقوم بدور هام فى توفير المعلومات للجماعة مما يؤثر فى القيم والاتجاهات للاعضاء، ولكن الطريقة التى تفعل بها ذلك ونوعية السلوك الذى ينشأ عنها لا يزال موضع بحث .

* اتخاذ القرار :

من المسائل الهامة فى علم النفس الاجتماعى والسياسى الطريقة التى ترتبط بها الاتجاهات باتخاذ القرار، فالاتجاهات والقيم والأدوار والقيادة تتدخل فى عملية اتخاذ القرار، وسبق أن أشرنا الى فكرة "انك اذا تلقيت رسالة فلابد أن يكون الجواب قرارا" . فكيف ترتبط الاتجاهات بالقرارات، علينا أن نفهم كيف يتم الوصول الى قرار وكيف ينتقل وكيف تدركه الجماعة؟. فالنشاط المتصل باتخاذ القرار لا يحيط بهؤلاء الذين يتخذونه فحسب - اى الذين يحاولون بواسطته التأثير في الآخرين - وانما يؤثر أيضا فيمن سيشملهم القرار، فالمطلوب من الآخرين أن ينصاعوا ويمتثلوا لهذا القرار وبذلك يصبح نافذ المفعول، فما الفائدة من اصدار قرار لن ينصاع اليه أحد.

وبهذا المعنى فلابد أن يرتبط القرار بسلطة توفر له النفاذ، أى لابد من وجود "ضغوط الجماعة" تدفع الناس الى تغيير سلوكهم بحيث يمتثل للقرارات، ولابد من وجود دافع لدى الفرد يسوقه الى ايجاد التناسق المعرفى بحيث تتوافق اتجاهاته مع معارفه. وغالبا ما ينصاع الناس للرسائل (القرارات) حتى ولو لم تكن هناك قوة تساندها وذلك فى حالة تمتع الجهة صانعة القرار بمصداقية عالية. وعادة ما يكون محتوى الرسالة أو القرار على درجة كبيرة من الاهمية ولكن نظرا لأن الرسائل تنتقل خلال عدد كبير من الناس الذين تتباين مواقفهم بالنسبه لمحتوى القرار فلابد من وضع مدركات هؤلاء الناس فى الاعتبار عندما ننظر فى مسالة الامتثال أو التمرد على القرارات.

ولعضوية الجماعة تأثير كبير على عملية التواصل، فاذا تلقى العضو رسائل مضادة لمعايير جماعته فان تقبله أو رفضه لتلك الرسائل سيعتمد على قيمة عضوية الجماعة لديه. لذلك فان الرسائل المناقضة لمعايير الجماعة لن تجد آذانا صاغية من الأعضاء الذين تشكل عضوية الجماعة قيمة عظيمة بالنسبه لهم، أو الذين يعتمدون على جماعتهم فى الحصول على المكانة أو الاحساس بالانتماء. كذلك فان وضع الفرد فى الجماعة ومكانته من أعضائها يرتبط ارتباطا موجبا بمقاومة الرسائل المناقضة لمعايير الجماعة. وبينت البحوث أن الأعضاء ذوى المكانة العادية فى الجماعة أكثر مقاومة للرسائل المضادة للجماعة من أصحاب المكانة العالية. وأن الأعضاء المحبوبين وذوى الشعبية فى الجماعة أكثر امتثالا لمعايير الجماعة وأشد مقاومة للرسائل المناقضة لتلك المعايير. كما أن الأعضاء الذين يطمحون الى مواقع القيادة فى الجماعة يكونون عادة أكثر امتثالا.

وتبين بعض البحوث أن من يتولون مناصب قيادية فى الجماعة قد يكونوا أميل الى الخروج على معاييرها بين الحين والآخر، كما قد يكون لهؤلاء الأشخاص نفوذ قوى فى تغيير أو تعديل اتجاهات الجماعة. على أن الدلائل على ذلك ليست قاطعة وهى استنتاجية فى أحسن الأحوال. وتفسر تلك النتائج بأن القادة - سواء كانوا رسميين أو غير رسميين - يعملون أيضا كقادة للرأى ويساعدون على توصيل المعلومات ولذلك فهم أميل الى التعرض لمصادر المعلومات أكثر من غيرهم (مما يساعدهم على تعديل اتجاهاتهم) كما أنهم ينقلونها الى غيرهم ملونة بتفسيراتهم الذاتيه. ولذلك فان الاتصال الشخصى كما سبق أن وضحنا يعتبر أهم الحلقات فى أى عملية تواصل.

* وسائل الاتصال الجماهيرى :

ان دور وسائل الاتصال الجماهيرى فى التأثير على الاتجاهات والسلوك أمر ثابت بالدليل العملى. فقد شاهد مثلا المناظرة التليفزيونية التى جرت بين ريتشارد نيكسون وجون كنيدى عام ١٩٦٠، ٧٥ مليون متفرج. وتلعب استطلاعات الرأى العام التى تقوم بها الصحف دورا كبيرا فى التأثير على الانتخابات فى أمريكا وأوروبا. وعلى أى حال لا ينبغى أن نبالغ فى تأثير وسائل الاتصال الجماهيرى اذ لا شك انها محدودة بواقع أن المستمع أو المشاهد أو القارىء ليس كائنا آليا تحركه دفعات منبعثه من المتحكمين فى المادة الاعلامية. ولا توجد أدلة تدعم فكرة أن الناس تحركهم وسائل الاعلام الجماهيرية. ومع ذلك فلا يجب أن نغمط تلك الوسائل حقها، فلا ريب أن لها تأثيرا ضخما، وهو أمر معروف لكل القادة، اذ أن محطة الاذاعة والتليفزيون هى الهدف الأول فى أى محاولة للانقلاب على السلطة. فما هى حقيقة الدور الذى تلعبه وسائل الاعلام؟

هذه الوسائل (الراديو - التليفزيون - الصحف والمجلات والكتب) هى ناقلة للمعلومات.فهى تجمع المعلومات بأساليبها الخاصة وترمزها وفقا لطبيعتها ثم تنقلها الى المشاهدين والسامعين. ومن الواضح ان المسألة الحاسمة فى تأثيرها هى الطريقة التى ترمز بها معلوماتها بالاضافة طبعا الى الطريقة التى تجمع بها تلك المعلومات.

* طرق اتخاذ القرار :

تشترك عدة علوم فى الاهتمام بمسالة اتخاذ القرار نظرا لأنها تكاد تكون المسألة الجوهرية فى النشاط الانسانى ككل. فمن ناحية توجد مجالات حيوية مرتبطة باتخاذ القرار مثل علوم الادارة وبحوث العمليات Operation research وهى تلك الدراسات التى تبحث عن أفضل واقصى نتائج لأى نشاط فى ظل أقل جهد وتكاليف.

وتهتم تلك العلوم بكيفية تحسين نوعية القرارات التى تتخذ، وتقدم نماذج Models لعلمية اتخاذ القرار تهدف الى وضع أساس منطقى عقلانى للاختيار بين البدائل المحتملة لاتخاذ اجراء معين. وتسمى هذه النماذج بالنماذج المعيارية normative أى التى تعاير أو تقارن على أساس منطقى بين البدائل .
ومن جانب آخر قام أصحاب علم النفس الاجتماعى والسياسة بمحاولات لفهم القرارات والاختيارات التى يقوم بها الناس، واعتبروا هذا الفهم مسألة أساسية فى ادراك سلوك الجماعات والمؤسسات، وهدفهم هو الفهم لا التحسين ولذلك تعتبر نماذجهم نماذج وصفية Descriptive.

وسواء كانت النماذج معيارية أو وصفية فان القاسم المشترك بينها هو مفهوم اتخاذ القرار باعتباره عملية طبخ معلومات information processing تأخذ مكانها داخل الفرد سواء كان قائد الجماعة أو عضوا عاديا. كما يركز النموذجان على مجموعة القرارات البديلة أو الاختيارات المحتملة أو حلول المشاكل الممكنة التى تتم المفاضلة بينها. وتستند النماذج المعيارية الى النتائج التى تترتب على اتخاذ القرار، أما النماذج الوصفية فتستند الى محددات أو قواعد القيام بتلك الاختيارات.

ويرى علم النفس الاجتماعى ان اتخاذ القرار عملية اجتماعية تستمد عناصرها من تبادل المعلومات والمصالح داخل الجماعة، وان تلك العناصر هى الوقائع والأحداث التى تحدث بين أعضاء الجماعة فى المقام الأول ويليها ما يدور داخل الشخص نفسه. فعندما تواجه الجماعة موقفا أو مشكلة تستدعى اتخاذ قرار تلجأ الى عدة أساليب وطرق اصطلحت عليها الجماعة للوصول الى قرار. فما هى تلك العمليات الاجتماعية؟

من الناحية المعيارية توجد أسئلة تتعلق بمعرفة النتائج المترتبة على تنفيذ كل بديل من حيث تأثيرها على قيام الجماعة بوظائفها وتحقيق أهدافها بفعالية. وهذه المعرفة هى التى تؤدى فى النهاية الى توافر الأسس والمواصفات للعلاقات بين الأعضاء وتحدد الطريقة التى "ينبغى" اتخاذ القرار داخل الجماعة وفقا لها.

أما الناحية الوصفية فتسعى الى معرفة الظروف التى تحيط بعملية اتخاذ القرار أى التفاعل الذى يتم بين الأعضاء للوصول الى قرار ذلك التفاعل الذى يتم بين أبعاد العملية الاجتماعية والخصائص الشخصية للقائم باتخاذ القرار.

* المشاركة فى اتخاذ القرار :

ويرى أصحاب علم النفس الاجتماعى أن "بيت القصيد" فى الرد على التساؤلات المعيارية والوصفية هو فحص أحد الأبعاد التى ثبتت أهميتها الفائقة فى اتخاذ القرار ألا وهى درجة تشجيع القائد للأتباع والمرؤوسين على المشاركة فى اتخاذ القرار. ولهذا التشجيع جانبان، الأول هو احتفاظ القائد أو صانع القرار بهامش من الحرية فى تحديد

الحل أو القرار الذى سيتخذ، والثانى هو التمييز بين المشاكل الشخصية والجمعيه، فاذا كان للقرار آثار قوية على كل المحيطين بالقائد أو على عدد كبير منهم فان المشكلة تكون جمعية، أما اذا كانت تؤثر على فرد واحد فانها تكون فردية.

وقدم فروم وايتون تصنيفا لعمليات اتخاذ القرار الفردية والجمعية فى كتابهما "القيادة واتخاذ القرار"(١). وفى رأيهما أن عمليات اتخاذ القرار تصنف الى أربع فئات فهى اما استبدادية Antocratic أو تشاورية Consultative أو جمعية Group أو تفويضية Delegated. ولكل عملية بديل أو أكثر ورمزا لكل عملية برمز مستمد من الحروف الأول للكلمة ورقم يعبر عى البديل وفقا للجدول التالى. ورتبا العمليات داخل كل عمود من حيث فرصة كل عملية للتأثير فى اتخاذ القرار.

(1) Vroom & Yetton, Leadership and decision making, Univ. of Pittsburg press, U.S.A, 1973.

عمليات اتخاذ القرار :

نوع العملية	المشاكل الفردية	نوع العملية	المشاكل الجماعية
الاستبدادية البديل الأول AI	تحل المشكلة أو تتخذ القرار مستخدماً المعلومات المتاحة لك وقت اتخاذ القرار	AI	تحل المشكلة او تتخذ القرار مستخدماً المعلومات المتاحة لك وقت اتخاذ القرار
الاستبدادية البديل الثانى AII	تحصل على أى معلومات تريدها من الأعضاء ثم تقرر أنت الحل، وقد تخبر الأعضاء أثـ[illegible] للمعلومات منهم بالمشكلة أو لا تخبرهم. ويكون دور أعضاء الجماعة هو مجرد توريد المعلومات التى تطلبها ولا يتدخلون فى ايجاد الحلول أو تقويمها	AII	تحصل على اى معلومات تريدها من الأعضاء ثم تقرر أنت الحل، وقد تخبر الأعضاء أثناء طلبك للمعلومات منهم بالمشكلة أو لا تخبرهم. ويكون دور أعضاء الجماعة هو مجرد توريد المعلومات التى تطلبها ولا يتدخلون فى ايجاد الحلول أو تقويمها
التشاوريه البديل الأول CI	تطرح المشكلة على من يحيطون بك ممن لهم اهتمام بها وتتلقى أفكارهم ومقترحاتهم ثم تتخذ أنت نفسك القرار الذى قد يعكس أو لا يعكس أفكار المحيطين بك. أفكار المحيطين بك.	CI	تطرح المشكلة على من يحيطون بك ممن لهم اهتمام بها كل على انفراد وتحصل على أفكارهم ومقترحاتهم دون أن تجمعهم، ثم تتخذ القرار بنفسك وقد يعكس أو لا يعكس
الجمعية البديل الأول GI	تطرح المشكلة على واحد من اتباعك وتعملا سوياً فى جو من حرية تبادل الآراء والمعلومات وتحللان المشكلة وتصلان الى حل ترضيان عنه وبذلك تساهمان فى حل المشكلة معتمدين على المعلومات وليس على السلطة المخولة لأى منكما.	CII	تشارك المجموعة المحيطة بك فى طرح المشكلة فى اجتماع يحضرونه جميعاً وتحصل منهم على أفكارهم ومقترحاتهم ثم تتخذ انت القرار الذى قد يعكس أو لا يعكس أفكارهم ومقترحاتهم.
التفويضية DI	تفوض أحد المرؤسين أو المحيطين بك فى حل المشكلة وتوفر له المعلومات التى فى حوزتك حتى يحلها بنفسه، وتوافق على أى حل أو قرار يصل اليه. كرئيس للجلسة أن تنسق المناقشة	GII	تطرح المشكلة على الأعضاء كجماعة وتعملون سوياً على توليد الأفكار وتقويم البدائل فى محاولة للوصول الى "قرار الجماعة". ويكون دورك وتحافظ على الاتجاه وتتأكد من ان الموضوعات الأساسية قد طرحت ونوقشت، ولا تحاول التأثير على الجماعة لكى تتبنى وجهة نظرك وتكون مستعداً لقبول وتنفيذ الحل الذى تؤيده الجماعة.

ويمكن استخدام خطوات الجدول بشكل معياري او وصفي، ففي الحالة الأولى تمثل كل خطوة بديلا منحملا متاحا امام صانع القرار الذي تحركه الحاجة الى اتخاذ افضل قرار من حيث الأثر في تحقيق الاهداف، اما في الحالة الثانية فان الخطوات تمثل اشكال السلوك الذي يتخذه القائد والاعضاء والذي يستدعي تفسيرا وفهما لديناميات
* دور النموذج المعياري والنموذج الوصفي في اتخاذ القرار:

يعمل النموذج المعياري على توفير اساس منطقي يسمح باتخاذ القرار او حل المشكلة حلا فعالا - وغالبا ما يعتمد على اسس رياضية - وذلك عن طريق المقارنة بين عملية او خطوات اتخاذ القرار وبين خصائص المشكلة المطروحة او القرار المطلوب. ويعتبر هذا النموذج ان القرار يقترب او يبتعد من الفعالية بقدر ما يراعى الشروط التالية :

١ - نوعية ومنطقية القرار .
٢ - قبول او التزام الاعضاء بتنفيذه.
٣ - كمية الوقت اللازمة لاتخاذ القرار.

اما النموذج الوصفي فيتعرض لمسالة كيف يصل القادة فعلا الى قراراتهم، وما هي القواعد الخفية وراء استعدادهم لاشراك الآخرين في سلطتهم لاتخاذ القرار. وما هي الجوانب التي تتشابه فيها تلك القواعد او تختلف عن تلك المستخدمة في النموذج المعياري؟

وعادة ما يوصف القادة بأنهم استبداديون او تشاوريون او يوجدون على نقطة تقع على المتصل الممتد بينهما (اى يجمعون بين الاستبداد والتشاور بنسب مختلفة) وهذا الوصف لسلوك القادة يعتمد على نظرية سمات الشخصية التي تقول بأن الاستبدادية والتشاورية سمة شخصية ، يختلف نصيب كل فرد منها. وهي مفيدة في حالة تلخيص الفروق بين سلوك الناس ولكنها لا تدع مجالا لتحليل الاختلافات داخل الفرد نفسه. ولذلك نحن نتبع نظرية المجال عند كورت ليفين التي وضحت ان سلوك صانع القرار في موقف معين يعكس خصائص القائد وخصائص الموقف وتفاعل الاثنين .

وقد اجريت عدة تجارب لدراسة محددات السلوك التشاوري، واستخدم معظمها جماعات من المديرين، طلب منهم ان يكتبوا اوصافا لمجموعة من المشاكل التي يصادفونها في اعمالهم بحيث تغطي كل جوانب عمليات واتخاذ القرار. طلب منهم بعد ذلك ان يوضحوا اى اسلوب استخدموه وفقا للاساليب المذكورة في عمود المشاكل الجمعية في الجدول سالف الذكر (AI,AII,CI,CII,GII) . وفي النهاية سئل كل مدير عددا من الأسئلة بشأن اختياره للمشكلات التي ذكرها وفقا للمعايير الثلاثة التي ذكرت في النموذج المعياري. وباتباع بعض الأساليب الاحصائية لاستخراج درجة مشاركة الاعضاء في اتخاذ القرار نالت كل عملية الدرجات التالية:

AI = 0, AII=0,625, Ci=0,5, CII=8.125 GII= 10

واكدت تلك النتائج وجهة النظر القائلة بأن لكل نوع من المشكلات أساليب اتخاذ القرار الخاصة به. فكان المديرون أميل لاستخدام السلوك الاستبدادى فى المشاكل محددة المعالم والتى كانوا يعتقدون أن لديهم معلومات كافية بشأنها، وأن المرؤوسين تنقصهم تلك المعلومات، ومعرفتهم بأن أهداف المرؤوسين ليست على اتفاق مع أهداف المؤسسة، كما أن تقبل المرؤوسين للقرار ليس له أثر حاسم فى وضعه موضع التنفيذ وأن توقع قبول المرؤوسين للقرار كان عاليا.

وكانت التجارب سالفة الذكر قاصرة على مشاكل الجماعة، وأعيد تطبيقها لتبين الفرق بين السلوك الخاص بمشاكل الجماعه والسلوك الخاص بمشاكل الفرد.

* واتضح أن هناك خمس قواعد تحكم هذا السلوك :

١ - فى حالة اذا ما كان القرار المطلوب على درجة عالية من الكفاءة فان عناصر تحديد المشكلة ومعلومات القائد ومدى اتفاق أهداف الفرد مع أهداف الجماعة هى وحدها التى تتغير أو تزيد قيمتها.

٢ - تزيد قيمة بناء أو تحديد المشكلة عندما لا يكون لدى الفرد معلومات كافية تسمح بقرار عالى الجودة .

٣ - تزيد قيمة التوقع المسبق لقبول القرار الاستبدادى عندما يكون قبول الأعضاء للقرار ذا أثر حاسم فى تنفيذهم له .

٤ - يزيد دور معلومات الاعضاء عن المشكلة الفردية عندما يكون القرار المطلوب عالى الجودة .

٥ - يزيد دور الصراع بين الأعضاء فى حالة المشاكل الجمعية .

" خاتمة الكتاب "
مستقبل علم النفس الاجتماعى

فى علم النفس المعاصر حركة تتجه الى دعم دور العقل. ففى اعقاب الحرب العالمية الثانية شعر كثيرون من اصحاب علم النفس الاجتماعي وعلم النفس بعامة ان اخضاع العقل للغرائز كما بينت مدرسة التحليل النفسى وان الغاء العقل تماما لدى السلوكية قد افضيا الى تجريد الانسان من انسانيته ، وهذا امر لا يطاق فى فرع من فروع المعرفة مكرس لخدمة الانسان. ثم التحمت فى الخمسينات من هذا القرن" قوة ثالثة " بالقوتين الأخريتين (التحليل النفسى والسلوكية) وهى علم النفس الانسانى.

وتنطلق هذه المدرسة من التسليم بأن الانسان قوة واعية ، فأولية العقل امر لابد منه لفهم الانسان كما أن الوعى الادراك هما اهم العمليات النفسية. وتعتمد هذه المدرسة على رقص نموذج الانسان "الألة" او نموذج "فأر التجارب" فنحن بحاجة الى نموذج انسانى. ولذلك فان ما ينقص تلك النماذج هو القيم الانسانية التى يستحيل أن توجد لدى "الألة" او "الفأر" ويقول كارل روجرز "فى هذا العالم من المعانى الروحية والعقلية مايمكن علم النفس من بحث جميع المسائل التى ليس لها معني عند السلوكى: الغايات والأهداف والقيم والاختيار وفهم الذات وفهم الأخرين والتصورات الشخصية التى نبنى بها عالمنا والمسئوليات التى نقبلها او نرفضها" ان اى علم يتصور نفسه متحررا من القيم هو علم بال وقديم ومعنى ذلك أن حياة الانسان الفكرية والأخلاقية والروحية هى حقائق واقعية مثل حقائق حياته البيولوجية. واحد الأسئلة الأساسية المتعلقة بالأخلاق ينصب على أولوية بعض القيم على غيرها. فنحن نختار الاشياء لاعتقادنا بأنها خير لنا وتبادلنا للمعلومات والمصالح يحكمه ذلك التصنيف، فهناك اشياء افضل من اشياء.

ترى النظرة الجديدة الى علم النفس أن كل ما يحيط بالانسان هو سلع مادية وسلع روحية ، ونعنى بالسلع الروحية القيم الأخلاقية والفكرية والجمالية. ومن الممكن تقسيمها الى فئتين: سلع الفكر وسلع الشخصية ، وتشمل الفئة الأولى المعرفة العقلية والتى تشمل العلم والمهارة الفنية وسداد الرأى فى الشئون العملية والحكمة اما الفئة الثانية فتشمل جميع خصال الارادة الجديرة بالاحترام كالكرم والشجاعة والأمانة. واهم ما يميز تلك السلع الروحية انها لا تكتسب الا بالاختيار الحر. وتكمن فى الانسان امكانيات أن يكون صاحب قيم واخلاق او يتخلى عنهما وتحقيق اى منهما يتوقف على القرارات. والسلع الفكرية هى وحدها التى تبقى لنا حين نجرد من كل ما عداها، وهى التى تمدنا بقوة تفوق قوة السلع البدنية. ان علم النفس فى النظرة الجديدة يقر بأن العقل والعزيمة هما اسمى ملكات الانسان. (١)

ونظرا لان السلع الروحية تعزز التعاون بدلا من الصراع بين الناس يخلص مازلو الى القول اننا "نستطيع الآن أن نخفض الخطأ الذى يكاد يكون عالمى الانتشار وهو أن مصالح الفرد والمجتمع هى بالضرورة متنافية ومتضادة، وأن الحضارة هى بالدرجة الأولى اسلوب للتحكم فى حوافز الانسان الشبيهة بالغرائز" .

---

(١) روبرت اجروس، جورج ستانسيو " العلم فى منظوره الجديد" ترجمة كمال خلايلى، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، فبراير ١٩٨٩ .

أن الاساليب الايحائية شبه التنويمية فى المود الاعلامية تعد خطرا كبيرا على الصحة النفسية وخصوصا على الصفاء الذهنى والتفكير النقدى واستقلالية الوجدان . ولا شك لدينا أن أى دراسة استقصائية جادة سيمكنها أن تثبت أن الأضرار التى تلحقها المخدرات بالعقل ليست الا جزءا ضئيلا بالقياس الى تلك التى تحدثها أساليب غسل المخ مثل التكرار المستمر وصرف التفكير العقلانى واثارة الغرائز وشهوة الجنس. وهل يوجد ما هو أقدر على تعطيل العقل الانسانى ونشوء التفاعلات الاجتماعية الحرة من قذفه بهذا الوابل الذى لا يتوقف من الأساليب الايحائيه، تلك الأساليب التى تخلق مناخا بين اليقظة والنوم بين التصديق والتكذيب وافقاد الانسان الاحساس بالحقيقه.

والاعلام عنصر حاسم فى تشكيل ديموقراطيه حقيقية ذات فاعلية ومن ثم يجب أن نكف عن حجز الحقائق أو تزييفها بدعوى حماية الأمن القومى وما الى ذلك . ان تبادل المعلومات الحقيقية هو أساس التفاعل والتقدم الاجتماعى. ونستطيع أن نجزم أن كمية المعلومات الحقيقية والضرورية التى تقدم حاليا للمواطن المتوسط تكاد تكون صفرا. بل لقد ثبت فى حالات كثيرة أن أغلبية الممثلين المنتخبين وأعضاء الحكومة وقيادة القوات المسلحة وكبار رجال المال والأعمال ليسوا على معرفة كافية بالمعلومات اللازمة، بل أن معلوماتهم مشوهة الى حد كبير، بسبب ما تنشره مختلف الهيئات الحكومية من أباطيل وما تردده أجهزة الاعلام من ترهات.

ولكى يكون عندنا رأى عام واع قادر على المساهمة فى اتخاذ القرارات، ولكى يقوم التفاعل الاجتماعى بدوره فى تحقيق أهداف المجتمع وخلق جماعات متماسكة، فان مشكلة الاعلام يجب أن تحل بشكل مختلف. اذ تتولى الجماعات المختلفة جمع المعلومات اللازمة لها ويتاح لها فرصة توزيعها ونشرها بحيث يصبح تبادل المعلومات هو الأساس الديموقراطى للمشاركة. ويجب أن تحتوى تلك المعلومات على كافة الحقائق الأساسية والبدائل الممكنة فى جميع المجالات التى يطلب فيها اتخاذ القرار. وأن ينشر رأى الأغلبية والأقلية دائما وأن يتاح للجميع الاطلاع على تلك الآراء .

والآن ما هو الدور المنتظر لعلم النفس الاجتماعى فى المجتمع المصرى المعاصر، وفى مجتمعات العالم الثالث عموما، من حيث البحث عن تأثير الجماعة فى قيم واتجاهات وسلوك الأفراد. تواجهنا فى تلك المجتمعات مشكلة تفسخ وانهيار القيم ونشوء اتجاهات مدمرة للمجتمع ومعوقة له عن تحقيق أهدافه وانصراف أعضاء الجماعات المختلفة الى تحقيق مصالحهم الذاتية دون أى مراعاة لمصالح الآخرين وفشل القيادات فى أن تضرب المثل والقدوة وأخطر ما فى الأمر أن هذا التلف يتضح بشكل واسع لدى الجماعات القيادية ولدى أبناء الفئات المسيطرة ماليا وسياسيا واجتماعيا. قد آن الأوان لأصحاب علم النفس الاجتماعى ان يلتفتوا بشكل جاد لدراسة ديناميات الجماعات الغنيه والمسيطرة فى المجتمع، تلك الجماعات التى نادرا ما تعرضت لدراسة علمية جادة لأن معظم الباحثين كانوا دائما من السائرين فى ركابها. وفى اعتقادنا أن معظم العلوم الانسانيه وعلم النفس الاجتماعى خاصة قد توسعت فى دراسة الفئات الاجتماعية المقهورة والفقيرة اما لتأثرها

يجب أن نقرر منذ البداية انه يستحيل الوصول الى مجتمع جديد وعلاقات جديدة الا اذا حدث تغيير عميق فى الضمير الانسانى، الا اذا ظهر شيء جديد يكرس الناس حياتهم من أجله ويحل محل ما هو موجود حاليا. فالعلاقة بين الشخصية الاجتماعية والبنية الاجتماعية لا

يمكن أن تكون ساكنة ابدا لان طرفى هذه العلاقة صيرورتان دائمتا التغير، واى تغيير يطرأ على أحدهما يعنى تغييرا فيهما معا. وانطلاقا من مفهومات النظرة الجديدة الى علم النفس فانه توجد وظيفة هامة أخرى للشخصية الاجتماعية وهى اشباع الاحتياجات الدينية للكائن الانسانى، تلك الاحتياجات التى هى جزء أصيل من تكوينه.

ان البنية الاجتماعية/ الاقتصادية والبنية الشخصية والبنية الدينية كلها مقولات مترابطة لا تنفصل واحدة عن الأخرى.

ان المفهوم الذى يقوم عليه علم النفس الاجتماعى وهو أن جوهر علاقة الجماعة بالفرد هي الامتثال والانصياع يترتب عليه أن يكون هذف شخصيات المجتمع هو "اداء الوظيفة على الوجه الاكمل". هذا الفهم يتعرض الأن لهزات اجتماعية وسياسية عالمية أوجدت أفكارا تروج الآن بين مفكرى العلوم الانسانية مثل أن منتجات النشاط الانسانى يجب أن توضع فى خدمة الاحتياجات الحقيقية للناس لا النظام الاقتصادى/ السياسى وأن العداء المتبادل يجب أن يحل محله التضامن والتكامل (التيسير والتفاعل) وأن الهدف من كل أشكال التنظيم الاجتماعى يجب أن يكون صالح البشر وسعادتهم وان الفرد يجب أن يكون مساهما نشيطا وايجابيا فى الحياة الاجتماعية.

لقد أدت التفاعلات الاجتماعية والتأثيرات الناشئة عنها فى ظل الامتثال والخضوع والتمرد وفى ظل السلطة الهائلة للمجتمع الى تضخم اعتماد الانسان على سلطة الجماعة بحيث كاد يوقفه عن أن تكون له حياته ووجوده العقلى الخاص به.

لذلك لابد من ظهور علم جديد لقضايا الانسان، علم مختلف تماما الاختلاف لدراسة الانسان وقضاياه المصيرية يكون اساسا لعلوم وفنون تطبيقية فى مجال اعادة البناء الاجتماعى. ويرى اريك فروم أن لا أحد يستطيع أن يتنبأ ان كان مثل هذا الانتقال من سيادة العلوم الطبيعية الى علم اجتماعى جديد سيحدث أم لا ويقول " فى اعتقادى أن لا مستقبل لنا الا اذا وعت أنبه العقول البشرية أبعاد الأزمة الراهنه وعبأت طاقاتها وكرست جهودها المشتركة من أجل هذا العلم الانسانى الجديد، فليس أقل من ذلك بقادر على التصدى لحل مشكلات الانسان المعاصر"(١)

ولكى يقوم تواصل حقيقى يجب حظر كل اساليب غسيل المخ المستخدمة فى الاعلانات السياسية والصناعية فخطورة تلك الأساليب لا تقتصر على دفعنا الى شراء أشياء لا نريدها وانما تقودنا أيضا لاختيار ممثلين سياسيين لا يمكن أن نريدهم أو نحتاج اليهم لو كنا مالكين تماما لقدراتنا العقلية. فالحقيقة أن أساليب الاعلان والدعاية نجحت فى جعلنا غير مالكين تماما لقدراتنا الذهنية بفضل التشابه بين تلك الأساليب وأساليب الايحاء المتبعة فى التنويم ولذلك يجب منع الأساليب الايحائية المغيبة للعقل فى الدعاية والمواد الاعلامية.

---

(١) اريك فروم، الانسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، ومراجعة وتقديم لطفى فطيم، سلسلة عالم المعرفة الكويت - أغسطس ١٩٨٩.

بالتوجهات الماركسيه واما لأنها كانت فى خدمة الفئات المسيطرة عن وعى أو عن غير وعى. ويزداد اليوم التوجه الى تفسير شرور المجمع بالرجوع الى الدراسة العلميه الجادة لسلوك الفئات والجماعات الاجتماعية العليا تلك التي يجب أن تكون القدوة ومضرب المثل ولكن ويا للأسف أصبحت هى القدوة ولكن فى كافة أوجه الفساد والتدهور. ويكفى أن يلقى المرء نظرة على ما ينشر من فضائح وجرائم في الصحف- وما خفى كان أعظم - ليدرك أن المعايير الاجتماعية قد فقدت تأثيرها، وأن أبناء هذه الفئات لا يمتثلون بأى حال لتلك المعايير. فكيف نفسر هذا التناقض في السلوك والاتجاهات وكيف نعيد الى ضغوط الجماعة قوتها التى ترغم الفئات الضالة على الامتثال. وما الذى طرأ على نظام القيم لدى الفرد ولدى الجماعة وما هى الأساليب التى يجب اتباعها لخلق التوازن، بل وكيف نبحث هذه الظواهر فى مأمن من بطش الدولة أو المتعصبين أو الجهلة... هذه قضايا لا اظن أننا سنجد فى عصرنا الحالى من سيقوم على الاضطلاع بمهامها الشاقة.

" مراجع الكتاب "

أولا : المراجع العربية :

١ - ابو زيد، فاروق - عصر التنوير العربي- المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ١٩٧٨م .

٢ - ابو النيل ، محمود السيد - علم النفس الاجتماعي- الجهاز المركزي للكتب الجامعية - القاهرة - ١٩٧٥ .

٣ - الجوهري ، محمد (وآخرون) مقدمة في علم الاجتماع (ط-٢)- دار المعارف ١٩٧٧ .

٤ - الخشاب ، مصطفى - علم الاجتماع ومدارسه - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٦ .

٥ - اندريفيا ، جالينا - البسيكولوجيا الاجتماعية - دار التقدم- موسكو ١٩٨٨ .

٦ - بيلز، رالف، هارى هويجر - مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة- ترجمة محمد الجوهرى ومحمد الحسينى، دار نهضة مصر ١٩٧٦م.

٧ - تايلور، ج - ترجمة لطفى فطيم - عقول المستقبل - عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٥ .

٨ - تـ ملر ، الفين - ترجمة محمد على ناصف - صدمة المستقبل - دار نهضة مصر - ١٩٧٤ .

٩ - بووتول ، جاستون - تاريخ علم الاجتماع - ترجمة غنيم عبدون - الدار القومية للطباعة والنشر - بدون تاريخ .

١٠ - حفنى، قدرى - مقالات فى علم النفس الاجتماعى - مكتبة سعيد رافت - ١٩٨٣م .

١١ - حفني ، قدرى - الشخصية الاسرائيلية (ط ٢) - دار الشايع للنشر - الكويت - ١٩٧٨ .

١٢- زهران، سعد - الحرب الايديولوجيه وسقوط الشيوعية السوفيتية - العربى للنشر - القاهرة ١٩٩١ .

١٣- ستور، انطوني - فن العلاج النفسى - ترجمة لطفى فطيم - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٩١ .

١٤- شفايترز، البرت - فلسفة الحضارة - ترجمة عبد الرحمن بدوى- دار الاندلس - بيروت ١٩٨٠ .

١٥- شو، مارفن - ديناميات الجماعة - ترجمة مصرى حنورة ومحيى الدين احمد - دار المعارف - ١٩٨٦ .

١٦- عويس، سيد - قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى - دار روز اليوسف - القاهرة ١٩٨٨ .

١٧- غيث، عاطف - قاموس علم الاجتماع - الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩ .

١٨- فطيم، لطفى - نظريات التعلم المعاصرة - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٨ .

١٩- فطيم، لطفى - الارشاد النفسى والتوجيه التربوى - دار المريخ- الرياض ١٩٨١ .

٢٠- كوماس، جوان - خرافات عن الأجناس - ترجمة محمد رياض - مكتبة نهضة مصر الالف كتاب (بدون تاريخ).

٢١- مليكة، لويس - سيكولوجية الجماعات والقيادة - الدار القومية - ١٩٧٧ .

٢٢- لوك - هيوم - روسو - العقد الاجتماعى - ترجمة عبد الكريم احمد - القاهرة الالف كتاب (بدون تاريخ)

٢٣- ماكلوهان، مارشال - كيف تفهم وسائل الاتصال - ترجمة خليل صابات وآخرون - دار النهضة العربية ١٩٧٥ .

English References

1. Aronson, E, The social Animal (4th ed.), Freeman & Co New York, 1984.

2. Argyle, M. Social Interaction, Tavistock Publications, London, 1978.

3. Argyle, M. The social Psychology of work, (2nd, ed.), Penguin, 1989.

4. Arthur, M., The obedience experiments, Praeger, 1986.

5. Atkinson & Hilgard, Introduction to Psychology (8th ed.), Harcourt Brace, U.S.A., 1983.

6. Beck, R., Applying Psychology, Prentice Hall, 198[illegible].

7. Bakeman & Gottman, Observing Interaction, Cambridge Univ. Press, 1986.

8. Brehm & Kassin, Social Psychology, Houghton Mifflin, Boston, 1990.

9. Corey & Corey, Groups, (3 rd ed.), Brooks/Cole, 1987.

10. Daniel Bar-tal (et al) (eds.), Stereotyping & prejudice, Springer verlag, New York, 1989.

11. Encyclopedia of Psychology, Corsini (ed.), Wiley, 1984.

12. Forbes, H., Social Science and Critical Theory, Univ. of Chicago Press, 1985.

13. Fraser, C. & Gaskell, G. (eds.), The Social Psychological study of widespread beliefs, Oxford, England, Clarendon Press, 1990.

14. George, Howard, Dare we develop a human science? Academic Press, 1986.

15. Himmelweit & Gaskell, Societal Psychology, Sage, 1990.

16. James Weyant, Applied Social Psychology, Oxford Univ. Press, 1986.

17. Katinka, M., The Encyclopedia of Reality, Granda Publishers, New York, 1979.

18. Kolb (et al), Organizational Psychology (4 th ed.). Prentic Hall, 1984.

19. Krech & Crutchfield, Theory & Problems of social Psychology Mcgrawhill, 1948.

20. Knud Larsen, (ed.), Dialecties & Ideology in Psychology, Ablex, 1986.

21. Kraus & Perloff (eds.), Mass Media & Political Thought, Sage, 1985.

22. Lahy & Ciminero, Maladaptive behaviour, Scott Forseman, 1980.

23. Leary & Miller, Social Psychology & Dysfunctional Behaviour, Springer Verlag, 1986.

24. Mackenzie, N. (ed.), Aguide to the social sciences, Weiden feld & Nicolson, London, 1966.

25. Marx, Melvin, (ed.), Psychologyical theory, Macmillan, 1952.

26. Marvin Shaw & Jack Wright, Scales for the measurement of attitudes, Macgrawhill, 1967.

27. Meyers, Social Psychology (snd ed.), Mc Grawhill, 1987.

28. Nutt, P., Making tough decisions, Jossey-Bass, 1989.

29. Penner, L., Social Psychology, St. Paul, U.S.A., 1986.

30. Pryor & Day (eds.), The development of social cognition, Springer vcrlag, 1985.

31. Pawel Lewicki, Nonconscious social information processing, Academic Press, 1986.

32. Pruitt & Rubin, Social conflict, Random House, 1986.

33. Robert Cialadini, Influence, scott Forseman, 1985.

34. Roberg Feldman, Social Psychology, Sage, 1990.

35. Roger Trigg, Understanding Social science, Blackwell, 1985.

36. Shaver, K., Principles of social Psychology, (3 rd ed.), Erlbaum, 1987.

37. Thomas Leahy, A History of Psychology, (2 nd ed.) Prentice Hall, 1987.

38. Willem Doise, Levels of explanation in Social Psychology, Cambridge Univ. Press, 1987.

39. Worchel & Copper, Unerstanding Social Psychology, Dorsey Press, 1986.

رقم الايداع
٩٢ / ٤٠٢٢
ISBN
977 / 200 / 032 / 6

" هذا الكتاب "

بداية [illegible] هذا [illegible] وفي ذه[illegible] انه سي[illegible] كتابا دراسيا لمن [illegible] هذه [illegible] في [illegible] الكليات [illegible] كانت دو[illegible] المسندة هي عدم وجود [illegible] ذو حجم [illegible] مناسب [illegible] كتب المت[illegible] تز[illegible] عدد صفحات الواحد منها [illegible] الخمسمائة ، وتحتشد [illegible] المعلومات بحيث لا [illegible] على الاستيعاب . كما [illegible] أن العلاقة [illegible] بين علم النفس [illegible] الاجتماع لا تحظى بتغطية كافية في معظم تلك [illegible] أن [illegible] انتباهي هو عدم وجود "اطار" [illegible] بالمادة [illegible] أن [illegible] ذلك [illegible] بساطة وبشكل مباشر ، و[illegible] يدرك [illegible] سيكتسب [illegible] تلك الدر[illegible] . كذلك [illegible] أحد [illegible] بشغف [illegible] علم النفس الاجتماعي [illegible] وجد [illegible] لابد لي من مو[illegible] النفس الاجتماعي [illegible] فحتى الجنب [illegible] تعاني [illegible] ذلك [illegible] على [illegible] بالشجاعة [illegible] النفس [illegible] التدبير [illegible] الاجتماعي [illegible] هو دراسة الجماعات [illegible] في [illegible] الأولى [illegible] الجماعات الكبيرة [illegible] على [illegible] "ذولف" [illegible] في سلسلة من التحليل [illegible] يتناسب [illegible] السوسيومتري . [illegible] من جو[illegible] هذا [illegible] التغيير الاجتماعية [illegible] عليه [illegible] وأن [illegible] أو [illegible] ، الاتجاهات (القيد) و[illegible] يتم [illegible] هي [illegible] المعلومات [illegible] ذلك [illegible] يرمي [illegible] الفرد والجماعة [illegible] اتخاذ القرار المناسب .

في النهاية [illegible] مسألة العلوم الانسانية [illegible] أن يعاد فيها النظر [illegible] وفي ضوء [illegible] في عالمنا الحديث عند بداية القرن الحادي و[illegible]